

على خطى النبي

(دروس من حياة النبي محمد ﷺ)

طارق رمضان

نقله إلى العربية

د. زهير السمهوري

العبدان
Obékan

Original Title
IN THE FOOTSTEPS OF THE PROPHET
Lessons from the Life of Mohammad

TARIQ RAMADAN

Copyright © 2007 by Oxford University Press, Inc.

ISBN-13: 978-0-19-530880-8

ISBN-10: 0-19-530880-8

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition
Published by Oxford University Press, Inc. 198 Madison Avenue, New York,
NY 10016 (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعيكان بالتعاقد مع مطابع جامعة أوكسفورد، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية.

© 2010 _ 1431

ISBN 9 - 943 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1431 هـ . 2010م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

مكتبة العبيكان، 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رمضان، طارق

على خطى النبي. / طارق رمضان؛ محمد زهير السمهوري. - الرياض 1431هـ.

338ص؛ 14 × 21سم

ردمك: 9 - 943 - 54 - 9960 - 978

1 - السيرة النبوية أ. السمهوري، محمد زهير (مترجم)

ب. العنوان

180 / 1431

ديوي: 239

رقم الإيداع: 180 / 1431

ردمك: 9 - 943 - 54 - 9960 - 978

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العريضة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

7	إقرار وشكر
11	مقدمة
17	1. مع النصوص المقدسة
27	2. المولد والنشأة
39	3. الشخصية والبحث الروحي
51	4. الوحي، العلم
61	5. الرسالة والشدائد
77	6. المقاومة والتواضع والنفى
95	7. المحن والارتقاء والآمال
119	8. الهجرة
137	9. المدينة، الحياة، والحرب
159	10. التعاليم والهزيمة
183	11. الخدع والخيانة
211	12. حلم، سلام
233	13. العودة إلى الوطن
255	14. في الوطن، هناك

- 279 15. تسديد الديون
- 295 16. في التاريخ إلى الأبد
- 303 الحواشي



إقرار وشكر

في ساعات الفجر التي كنت أخط فيها هذا الكتاب، كان الصمت يخيم على الكون ويغرق المرء في وحدة وتأمل ومعاينة السفر الذي يتجاوز الزمن والمكان، متجهاً إلى القلوب وإلى جوهر السعي الروحي، والدخول في مضمار المعاني، واقتتران ذلك في كثير من الأحيان بذرف الدموع والتأمل وشدة التأثر، كنت بحاجة إلى هذا.

ومع مرور الوقت، كانت أعداد الرجال والنساء الذين أتاحوا لي المجال لإنهاء هذا المشروع تزداد يوماً بعد يوم، وأكاد أشعر باليقين بأنه سيفوتني ذكر بعض هذه الأسماء، وإن كان هذا لا يقلل بحال من الأحوال أهمية وجودهم وإسهامهم.

لقد تم حذفها لأسباب اقتضتها بواعث الحكمة والرغبة في التواري عن الأنظار، إن ذلك يبعث في نفسي تقديراً عميقاً لهم ويملاً قلبي بالشكر والعرفان اللذين يعرفان أنهما يتجاوزان هذه الصفحات في الإعراب عن مودتي وامتناني لهم.

أود قبل كل شيء أن أشكر فارس كيرواني، ونيل كاميرون اللذين طلبا مني قبل سنتين تولي عملية السرد في فيلم بعنوان (على خطى النبي محمد) لقناة بث بريطانية، ومن سوء الحظ إن اعتبارات سياسية (حيث حظرت حكومتان عربيتان دخول أراضييهما) حالت دون تنفيذ هذا المشروع.

عندها قررت أن أقوم بشيء مختلف كل الاختلاف وأكتب سيرة النبي محمد ﷺ، وأحاول إلقاء الضوء على التعاليم الروحية والمعاصرة في حياة النبي، وقد شجعني الكثيرون من حولي على تنفيذ هذا العمل، وإني مدين إلى إيمان ومريم وسامي وموسى ونجمة لصحبته ودعمهم المتواصل، وإلى أمي لبعض الأفكار الأصلية التي كانت تطرحها من حين لآخر في مناقشاتنا. وأود أن أشكر سينثياريد، من مطبعة جامعة أكسفورد (نيويورك)، شكراً عميقاً على حماسها وإخلاصها وإنسانيتها المستديمة، ففي تعاونها من أكسفورد وجدت أيضاً نساءً ورجالاً مقدرين ومتعاطفين.

كان عملي، طيلة هذه السنة الأكاديمية، مقترناً بوجود غوين غريفيث ديكسون ونيكي محمد من مؤسسة لوكاهي في لندن، وفي كلية سانت أنتوني، جامعة أكسفورد، مكنتي ووالتر آرمبروست ويوجين روغان (مركز الشرق الأوسط) و تيموثي غارتون وكاليسو نيقولايديس (مركز الدراسات الأوروبية)، من إتمام هذا العمل في أفضل الظروف من خلال دعمهم الأكاديمي ومودتهم، ولا أنسى بولي فريدهوف (التي آن لها التقاعد)، وفرانكا بوتس، وكوليت كافري، اللواتي كن دائماً على استعداد لمساعدتي. فألى هؤلاء جميعاً وإلى جميع النساء والرجال الذين أحاطوني برعايتهم ودعمهم الكريم، أود أن أعرب عن عميق شكري وامتناني.

وهناك أيضاً ياسمين ديف، مساعدتي، التي تدير مكتبي الأوروبي بطريقة كلها همة ونشاط. وقد اضطلعت شيلينا ميراني في كندا، بعمل صعب بتفان وتضامن. وكانت منى علي، وهي أكثر من مساعدة في الولايات المتحدة، تواصل القراءة والتعليق وإشراكي في أفكارها بجد وإخلاص، وقد قامت كلود دباك بترجمة هذا الكتاب ولم تتردد، بتواضعها الشديد، في

وضع معرفتها وثقافتها في خدمة الإصلاحات اللازمة، ولم يكن بالإمكان إتمام هذا الكتاب دون مساعدة وتعاون هذا الفريق الذي كان في آن واحد أخوياً ويصر على الإتقان والإخلاص في العمل، أشكرهم من صميم قلبي لمصاحبتي في هذه الرحلة وإتاحة المجال لنا كي نتقدم معاً على هداه، ضد ما كان يعصف بنا من الرياح والمد والجزر.

والشكر، كل الشكر والحمد، كل الحمد، للواحد الأحد، الأقرب إلي من حبل الوريد، وأدعوه أن يقبل مني هذه السيرة النبوية، وأن يغفر ما قد يكون قد اقترن بهذا العمل من أخطاء وهي مسؤوليتي وحدي، وأن يجعله معلماً صغيراً في الجهد البشري الذي يرمي إلى تحقيق التفاهم والمصالحة مع الذات ومع الآخرين، وذلك من خلال محبته، وإني لا أزال أتعلم كل يوم أن السعي وراء تحقيق التواضع لا يمكن أن يبرر، أي الابتعاد عن المقتضيات الروحية أو الإمامة الفكرية.

أما بالنسبة لي، فإن هذا الكتاب مجرد انطلاقة، وآمل أن يكون كذلك للآخرين، إن طريق المنفى الذي يقود إلى الذات طريق طويل..

لندن

مايو 2006



مقدمة

يوجد عدد لا يحصى من الكتب التي تتناول السيرة النبوية⁽¹⁾. فمن المصادر القديمة (مثل أعمال ابن إسحاق وابن هشام) إلى كتب السيرة الحديثة عن حياة رسول الله ﷺ، فضلاً عن الأعمال الشهيرة التي ألفها الباحثون المسلمون عبر التاريخ، يبدو أن كل شيء قد قيل المرة تلو المرة وأنه لم يعد هناك ما يقال؛ لذا، لم الاضطلاع بمحاولة أخرى؟

هذه السيرة لا ترمي إلى منافسة المصادر القديمة (وهي في الواقع المادة التي اشتقت منها)، أو إلى الكشف عن أي حقائق جديدة أو طرح أي تفسير جديد مبتكر أو ثوري لحياة النبوة وسياقها التاريخي، بل إن أهداف هذه الدراسة هي أكثر تواضعاً بكثير، وإن كان ذلك لا يجعل تحقيقها أكثر سهولة.

إن النبي محمد ﷺ يحتل مكانة خاصة في حياة المسلمين وفي ضمائرهم اليوم، مثلما كان عليه الحال في الماضي، فهم يدركون أنه تلقى ونقل إليهم آخر كتب الوحي المتمثل في القرآن، الذي يقرر في مواضع كثيرة ويؤكد على المركز المتميز والفريد الذي يحتله رسول الله، الذي كان في آن واحد نبياً ومبشراً ونموذجاً يحتذى به هادياً للبشرية، ولقد كان بشراً، لكنه عمل على تغيير العالم في ضوء الوحي والإلهام من الله، ربه ومولاه، إن كون هذا الإنسان قد اصطفاه الله لهداية البشر، وقبوله التام لبشريته هو ما يجعل محمد ﷺ قدوة وهادياً للمؤمنين المسلمين.

إن المسلمين لا يعتبرون رسول الإسلام وسيطاً بين الله والناس، فكل فرد مدعو لمخاطبة الله مباشرة، ومع أن الرسول كان يقوم في واقع الأمر في بعض الأحيان بالاستغفار لأمته، إلا أنه كان يؤكد في كثير من الأحيان على مسؤولية كل مؤمن في صلته وعلاقته بالواحد الأحد.

كان محمد ﷺ مجرد مذكر للمؤمنين بوجود الله، فهو يأخذ بيدهم ليعرفهم به ويدلهم على الطريق الذي يقودهم إلى الحياة الروحية التي كان يدعو أصحابه والأمة جمعاء من خلاله إلى وجوب تجاوز ما يشعرون به من إجلال ومحبة له في العبادة والمحبة اللتين يجب عليهما تقديمهما وطلبهما من الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد.

وقد أمره الوحي أن يجيب أولئك، الذين كانوا يريدون منه، في حياته، الإتيان بالمعجزات والأدلة المحسوسة على نبوته، بأن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (2). وهذا الوحي ذاته يبين للمؤمنين، على مرور الأجيال وإلى الأبد، الوضع الفريد لهذا الرسول الذي، رغم أنه مصطفى من الله، إلا أن صفاته البشرية ظلت ملازمة له: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (3). هذان البعدان، بشرية الإنسان ومثالية النبي، يمثلان محور تركيزنا واهتمامنا في هذه السيرة.

هذه السيرة لن تكون سرداً مفصلاً للوقائع التاريخية والمنجزات العظيمة أو المعارك الشهيرة، فهذه المسائل تناولها كتاب السيرة الأقدمون بكثير من التفصيل، لكن اهتمامنا سيتركز بشكل رئيس، في مجرى سردنا

لقصة حياته، على الظروف والمواقف أو الكلام مما يمكن أن يكشف النقاب عن شخصية محمد ﷺ، وما يمكن أن نتعلم منها وما يمكن أن ترشدنا إليه. عندما سُئِلَت السيدة عائشة مرة عن شخصية النبي ﷺ، أجابت: «كان خُلِقَ القرآن»⁽⁴⁾، وبما أن القرآن يخاطب ضمير المؤمنين عبر العصور، فإن من الأمور الأساسية، على ما يبدو، أن نلاحظ الكيفية التي «يخاطبنا» بها ذلك الإنسان الذي جسدها في سلوكه، ويرشدنا ويرينا في هذه الأيام.

لذا فقد كانت الفكرة الأولى أن ننفض إلى قلب حياة النبي ﷺ ونستقي منها تعاليمه الروحية الخالدة. لقد كانت حياته، منذ ولادته وحتى وفاته، حافلة بالأحداث والظروف والأقوال التي تنطوي على أعمق التثقيف والتنوير الروحيين. فالالتزام بالإيمان والحوار مع الله، ومشاهدة الطبيعة والشك في الذات والسلام الداخلي والعلاقات والفتن، وغيرها هي مواضيع تخاطبنا وتذكرنا بأنه لم يتغير شيء من حيث الأساس. فسيارة الرسول ﷺ تشير إلى المسائل الوجودية الأساسية والأزلية، وبهذا المعنى فإن حياته تلقين لنا.

ومع ذلك فإن نوعاً آخر من الدروس يمكن استقاؤه من الأحداث التاريخية التي كانت تملأ حياة النبي ﷺ. ففي القرن السابع، وفي خضم بنية اجتماعية وسياسية وثقافية، كان رسول الله ﷺ يعمل ويرد ويعبر عن البشر والأحداث باسم دينه، وفي ضوء تعاليمه الأخلاقية، إن دراسة أفعاله في هذا الإطار التاريخي والجغرافي الخاص، سوف يمكننا من إلقاء

الضوء على عدد من المبادئ المتعلقة بعلاقة الدين بالبشر والأخوة والحب والشدائد والحياة الجماعية والعدالة والقوانين والحرب. لذا، فقد حاولنا التصدي لحياة محمد ﷺ من منظور أزمنا الراهن، فننظر كيف أنها ما زالت تخاطبنا وتعرفنا بماهية محمد ﷺ وتعاليمه المعاصرة.

وهكذا، فإن هذه دعوة للقارئ، المسلم وغير المسلم، لأن ينظر إلى حياة النبي ﷺ ويتابع خطوات ما نشر من حياته مع المحافظة الصارمة على ما ورد في كتب السيرة الكلاسيكية (فيما يتعلق بالوقائع والتسلسل التاريخي) لكن هذا السرد يظل يطرح تأملات وملاحظات ذات طابع روحي أو فلسفي أو اجتماعي أو قضائي أو سياسي أو ثقافي مردها إلى الوقائع التي يجري سردها، إن اختيار التركيز على بعض الأحداث دون غيرها يعود بالطبع إلى الرغبة في استقاء التعاليم التي تخاطب حياتنا وعصرنا الراهن. وسوف يلاحظ القارئ في كل قسم من الفصول (التي تعمدنا أن تكون قصيرة) والتي يتكون منها هذا الكتاب، عمليات انتقال متواصلة من حياة النبي والقرآن والتعاليم التي تمت بصلة إلى الحياة الروحية والظروف الراهنه والتي يمكن استقاؤها من مختلف الأوضاع التاريخية.

إن هدفنا يتوجه إلى معرفة النبي ﷺ ذاته أكثر من التعرف على شخصيته أو على أحداث حياته. إن ما ننشده هو الغوص والتعاطف وبشكل أساسي، الحب. وسواء أكان المرء مؤمناً أو غير مؤمن، فإنه ليس من المتعذر محاولة الغوص فيما كان يسعى إليه النبي ﷺ في وجوده واقتناص النبض - الروح - الذي كان يشوب رسالته ويجعلها ذات معنى. هذا هو في الواقع ما يطمح إليه هذا العمل بالدرجة الأولى: جعل حياة الرسول ﷺ

مرآة يمكن من خلالها للقراء الذين يواجهون تحديات عصرنا الغوص في أعماق نفوسهم وعقولهم والتوصل إلى فهم لمسائل الوجود والمعنى فضلاً عن اهتمامات أخلاقية واجتماعية أوسع نطاقاً.

يخاطب هذا الكتاب جمهوراً واسعاً من القراء، من مسلمين وغير مسلمين، فالنص يتميز بالدقة والصراحة الأكاديميتين بشأن المصادر الإسلامية الكلاسيكية، التي نأمل أن تكون ذات فائدة للباحثة وللعلوم الإسلامية. وعلى نقیض ذلك، سيجد القارئ أن سرد أحداث السيرة، التي يخالطها التأمل والتفكير، ينطوي على سهولة متعمدة في الفهم ويرمي إلى نقل وإيضاح التعاليم الروحية والعالمية، ومن الواضح أن تجربة الرسول ﷺ التاريخية هي الطريقة المتميزة لإدراك المبادئ الأزلية التي يعتقها أكثر من مليار من المسلمين في أنحاء العالم، لذا يمكن القول بأن هذا الكتاب مقدمة حية عن الإسلام.

لقد علّم الرسول ﷺ صحابته محبة الله، كما علمهم القرآن: ﴿قُلْ (أيها الرسول) إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (5). وقد سعى هؤلاء سعيّاً حثيثاً في اتباع سنته يدفعهم حبهم له الذي كان بدوره ينتعش من خلال محبتهم لله، لقد بلغت محبة عمر بن الخطاب ؓ درجة كبيرة بحيث إنه عندما سمع بموت النبي ﷺ، هدد بقتل كل من يجروء على القول بأن النبي قد مات: بل إنه صعد إلى السماء وأنه عائد إليهم لا محالة. فقام صحابي آخر، أبو بكر الصديق ؓ، وقال لعمر أن يهدأ وصرح قائلاً: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» (6). ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ

يَقْلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ (7).
 تلك الكلمات أعادت إلى الأذهان محدودية حياة الرسول ﷺ، لكنها
 لم تقلل بأي حال ما ظل المسلمون يشعرون به من المحبة غير المحدودة
 والإجلال العميق لخاتم الأنبياء على مر العصور.

يتجلى هذا الإعراب عن محبتهم له في الذكر الدائم لحياته في
 قلوبهم وذكرياتهم وما يقومون به دائماً من صلوات على الرسول، وفي
 الواجب البشري والأخلاقي لاتباع سنته في حياتهم اليومية، هذه السيرة
 تحاول تحقيق هذا الواجب بمحبة ومعرفة، إن حياة النبي ﷺ دعوة إلى
 الروحانية التي لا تتجنب أي مسألة وتعلمنا - خلال مجرى الأحداث والفتن
 والمصاعب ومن خلال سعينا - بأن الإجابات الصحيحة للمسائل الوجودية
 هي في معظم الأحيان تلك التي يملئها علينا القلب أكثر منها تلك التي
 يملئها العقل، فمن منطلق متجذر في الأعماق وبكل بساطة: إن من لا
 يستطيع أن يحب لا يمكنه أن يفهم.



الفصل الأول

مع النصوص المقدسة

كان التوحيد الإسلامي دائماً إلى جانب الاستمرارية مع التاريخ المقدس للنبوة، فمنذ البداية، كان الله الواحد الأحد يرسل إلى البشر أنبياء ورسلاً يوكل إليهم الرسالة، التذكرة به، وأوامره، وحبه، وأمله. ومن آدم، أول نبي، إلى محمد ﷺ خاتم الرسل، يعترف الإسلام ويتماهى مع سلسلة النبوة كلها، من أشهر الرسل (إبراهيم ونوح وموسى وعيسى... إلخ) إلى الأقل شهرة، فضلاً عن آخرين لا نعرف شيئاً عنهم، لقد كان الواحد الأحد دائماً معنا -نحن خلقه- منذ بداياتنا حتى نهايتنا، وهذا هو جوهر التوحيد (وحدانية الله) وما جاء في القرآن من إشارة إلى مصير البشر ومصير كل فرد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾⁽¹⁾.

نسب ومكان

مما لا شك فيه أن نسب النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام هو النسب الأكثر أهمية. وثمة أسباب كثيرة لذلك، لكن القرآن، يشير منذ البداية إلى هذه الصلة الخاصة بإبراهيم عليه السلام عبر التعبير الملح والمتواصل عن التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وإلى التزام الوعي البشري بالمشروع الإلهي، وإلى

إمكان وصول القلب إلى معرفة الله وسلامه من خلال بذل النفس، وهذا هو معنى كلمة «الإسلام»، التي كثيراً ما تترجم ترجمة سريعة بمجرد فكرة التسليم ولكنها تتضمن أيضاً المعنى المزدوج لـ «السلام» و«بذل النفس الصادق». فالمسلم، إذاً، هو كائن أراد، عبر التاريخ - وحتى قبل الوحي الأخير - بلوغ السلام الإلهي عبر بذل نفسه الصادق لله، بهذا المعنى، كان إبراهيم التعبير العميق والمثالي عن الإنسان المسلم:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةَ أَيْكُمْ إِلَاهُكُمْ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (2).

إلى جانب هذا الإقرار بالواحد الأحد، يبرز شخص إبراهيم عليه السلام على الأخص بين سلسلة الأنبياء وصولاً إلى رسول الإسلام ﷺ، لعدة أسباب أخرى، يحكي سفر التكوين - مثل القرآن - قصة أمة إبراهيم هاجر، التي ولدت طفله الأول، إسماعيل، في شيخوخته (3)، وقد طلبت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام الأولى - التي ولدت بدورها إسحق - من زوجها إبعاد أمته وطفلهما.

فأخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وإسماعيل بعيداً إلى وادٍ في شبه الجزيرة العربية يسمى بكة، وهي ما يعرف اليوم باسم «مكة». وتسرد القصة الإسلامية، مثل سفر التكوين، التساؤلات والمعاناة ودعاء إبراهيم عليه السلام وهاجر، اللذين أرغما على معاناة النفي والانفصال، وفي كل من النصوص الإسلامية واليهودية - المسيحية، نجد سرداً لهذا الاختيار بيقين وراحة

حميمة من أن الأبوين والطفل إنما كانوا ينفذون أمر الله الذي سيحمي
وبيارك ذرية إبراهيم عليه السلام من هاجر، يجيب الله، في سفر التكوين،
دعوات إبراهيم عليه السلام بشأن ابنه:

«أما بشأن إسماعيل، لقد سمعتك؛ إني سأباركه....
وسأجعله أمة عظيمة»⁽⁴⁾.

وبعد ذلك، عندما كانت هاجر في حالة من العجز والضعف دون
طعام وماء:

«وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء
وقال لها: «مالك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث
هو. قومي احملني الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة»⁽⁵⁾.

أما القرآن فإنه يخبرنا بدعوة إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِيقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ
وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي هَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾﴾⁽⁶⁾.

فعلى صعيد واقعي صرف، يعد محمد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام
ولذا فهو جزء من تلك «الأمة العظيمة» التي وردت في الكتاب المقدس. لذا،

فإن إبراهيم عليه السلام «أبوه» بالمعنى الأساسي، وتقرر النصوص الإسلامية بأن بركات دعاء هذا الأب تمتد لتشمل سليله آخر النبيين فضلاً عن المكان الذي ترك فيه هاجر وإسماعيل، حيث سيتعرض، بعد بضع سنين، إلى الاختبار المفزع للتضحية بابنه، وحيث سيقوم في خاتمة المطاف برفع قواعد البيت الحرام (الكعبة)، يسرد القرآن علينا ذلك على النحو الآتي:

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ (١١٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الشَّرَارِ مِنَّ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١١٦﴾ (٧).

هذا ما تنطوي عليه التعاليم الإسلامية: يوجد إله وسلسلة من الأنبياء، يحتل إبراهيم عليه السلام بينهم مركز الصدارة، ويمثل الأب الأصلي للمسلمين، وهو أب سلالة إسماعيل عليه السلام وصولاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أسبغ إبراهيم وإسماعيل طابع القدسية على هذا المكان في بكة (مكة) عبر إقامة بيت الله بيديهما. وفي هذا المكان على وجه التحديد ولد آخر الرسل الذي بعثه الله إلى البشرية: محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي حمل الرسالة التي تذكر الناس بالواحد الأحد وبالأنبياء وبالبيت الحرام. إله ومكان ونبي.

اختبار الإيمان: الشك والثقة

هذه الحقائق البسيطة وحدها تبين الصلة التي تربط حياة محمد ﷺ بحياة إبراهيم عليه السلام. على أن السلالة الروحية هي التي تكشف بشكل أوضح أيضاً الطابع الاستثنائي لهذه الصلة. إن تجربة إبراهيم عليه السلام برمتها تظهر البعد الأساسي للإيمان بالواحد الأحد. فقد كان يتعين على إبراهيم عليه السلام - الذي كان قد أصبح متقدماً جداً في السن والذي رزقه الله حديثاً طفلاً - المرور باختبار الانفصال والهجران، الأمر الذي سيوصل هاجر وطفلهما إسماعيل، إلى حافة الموت، إن إيمانه هو الثقة بالله: فهو يطيع أمر الله - مثلما أطاعته هاجر - ويستجيب له رغم معاناته، ولا يتوقف عن الدعاء إلى الله والتوكل عليه، وقد سألت هاجر إبراهيم عليه السلام عن أسباب ذلك السلوك وعندما علمت أنه أمر من الله استسلمت له طائعة، فقد سألت ثم صدقت، ثم قبلت، وبهذا رسمت خطوات «القبول الإيجابي» لإرادة الله: تسأل بعقلها وتفهم بذكائها وتستسلم بقلبها، ومن خلال هذه التجارب وبعد أن تجاوز إبراهيم عليه السلام حزنه البشري، وفي الواقع من خلال هذا الطابع ذاته لذلك الحزن، أقام إبراهيم عليه السلام علاقة مع الله تستند إلى الإخلاص والمصالحة والسلام والثقة، كان الله يجربه لكنه كان يكلمه دائماً ويلهمه ويفرش طريقه بالعلامات التي تبعث الهدوء والطمأنينة في نفسه.

بعد بضع سنين من هذا الهجران في الصحراء، تعرض إبراهيم عليه السلام إلى اختبار آخر: حيث أمره الله بأن يذبح ابنه الأول، إسماعيل⁽⁸⁾. وإليك القصة كما وردت في القرآن:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي
 أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَآ أَبَتِ افْعَلْ مَا
 تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
 ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴿٩﴾

كان اختباراً مروعاً: فمن أجل حب إبراهيم ﷺ لربه وثقته به كان عليه أن يضحي بابنه، رغم مشاعر المحبة الأبوية، فاختبار الإيمان يتجلى هنا في هذا الصراع بين حبين - فقد أطلع إبراهيم ﷺ إسماعيل على ما كان مطلوباً منه وكان ابنه هو موضوع التضحية وكانت كلماته المطمئنة لأبيه مثل علامة تأكيد: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ لَابْرِئِينَ﴾. وكما كانت عليه الحال قبل بضع سنوات مع هاجر، فقد وجد إبراهيم ﷺ في الآخرين علامات تمكنه من مواجهة الاختبار، تلك العلامات التي تعبر عن وجود اليد الإلهية في قلب الاختبار، كان لها دور أساسي في تجربة الإيمان وشكلت نمط كون المرء مع نفسه ومع الله. فعندما يشاء الله تعريض رسوله لاختبار مروع ويقرن في الوقت نفسه ذلك الاختبار بعلامات عن وجوده ودعمه (كلمات التثبيت من زوجته أو ولده، رؤيا، حلم، إلهام... إلخ)، فإنه يؤدب إبراهيم ﷺ في مجال الإيمان: فإبراهيم ﷺ يشك في قدرته وقوته وإيمانه، لكن العلامات تحول في الوقت نفسه دون شكه بالله، وهذا يعلم إبراهيم ﷺ التواضع ومعرفة الله. وعندما كان إبراهيم ﷺ يتعرض إلى الشك العميق في نفسه،

وإيمانه وصدق ما يسمعه ويفهمه، تمكنه تأكيدات هاجر وإسماعيل (الذين يحبهما لكنه يضحي بهما في سبيل المحبة الإلهية) ألا يشك بالله وبوجوده وإحسانه. وهكذا فإن الشك بالذات يترافق مع ثقة عميقة بالله.

إن اختبارات الإيمان في واقع الأمر لم تكن أبداً مأساوية في الأحداث الإسلامية، وبهذا المعنى، فإن قصة إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن تختلف من حيث الأساس عن قصة العهد القديم عندما يتعلق الأمر بمسألة التضحية. ينص سفر التكوين على ما يأتي:

وبعد هذه الأحداث امتحن الله إبراهيم، فقال له: «يا إبراهيم! قال: «نعم، ها أنا». قال: «خذ إسحاق ابنك وحيدك الذي تحبه واذهب إلى أرض مورية، وهناك أصعده محرقة على جبل أدلك عليه... وأخذ إبراهيم حطب المحرقة، ووضعه على ظهر إسحاق ابنه، وأمسك بيده النار والسكين، وسارا كلاهما معاً. فقال إسحق لأبيه: «يا أبي!» قال: «نعم يا بني» قال «هنا النار والحطب، فأين الخروف للمحرقة؟» فأجاب إبراهيم: «الله يدبر له الخروف للمحرقة يا بني. وسارا كلاهما معاً»⁽¹⁰⁾.

يتعين على إبراهيم عليه السلام التضحية بابنه وهنا نجد أنه يخوض هذا الاختبار في عزلة مطلقة، فرد على سؤال ابنه المباشر: «أين الخروف للمحرقة؟» فيجيب إبراهيم موارباً، فهو وحده يجيب دعوة الله، قد يبدو

هذا الاختلاف بين الروايتين طفيفاً، إلا أنه ينطوي على نتائج أساسية تتعلق بصلب النظرية إلى الإيمان، إلى اختبار الإيمان، وإلى علاقة البشر بالله.

تجربة مأساوية

هذه العزلة المأساوية للإنسان في مواجهة ما هو إلهي تكمن وراء تاريخ الفكر الغربي من المأساة اليونانية (حيث يواجه بروميثيوس الثائر آلهة أوليمبيا) إلى التفسيرات الوجودية والمسيحية الحديثة كما تتجلى في أعمال سوربن كيركغارد⁽¹¹⁾. إن تكرار ظهور موضوع الاختبار المأساوي للإيمان المنعزل في لاهوت الغرب وفلسفته قد ربط هذا التفكير بمسائل الشك والتمرد والشعور بالذنب والغفران وبالتالي فإنه قد شكل بالطبع الخطاب المتصل بالإيمان والاختبارات والأخطاء⁽¹²⁾.

على أنه يجب توخي الحذر من المقارنات الظاهرية، فصحيح أن قصص الأنبياء، لا سيما قصة إبراهيم عليه السلام، تروى بطريقة متماثلة على ما يبدو في النصوص اليهودية والمسيحية والإسلامية، إلا أن دراسة أكثر دقة تبين أن الروايات مختلفة ولا تروي دائماً ذات الوقائع ولا تنطوي على ذات الدروس، لذا، فإنه يتعين على من يدخل إلى عالم الإسلام ويحاول مواجهة وفهم المقدسات والتعاليم الإسلامية أن يبذل الجهد الفكري والبيداغوجي الذي يقترن بعملية الطرح جانباً - طيلة مدة هذه المواجهة - للصلات التي قد يكون أقامها بين تجربة الإيمان والاختبار والخطأ والبعد المأساوي للوجود.

يروى الوحي القرآني قصص الأنبياء، ويعمل من خلال هذا السرد على أن يكون في قلب المسلم علاقة بالمتعالى الذي يصير دائماً على استدامة الاتصال عبر العلامات والإلهامات بل حتى الوجود الحميم ذاته للواحد الأحد الذي تعبر عنه هذه الآية القرآنية تعبيراً في غاية الجمال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (13). لقد تعرّض جميع الرسل، مثل إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ، لاختبار الإيمان، وكانوا دائماً يجدون -بالطريقة نفسها- الحماية من أنفسهم وشكوكهم بالله وعلاماته وكلمته. أما معاناتهم فلا تعني أنهم ارتكبوا أخطاء، ولا تكشف عن أي بعد مأساوي للوجود؛ إنها، بمزيد من البساطة، تعلم التواضع الذي يفهم بأنه مرحلة لازمة في تجربة الإيمان.

وبما أن حياة محمد ﷺ كانت تعبيراً عن الجوهر الظاهر والمشاهد لرسالة الإسلام، فإن التوصل إلى معرفة النبي هو وسيلة ذات امتياز للانضمام إلى عالم الإسلام الروحي، فمنذ ولادته حتى وفاته، كانت تجربة الرسول ﷺ - الخالية من أي بعد مأساوي بشري - تقرن دعوة الإيمان والاختبار لدى الناس بالتواضع والسعي إلى السلام مع الواحد الأحد.



الفصل الثاني

المولد والنشأة

تقول النصوص الإسلامية إن بيت الله (الكعبة) قد بناه إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- باسم التوحيد الصرف لعبادة الله الواحد، خالق السماوات والأرض، إله البشرية وجميع الأنبياء والمرسلين⁽¹⁾. وقد مضت القرون وأصبحت مكة مكاناً للحج ولكن أيضاً على الأغلب سوقاً ومركزاً تجارياً، الأمر الذي أدى إلى توليف ثقافي وديني واسع النطاق، وبعد مدة من الزمن حلت مكان عبادة الواحد الأحد عبادة الأوثان القبلية أو المحلية، أي تعدد الآلهة، كما تقول النصوص الإسلامية: إنه عندما نزل الوحي كان يوجد داخل الكعبة أكثر من 360 من الأصنام والصور أو التماثيل التي كانت موضعاً للعبادة، ولم يبق سوى جماعة صغيرة من المؤمنين المتعلقين بعبادة الله الواحد الأحد والذين رفضوا الانضمام إلى العبادة الجماعية للأوثان، وكان هؤلاء يدعون بالأحناف ويتماهون بأعراف التوحيد الإبراهيمية⁽²⁾. وقد وصف القرآن ذاته إبراهيم عليه السلام وطبيعة عبادته بأنه حنيف خالص: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁽³⁾.

كان أشهر الحنفاء في زمن محمد ﷺ يدعى ورقة بن نوفل وكان قد تحول إلى النصرانية، وكان نوفل يمثل هو والمؤمنون الآخرون، وهم اليهود والنصارى الذين كانوا في المنطقة، التوحيد الذي أصبح هامشياً والذي كان موضع ازدراء ومقاومة في مكة وما حولها.

الولادة

يقول ابن هشام في كتابه الرائد عن حياة النبي محمد ﷺ، إن ابن إسحاق قد أثبت بشكل واضح ودقيق تاريخ ولادة النبي: «لقد ولد الرسول ﷺ يوم الإثنين في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول في عام الفيل»، وتذكر روايات أخرى شهراً أخرى من السنة، إلا أنه كان يوجد تاريخياً قبول على نطاق واسع لذلك التاريخ لدى البحاثة وضمن الجماعات الإسلامية، وبما أن التقويم الإسلامي هو تقويم قمري، فإن من الصعوبة بمكان تحديد الشهر الشمسي لولادته على وجه الدقة، لكن عام الفيل الذي يشير إليه ابن إسحاق يقابل سنة 570 ميلادية.

ولد خاتم الأنبياء لواحدة من أعرق أسر مكة، وهم بنو هاشم الذين كانوا يحظون باحترام شديد لدى كافة العشائر في مكة وما حولها، وقد اقترنت عراقية المنبت بتاريخ شخصي أليم وموهن.

وكانت أمه آمنة في الشهر الثاني من الحمل عندما توفى أبوه، عبد الله، خلال رحلة إلى يثرب إلى الشمال من مكة. وقد قدر لمحمد ﷺ، الذي حُرِم من الأب عند ولادته، أن يعيش مع التوتر الناجم عن الوضع الشائئ المفترض في مكة والمتمثل في سلالة عريقة، من جهة، وعدم الاستقرار الناجم عن عدم وجود أب له، من جهة أخرى.

يقول ابن إسحاق: إن اسم محمد ﷺ الذي لم يكن معروفاً في ذلك الوقت في شبه الجزيرة العربية، جاء إلى أمه في رؤيا وهي لا تزال حاملاً⁽⁶⁾. ويقال إن هذه الرؤيا ذاتها بشرتها بولادة «سيد هذه الأمة»؛ وقد ورد في تلك الرؤيا أنه يتعين عليها أن تقول عند ولادته: «أعيذه بالواحد من كل حاسد»⁽⁷⁾، وكانت آمنة تعاني من وفاة زوجها وتشعر ببهجة الترحيب بوليدها وكانت تردد كثيراً بأن حملها اقترن بعلامات عجيبة، ثم بالسهولة الخارقة لولادة طفلها.

الصحراء

سرعان ما أدركت آمنة أنها أم لطفل غير عادي، وكان يشاركها هذا الشعور جد محمد ﷺ، عبد المطلب، الذي تولى رعايته بعد ولادته، في مكة جرت العادة بأن يعهد بالرضع إلى مرضعات من القبائل البدوية التي تعيش في الصحراء القريبة من مكة، وبما أن الطفل محمد ﷺ كان يتيماً فقد امتنعت المرضعات الواحدة تلو الأخرى أن تأخذه، خشية ألا يعود عليهم وضعه كيتيم بالفائدة، وقد قررت حليلة التي وصلت متأخرة بسبب ضعف حمارها الذي كانت تمتطيه، هي وزوجها، أن تأخذ الطفل، رغم كونه يتيماً، أفضل لهما من تعرضهما للسخرية من جانب قبيلتهما عند عودتهما إلى مقرهما، لذا فقد عادا ومعهما الطفل اليتيم محمد ﷺ. وقد روت حليلة، مثل أمه آمنة مشاهد علامات كثيرة جعلتها تعتقد هي وزوجها بأن الطفل كان مباركاً.

ظل اليتيم تحت رعاية حليلة أربع سنوات وعاش مع بني سعد البدوي في الصحراء العربية، وقد شارك حياة البدوي في بيئة جرداء وصعبة تحيط

بها، على مرأى العين، آفاق تثير في النفوس الشعور بهشاشة الإنسان وتبعث على التأمل والوحدة، ومع أن محمداً ﷺ لم يكن يدري أنه كان يمر بالتجارب الأولى التي قدرها له الواحد الأحد، الذي اصطفاه رسولاً له وكان، في تلك المرحلة، هو الذي تولى تربيته ورعايته (8).

وقد ورد في القرآن ذكر هذا الوضع الخاص للطفل بوصفه يتيماً فضلاً عن التعاليم الروحية التي اقترنت بخبرة الحياة في الصحراء:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۚ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۙ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۙ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۚ﴾ (9).

هذه الآيات القرآنية تنطوي على عدة دروس: فحالة اليتيم والفقر كانت مرحلة أولى لتهيئة رسول الله ﷺ للمستقبل، وذلك لسببين على الأقل. الدرس الأول هو بالطبع ما لا بد أنه قد شعر به من الضعف والفقر منذ سنوات طفولته الأولى، وقد تفاقم هذا الوضع حين توفيت أمه آمنة وذلك حين كان محمد ﷺ في السادسة من العمر، هذا تركه في كنف الله كلياً، ولكنه كان قريباً من أفقر الناس وأكثرهم عوزاً، فيذكره القرآن بأنه يجب عليه ألا ينسى ذلك طيلة حياته، ولا سيما أثناء بعثته النبوية، لقد كان يتيماً وفقيراً، ولهذا فقد كان يذكر ويؤمر بأن لا يتخلى أبداً عن المحرومين والمعوزين. فانطلاقاً من الطابع المثالي للتجربة النبوية، فإن الدرس الروحي الثاني الذي يستخلص من هذه الآيات صالح لكل إنسان: ألا ينسى أبداً ما كان عليه في الماضي، والمحن التي مر بها وبيئته وأصله،

وتحويل تجاربه إلى درس إيجابي له وللآخرين، يذكر الواحد الأحد محمداً ﷺ بأن ماضيه يُعد مدرسة يجب أن يستقي منها معرفة مفيدة وعملية وملموسة لأولئك الذين شاركهم حياتهم ومعاناتهم، لأنه يعرف من تجربته أكثر من أي طرف آخر، مشاعرهم ومعاناتهم.

التربية والطبيعة

تعمل حياة الصحراء على تكوين الإنسان ونظرته للخلق ولعناصر الكون. فعندما جاء محمد ﷺ إلى الصحراء، تعلم من تقاليد البدو الكلامية الغنية ومن شهرتهم ليكتسب ويتقن اللغة المحكية، وفي مراحل حياته اللاحقة، برز خاتم النبيين ﷺ جراً فصاحة كلامه وقوته، ولا سيما قدرته على إيصال تعاليم عميقة وشاملة حيث أوتي جوامع الكلم، كثيراً ما كانت الصحراء مرتع النبوات لأنها توفر بطبيعتها للنظرة الإنسانية آفاق اللا نهاية، فبالنسبة للبدو، الذين تتصف حياتهم بالترحال الدائم، تقترب لا نهائية المكان بالشعور بالحرية التي تقترب -هنا أيضاً- بالشعور بالزوال والضعف والتواضع، وقد تعلم البدو الترحال والغربة والقدرة على أن يفهموا، في قلب لا نهائية المكان، المتواصلة واللا نهائية الدورية للزمن، تلك هي تجربة حياة المؤمن، التي وصفها النبي ﷺ لاحقاً لعبد الله الشاب ابن عمر - رضي الله عنهما - بعبارات تذكر بهذا البعد: «كن في هذه الدنيا كغريب أو كعابر سبيل»⁽¹⁰⁾.

في سنوات حياته الأولى نشأت لدى محمد ﷺ علاقة خاصة بالطبيعة وظلت ملازمة له طيلة مدة بعثته، فالكون يعج بالآيات التي تشير إلى

وجود الخالق، وتفتح الصحراء - أكثر من أي شيء آخر - العقل الإنساني للملاحظة، والتأمل والوصول إلى المعاني.

فكثير من الآيات القرآنية تشير إلى كتاب الخلق والتعاليم التي يمكن أن تستقى منه، وتبين الصحراء، التي يبدو أنها من حيث الظاهر خالية من الحياة، وتبرهن للوعي اليقظ حقيقة معجزة البعث.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (11).

هذه الصلة بالطبيعة لازمت حياة النبي ﷺ منذ أوائل طفولته بحيث يمكن للمرء أن يستنتج أن العيش في أحضان الطبيعة ومراقبتها وفهمها واحترامها شيء لا بد منه للإيمان العميق.

بعد عدة سنوات، عندما كان النبي ﷺ في المدينة، يواجه الصراعات والحروب، جاءه الوحي في قلب الليل ليحول نظره إلى أفق آخر لمعنى الحياة. ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (12). وقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ ظل يبكي طيلة الليل عندما نزلت عليه هذه الآية. وعند الفجر، عندما جاء بلال، مؤذن النبي ﷺ، يدعو للصلاة، سأل عن سبب تلك الدموع، وأوضح له النبي ﷺ سبب حزنه، وأضاف قائلاً: «ويل لكل من يسمع هذه الآية ولا يتأمل معناها!».

وتعتبر آية أخرى عن ذات المعنى مشيرة إلى آيات عديدة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤) (١٣).

مما لا شك فيه أن السنوات الأولى في حياة محمد ﷺ قد أثرت على نظرته للحياة وأعدته لفهم ما ينطوي عليه الكون من آيات، فالدرس الروحي الذي يمكن استقاؤه منها أمر أساسي، من أجل تربية النبي ﷺ وتربيتنا عبر التاريخ على السواء: إن كون الإنسان ملتصقاً بالطبيعة، يحترم ما هي عليه، ويلاحظ ويتأمل ما ترينا وتعطينا أو تسترجع منا مقتضيات إيمان يحاول، في سعيه تغذية ذاته وتعميقها وتجديدها. فالطبيعة هي الدليل الأساسي والرفيق الحميم للإيمان، وبالتالي فقد قدر الله تعريض نبيه، منذ أوائل طفولته، إلى الدروس الطبيعية التي تستقى من الخلق، الذي يعتبر مدرسة حيث يتلقى العقل بطريقة متدرجة ويفهم العلامات ومعانيها، هذا النوع من التربية والتعليم البعيد جداً عن شكلية الطقوس الدينية الخالية من العنصر الروحي، ينشئ ويعزز من خلال التصاقه بالطبيعة ومن خلالها، علاقة صلة بالله تقوم على أساس التأمل والعمق اللذين سيجعلان من الممكن لاحقاً، في مرحلة ثانية من التربية الروحية، فهم مغزى الطقوس الدينية وشكلها وأهدافها. ففي انفصالنا

عن الطبيعة في بلداتنا ومدنتنا، فإننا على ما يبدو، قد نسينا معنى هذه الرسالة لدرجة أننا نقلب بشكل ينطوي على الخطر ترتيب المقتضيات ونؤمن بأن تعلم أساليب الدين وأشكاله (الصلاة، الحج... إلخ) يكفي للتوصل إلى معناها وأهدافها، هذا الوهم يؤدي إلى عواقب كبيرة إذ إنه يقود إلى تفريغ التعاليم الدينية من جوهرها الروحي، الذي يجب أن يكون في الواقع قلب هذا الجوهر.

شق الصدر

جاء في الأثر أن حدثاً بالغ الغرابة حدث لمحمد ﷺ، فيما كان يلعب مع أولاد قبيلة بني سعد البدوية عندما كان في سن الرابعة، تقول حليلة إن ابنها جاء إليها وإلى زوجها وهو في حالة من الخوف وأنبأها بأن «رجلين بثياب بيضاء أمسكا به (محمد ﷺ) وطرحاه أرضاً، ثم قاما بشق صدره وأدخلا أيديهما فيه»⁽¹⁴⁾.

جرت حليلة وزوجها إلى المكان الذي دلهما عليه ابنهما ووجدا محمداً ﷺ يرتجف وشاحب اللون، وقد أكد لها رواية أخيه بالرضاعة، مضيفاً أنه بعد شق صدره، قام الرجلان «بلمس شيء فيه؛ لا أعرف ما هو»⁽¹⁵⁾.

أشارت هذه القصة قلق الزوجين وخشياً أن يكون الطفل قد تعرض إلى بعض الأذى، فقررا إرجاع محمد ﷺ إلى أمه. في أول الأمر، أخفيا السبب الرئيس لقرارهما، لكن بعد أسئلة الأم الملحة، قاما في خاتمة المطاف بإخبارها بالحدث. لكنها لم تشعر بالدهشة، بل قالت: إنها هي ذاتها قد شهدت علامات تفيد بأن مصيراً معيناً قيد الإعداد لطفلها.

بعد عدة سنوات استعاد النبي ﷺ ذكرى الحدث وقال: «إن الرجلين شقا صدره وأخرج قلبه وفتحاه واستخرجا منه علقة سوداء وقاما برميها بعيداً. ثم غسل قلبه وصدره بالثلج»⁽¹⁶⁾. وفي أحاديث أخرى أوضح المغزى الروحي لتلك الأحداث، في حديث مع بعض أصحابه، رواه ابن مسعود، قال: «ما من أحد منكم إلا له قرين من الجن أو من الملائكة موكل خصيصاً به» وسألوه: «حتى أنت، يا رسول الله؟»، «حتى أنا، لكن الله أعانني عليه وأسلم لذا فهو إنما يدعوني لفعل الخير»⁽¹⁷⁾.

هنا يوجه النبي ﷺ تفكيرنا إلى الحدث بما يتجاوز الوقائع المروية، أي إلى بعدها الروحي الأساسي: فمنذ أوائل طفولته، كان الرسول ﷺ محمياً من مغريات الشر التي تنتاب قلب كل منا، فتطهير صدره أعده لمهمته النبوية، وبعد خمسين سنة خاض تجربة مماثلة، عندما فتح قلبه مرة أخرى وتم تطهيره لتمكينه من الإسراء ليلاً إلى القدس، ثم رفعه إلى سدرة المنتهى⁽¹⁸⁾. مثل هذه التجارب الروحية، الفريدة والتلقينية، هيأت المصطفى ﷺ لتلقي أولاً رسالة الإسلام ثم أمر إقامة الصلاة، وهي أهم العبادات الدينية⁽¹⁹⁾.

على صعيد أكثر عمومية أشار القرآن إلى هذا التطهير بهذه الكلمات:

﴿لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾⁽²⁰⁾، يقول معظم مفسري القرآن: إن تلك الآيات تشير بالدرجة الأولى إلى المنحة الثلاثية للنبي ﷺ: الإيمان بالواحد الأحد المطبوع في قلبه واصطفائه كنبي، وأخيراً، تأييد الله ذاته لرسالته.

وقد رأينا أن محمداً ﷺ كان منذ طفولته المبكرة مصحوباً بعلامات، محن تعلم منها وأعدته لتلك الرسالة.

بعد أن عاد محمد ﷺ إلى مكة ظل مع أمه مدة سنتين، وعندما بلغ السادسة من العمر، أرادت أمه أن يتعرف ابنها على أفراد أسرتها الذين يعيشون في يثرب (التي أصبحت تعرف لاحقاً باسم «المدينة»). فذهبا إليها، لكن آمنة مرضت في طريق العودة وتوفيت في أبواء حيث دفنت وأصبح محمد ﷺ الآن يتيم الأب والأم، تحيط به علامات اصطفاؤه فضلاً عن الحزن والألم والموت. وقد عادت بركة، وهي الخادمة التي سافرت معهما، بالطفل إلى مكة وهناك كفله جده عبد المطلب الذي أحاطه بمحبته الشديدة واحترامه البالغ. غير أنه توفي بعد سنتين.

اليetim ومربيه

قصة محمد ﷺ محفوظة بالمصاعب، وقد نوه القرآن عن ذلك في مناسبات عديدة في القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾⁽²¹⁾. وعندما بلغ محمد ﷺ الثامنة كان يفتقر إلى الأب ويعاني من الفقر والوحدة وموت أمه ثم جده، على أنه كان دائماً يجد في طريقه علامات على مصير كان من خلال الناس والظروف، مقترباً بتطوره وتربيته ومسهلاً لهما، ففيما كان عبد المطلب على فراش الموت أوصى ابنه أبا طالب، عم محمد ﷺ، برعايته، وقد قام أبو طالب بهذه المهمة خير قيام، كما يفعل الأب مع طفله. وكان النبي ﷺ لا يفتأ يذكر مبلغ محبة عمه وزوجة عمه، فاطمة، له وعنايتهما به ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

طيلة حياته المحفوفة بالصعوبات، ظل محمد ﷺ تحت رعاية الواحد الأحد، بالطبع، فقد ورد في الأثر أنه كان في مكة محاطاً بحماية دائمة من عبادة الأوثان والاحتفالات والأعياد أو الأعراس حيث كانت تقترن بالسُّكر وانفلات السلوك، فقد سمع في إحدى الأمسيات أنه سيجرى احتفال بعرس في مكة وأراد حضور ذلك العرس، وقال: إنه في طريقه إلى العرس، شعر بالتعب فجأة واضطجع طلباً للراحة فنام. في اليوم التالي أفاق على حر الشمس من نومه العميق. قد تبدو هذه القصة غير ذات أهمية، غير أنها تكشف عن الطرق التي استخدمها ربه للحيلولة دون انجراف رسوله القادم إلى عدم ضبط النفس والسُّكر، فقد جعله الواحد الأحد، الذي كان دائماً معه، ينام حرقاً، ليحميه من غرائزه والحيلولة دون نشوء إحساس في قلب من كان يراعه بارتكاب الخطأ أو الذنب أو أي عذاب معنوي جراء فتنة يجذب إليها ولد في سنه، بحكم طبيعة الأمور. وفي حين أن اللطف وصرف الأذى عنه كانا يحيطان به لحمايته، إلا أن تلك الأحداث التي كان النبي ﷺ يذكرها لاحقاً أثبتت في نفسه بصورة متدرجة شعوراً أخلاقياً تكون جراء فهم تلك العلامات والأشياء التي كانت تحميه منها، هذا الانخراط الطبيعي في عالم الأخلاق، بعيداً عن أي هاجس من الإثم والشعور بالذنب، كان له أبلغ الأثر على ذلك النوع من التربية الذي نقله إلى أصحابه. فهذا الأسلوب التعليمي الذي يعتمد على اللطف وعلى حسن تقدير الأفراد، وعلى فهمهم للأوامر، سعى النبي ﷺ أيضاً إلى تعليمهم كيفية لجم غرائزهم - إذا جاز التعبير - وكيفية

اللجوء إلى الإلهاء لتفادي المغريات السيئة، هذه الطريقة في التعليم كانت بالنسبة لأولئك الأصحاب، مثلما هي بالنسبة لنا، في جميع العصور والمجتمعات، باللغة الأثر وتذكرنا بأن الحس الأخلاقي يجب تنميته لا من خلال المنع والحظر بل بشكل متدرج ولطيف وبارع ومقترن بحسن الفهم، وعلى صعيد عميق.

في السنوات اللاحقة، أصبح محمد ﷺ الصغير راعياً ليكسب قوت يومه، يرعى الغنم في ضواحي مكة. وقد حدث أصحابه بذلك بعد بعثته وصور لهم رعي الغنم بأنه مقترن بالأنبياء: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم». قيل: «وأنت يا رسول الله؟» قال: «وأنا»⁽²²⁾.

وقد تعلم محمد ﷺ الصغير، وهو يرعى الغنم، العزلة والصبر والتأمل واليقظة، وتلك الصفات من مستلزمات جميع الأنبياء في تنفيذهم لمهامهم في وسط شعبهم، كما أنه اكتسب حساً عميقاً بالاستقلال في حياته وعمله، الأمر الذي جعله ناجحاً جداً في مهنة التجارة التي زاولها بعد وقت قريب.



الفصل الثالث

الشخصية والبحث الروحي

في السنوات الأخيرة من حياته، تعرض عبد المطلب، جد محمد ﷺ، إلى تقلص ثروته، وكان أبو طالب، الذي أصبح الآن الوصي على حفيده، يمر هو أيضاً بأوضاع مالية وظروف تجارية بالغة الصعوبة، لذا أخذ محمد ﷺ يعمل ليكسب قوت يومه في وقت مبكر وكان يحاول دائماً مساعدة أفراد أسرته.

الراهب بحيرة

عندما بلغ محمد ﷺ الثانية عشرة من العمر، قرر أبو طالب اصطحابه معه في قافلة تجارة متوجهة إلى بلاد الشام، وقد توقفوا في بصرى، قرب صومعة ناسك نصراني اسمه بحيرة، ورد في الأثر أن الناسك بحيرة، مثله مثل ورقة بن نوفل والغالبية العظمى من النصارى واليهود والحنفاء في شبه الجزيرة، ينتظرون مجيء نبي جديد وكان يترقب دائماً علامات ذلك⁽¹⁾.

فعندما رأى بحيرة اقتراب القافلة، بدا له أن سحابة كانت تسير مع المجموعة تظللهم من حر الشمس، وقد أراد أن يعرف المزيد عن هذه الظاهرة، فقرر أن يدعو جميع أفراد القافلة إلى تناول الطعام، وهو أمر

غير عادي لدى نساك تلك المنطقة، وبعد مراقبة أفراد المجموعة بعناية، ثبت نظرته على محمد الصغير، وذهب إليه وانتحى به جانباً وطرح عليه عدداً من الأسئلة عن وضعه العائلي ومركزه الاجتماعي وأحلامه، إلى ما هنالك.

ثم سأل إن كان بإمكانه إلقاء نظرة على ظهره، فوافق محمد ﷺ ورأى الراهب بحيرة بين كتفي الصبي كتلة جلدية كانت تسمى في كتبه «خاتم النبوة»⁽²⁾ وسارع الراهب إلى تحذير أبي طالب بأنه سيكون لهذا الصبي شأن مهم وأن عليه حمايته من المحن ومن الاعتداءات التي سيتعرض لها، شأنه في ذلك شأن رسل الله السابقين.

لقد رأينا أن السنوات الأولى من حياة محمد ﷺ كانت حافلة بالعديد من العلامات، فجميع الذين كانوا حوله كانوا يشعرون بأن هذا الطفل كان مختلفاً وأنه سيكون له شأن عظيم، وقد أكد الراهب بحيرة هذا الانطباع وأضافه إلى تاريخ النبوة المقدس، وقد قيل للصبي وهو في الثانية عشرة من العمر، وهو الذي كان محبوباً لدى الجميع، أن من حوله سوف يعارضونه؛ وفي حين أنه كان يشعر أن تفرده جعل الناس يحبونه، إلا أنه أصبح يعرف الآن أن ذلك سيؤدي في المستقبل إلى كراهيتهم له.

ظل محمد ﷺ عدة سنوات يرعى الغنم في التلال المحيطة بمكة، ورغم صغر سنه وبعده عن الحياة العامة نوعاً ما لسكان مكة من الحضر، فقد كان في بعض الأحيان يسمع أو يشاهد المنازعات والصراعات المتواصلة بين مختلف القبائل، الأمر الذي كان يؤدي إلى تحالفات متغيرة لا تتوقف، ففي مكة، كانت الحرب بين العشائر هي القاعدة لا الشواذ، وكان البعض

يستغلون ذلك بأن يعاملوا معاملة بعيدة عن العدل والإنصاف التجار والزوار الذين كانوا يعلمون أنه لم يكن لهم أي معاهدة أو اتفاقية تحميهم وليس بإمكانهم الاعتماد على أي تحالف. هذا ما حدث لتاجر زائر من اليمن. فقد تعرض إلى الظلم، لكنه قرر ألا يجعل ذلك يمر دون أن يفعل شيئاً ما. لذا فقد شكى أمره صائحاً بأعلى صوته، محتكماً لشرف قبيلة قريش ومنزلتها الرفيعة، لأن ينصفوه⁽³⁾.

حلف الفضول

عزم عبد الله بن جدعان، شيخ قبيلة تيم وأحد أعضاء حلفي مكة الكبيرين وأهل المطيبين، على أن يدعو إلى بيته أولئك الذين كانوا يريدون أن يضعوا حداً للصراعات ويقيموا تحالف شرف وعدالة يربط القبائل بحيث يتجاوزون التحالفات التي تقوم على أساس المصالح القبلية أو السياسية أو التجارية.

وقد تعاقد وتعاهد رؤساء وأفراد العديد من القبائل على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهل مكة وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته، كان هذا الحلف الذي سمته قريش «حلف الفضول» ذا سمة خاصة من حيث إنه وضع احترام مبدأ العدل ونصرة المظلوم فوق كل اعتبار من اعتبارات القرابة أو القوة. وقد شارك محمد ﷺ الشاب، وكذا أبو بكر ﷺ، الذي أصبح لاحقاً صديق عمره، في هذا الاجتماع التاريخي.

بعد مدة من بداية الوحي، كان محمد ﷺ يذكر شروط الحلف ويقول: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر

النعم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت»⁽⁴⁾. فالنبي لم يؤكد على علو شأن شروط الحلف المختلف عن التحالفات القبلية الفاسدة التي كانت سائدة في ذلك الزمن، بل أضاف بأنه رغم كونه يحمل رسالة الإسلام - وحتى كمسلم - فإنه كان لا يزال يقبل جوهره ولا يتردد في المشاركة فيه. هذا القول له مغزى خاص بالنسبة للمسلمين، ويمكن استخلاص ثلاثة دروس منه، لقد رأينا أنه كان قد طلب من النبي ﷺ الاستفادة من ماضيه، لكن التفكير هنا يتجاوز ذلك، محمد ﷺ يعترف بحلف أقيم قبل بداية الوحي وتعهد بالدفاع عن العدالة بقوة ومعارضة الظلم الذي يلحق بالمعوزين والعاجزين، وهذا اعتراف بأن عملية وضع هذه المبادئ سابقة للإسلام وتتجاوزها، لأن الإسلام ورسائله جاء في واقع الأمر لتأكيد جوهر معاهدة سبق للضمير الإنساني صياغتها بمعزل عن الدين، هنا يعترف النبي ﷺ بوضوح بصلاحية مبدأ للعدالة والدفاع عن المضطهدين ثم النص عليه في حلف يعود إلى فترة ما قبل الإسلام.

والدرس الثاني لا يقل أهمية: ففي وقت كانت فيه الرسالة لا تزال تتكامل خلال مجرى الوحي وتجارب النبي ﷺ فإنه قد اعترف بصلاحية حلف أقامه أناس غير مسلمين ينشدون العدالة والصالح العام لمجتمعهم، إن قول النبي ﷺ هو بحد ذاته إنكار صريح للمنحى الفكري الذي يجري التعبير عنه هنا وهناك في تاريخ الفكر الإسلامي - ولغاية اليوم - والذي لا يمكن بموجبه لعهد أن يكون صالحاً من الناحية الأخلاقية إلا إذا كان ذا طبيعة إسلامية صرفة أو إذا قام بين المسلمين. وأكرر مرة ثانية أن النقطة الأساسية هي أن النبي ﷺ يعترف بوضوح بصلاحية الالتزام، بمبادئ

العدالة والدفاع عن المضطهدين، بصرف النظر عما إذا كان مصدر تلك المبادئ من داخل الإسلام أو من خارجه.

الدرس الثالث هو نتيجة مباشرة لهذا التفكير: إن رسالة الإسلام ليست -بأي حال- نظاماً مغلقاً للقيم، يختلف أو يتعارض مع الأنظمة الأخرى للقيم، فمنذ البداية، لم يكن النبي ﷺ يتصور أن محتوى رسالته هو تعبير عن الموقف الصرف من الآخر مقابل ما كان يصدر عن العرب أو المجتمعات الأخرى في زمنه، فالإسلام لا يقيم عالماً مغلقاً للمرجعية بل يعتمد على مجموعة من المبادئ الشمولية التي يمكن أن تتطابق مع أسس وقيم معتقدات أخرى وتقاليد دينية (حتى تلك الناتجة عن مجتمع يؤمن بتعدد الآلهة مثل مجتمع مكة في ذلك الوقت). الإسلام هو رسالة عدالة يترتب عليها مقاومة الاضطهاد وحماية كرامة المضطهدين والفقراء، ويتعين على المسلمين الاعتراف بالقيمة الأخلاقية لقانون أو عقد ينص على ذلك الشرط، بصرف النظر عن الذين يضعونه وعن المجتمع الصادر عنه، أكان مسلماً أو غير مسلم، وبدلاً من إنشاء الولاء لإسلام يكون فيه الاعتراف والولاء محصوراً في مجتمع الدين، فقد سعى النبي ﷺ إلى تطوير ضمير المؤمن عبر الالتزام بمبادئ تتجاوز التحالفات المغلقة باسم ولأولي للمبادئ الشمولية ذاتها، هذا الدرس الثالث لا ينطوي على أي شيء جديد للتأكيد على مبادئ الكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة: بل إنه يستدعيها ويؤكد عليها. وفيما يتعلق بالقيم الأخلاقية، هذا الموقف ذاته يظهر حين يتحدث النبي ﷺ عن صفات الأفراد قبل الإسلام وفي كنف الإسلام: «خياركم (فيما يخص صفاتهم البشرية والأخلاقية) في

الجاهلية خياركم في الإسلام؛ إذا فقهوا»⁽⁵⁾. إن القيمة الأخلاقية للإنسان تتجاوز كثيراً الانتماء إلى عالم خاص من المرجعية. وهي في الإسلام تقتضي المزيد من المعرفة والفهم كيما تدرك بشكل صحيح ما يؤكد الإسلام (مبدأ العدالة) وما يطالب بوجوب إصلاحه (جميع أشكال عبادة الأوثان).

«الأمين» والزواج

تبين حياة النبي ﷺ ذاتها، قبل بداية الوحي وبعده، ما يمت به التحليل أنف الذكر من صلة بالموضوع: إدراك بأن صفاته الأخلاقية سبقت بعثته النبوية، الأمر الذي أكد استدلالياً على الحاجة لتلك الصفات، فبعد أن كان محمد ﷺ الشاب راعياً، أصبح تاجراً وبنى لنفسه سمعة بالأمانة والبراعة اعترف بها جميع أهل المنطقة، فقد أخذ الناس يطلقون عليه اسم «الصادق الأمين»، عندما كان لا يتجاوز سن العشرين، وكان من بين أغنى التجار في مكة امرأة اسمها خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - كانت قد تزوجت مرتين، ثم أصبحت أرملة، وهي ابنة عم ورقة بن نوفل النصراني، كانت قد سمعت منذ عدة سنوات عن شاب «صادق ومنصف وبارع» فقررت اختباره فطلبت منه حمل بعض بضائعها إلى بلاد الشام ليبيعه هناك، وأرسلت معه خادماً شاباً يعمل لديها اسمه ميسرة، ووعدت بمضاعفة عمولته إذا نجح، فقبل وانطلق مع ميسرة. في بلاد الشام أبرم محمد ﷺ صفقة فاقت ضعفي ما كانت خديجة تتوقعه.

وعادا لينبأ خديجة - رضي الله عنها -، التي أصغت بصمت إلى ما رواه لها محمد ﷺ وكانت تراقب ملياً مظهر وسلوك الشاب الذي كان

في ذلك الوقت في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، كان ينبعث من وجهه نور على ما يبدو. ثم أخبرها ميسرة أنه كان يلاحظ طيلة الرحلة سلسلة من العلامات في تصرفات محمد ﷺ وسلوكه - مما يدل على أنه لم يكن كغيره من الرجال⁽⁶⁾. ثم طلبت خديجة - رضي الله عنها - من إحدى صديقاتها نفيسة أن تسأل محمداً ﷺ إن كان يرغب في الزواج. فقال محمد ﷺ لنفيسة أن ما بيده ما يتزوج به، وعندما ذكرت اسم خديجة - رضي الله عنها - التي سيجد عندها «الجمال والنسب والشرف والمال»، أجاب بالقبول لكنه بسبب وضعه لا يسعه تصور هذا الزواج. ولم تقل له نفيسة بأنها كانت تتصرف بناء على طلب خديجة - رضي الله عنها - وقالت له أن يترك الأمر لها وأن بوسعها تدير هذا الزواج. وأخبرت خديجة - رضي الله عنها - بما كان يدور في ذهن محمد ﷺ. فدعته خديجة - رضي الله عنها - إلى بيتها وعرضت عليه الزواج، فقبل. بقيت مسألة التحديث إلى الأقارب في العشرينين من أجل إتمام الترتيبات، لكن لم يكن يوجد أي عقبة - سواء من حيث مركز كل منهما أو من حيث مصالح القبيلتين - يمكن أن تحول دون زواجهما.

جاء في الأثر أن خديجة - رضي الله عنها - كانت في الأربعين من العمر عند زواجهما لكن ثمة من يقول بأنها كانت أصغر من ذلك: على سبيل المثال، يذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأن عمرها كان ثمانية وعشرين عاماً، وهو الأكثر احتمالاً على ما يبدو بالنظر لأن خديجة أنجبت ستة أطفال في السنوات التالية⁽⁷⁾. وقد عاش بكرها، وهو غلام سمي «قاسم»، سنتين فقط. ثم ولدت زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وأخيراً عبد الله، الذي توفى أيضاً قبل بلوغ السنتين من العمر⁽⁸⁾. في هذه

الأثناء قرر محمد ﷺ تحرير وتبني مولاه زيد بن حارثة الذي أهدته له زوجته خديجة - رضي الله عنها - قبل بضع سنوات.

وبعد وفاة ابنه عبد الله سعى لمساعدة عمه أبي طالب - الذي كان يعاني من صعوبات مالية كبيرة ويحمل عبء أسرة كبيرة جداً - بأن يأخذ ابن عمه علي بن أبي طالب إلى بيته. وسوف يتزوج علي ﷺ لاحقاً فاطمة، صغرى بنات محمد ﷺ.

زيد

إن لقصة زيد ﷺ، الابن المتبنى، أهمية لعدة أسباب، فقد أسرى في معركة وبيع عدة مرات قبل أن يصبح مولى لخديجة - رضي الله عنها - ثم مولى لمحمد ﷺ. وقد بقي في خدمة محمد ﷺ عدة سنوات، عرف خلالها أن أبويه كانا لا يزالان على قيد الحياة، حيث كان الناس يتناقلون الأنباء من قبيلة إلى أخرى من خلال الأشعار التي كان ينقلها التجار والمسافرون في تنقلهم من قرية إلى قرية، فقام زيد ﷺ بنظم بعض الأشعار وعمل على أن يسمعها عدة أفراد من قبيلته الذين كانوا يأتون إلى مكة ويوصلوها لأسرته، لدى سماع والده أنه كان في مكة قرر هو وعمه التوجه إلى مكة على الفور بغية العثور على زيد ﷺ والعودة به إلى قبيلته. فسمعاً أنه لدى محمد ﷺ فجاء إليه وعرضاً شراءه. فاقترح محمد ﷺ بدوره أن يترك الأمر لزيد ﷺ ليختار بنفسه: فإذا قرر العودة مع أبيه وعمه، فإن محمد ﷺ سيخلي سبيله دون أن يطلب أي تعويض، وإذا كان الأمر على العكس من ذلك وأراد زيداً ﷺ البقاء مع سيده، فإن على أهله قبول قراره، تم الاتفاق وذهبوا معاً. ليسألوا زيداً ﷺ عن رغبته، فقرر البقاء

مع سيده وأوضح لأهله بأنه يفضل الرق لدى محمد ﷺ على الحرية بعيداً عنه، تلك كانت الصفات التي وجدها فيه بحيث إنها فاقت ما يمكن أن يتوقعه لدى الآخرين، لذا فقد بقي مع سيده، الذي قام على الفور بعتقه وأعلن على الملأ أن زيداً ﷺ يُعد منذ ذلك الوقت ابناً له، وأنه سيدعى زيد بن محمد وأنه سيرثه⁽⁹⁾.

هذه القصة - اختيار زيد ﷺ، حين كان لا يزال عبداً لسيده وتفضيله على أبيه - يضيف بعداً آخر إلى صورة محمد ﷺ التي كانت تظهر بالتدريج، وتبين الشيء الكثير عن شخصية محمد ﷺ قبل الوحي. فهي شخصية بسيطة، مولعة بالتأمل، دمثة، وصديقة أيضاً بارعة في التجارة، وتظهر احتراماً دائماً نحو جميع النساء والرجال والأطفال، وهم بدورهم كانوا يظهرون له الامتنان والمحبة الشديدة، كان الصادق وعند كلمته. كان الأمين والشخص الذي يعتمد عليه والمحفوف بالوقار، وكانت تحيط به العلامات التي تفصح عن شأنه، كان يتمتع بصفات إنسانية خارقة تشير إلى تفرد.

إعادة بناء الكعبة

ثمة حدث آخر يدل على أنه علاوة على مزاياه القلبية وتميزه الأخلاقي يجب إضافة صفة الذكاء الحاد، الذي كان يستخدمه في خدمة إشاعة الاحترام والسلام بين الناس وبين العشائر، بعد ممانعة طويلة الأمد من جانب قريش بسبب الحظر على المس بالبيت الحرام. قررت قريش أخيراً إعادة بناء الكعبة، فقاموا بهدم الجزء العلوي من الجدران، حتى بلغوا الأساسات (التي كانت تعود إلى أول بناء قام به إبراهيم وإسماعيل، والتي

تركوها دون أن يسموها). قاموا بإعادة البناء إلى أن وصلوا إلى المكان الذي يجب وضع الحجر الأسود فيه، في إحدى زوايا الكعبة، عند ذلك ثارت الشجارات بين أفراد العشائر المختلفة حول من سيكون له شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، وكانوا على وشك اللجوء إلى السلاح لتقرير أي عشيرة سيكون لها الشرف في ذلك. واقترح رجل مسن من بينهم بأن يطلب إلى أول رجل يدخل البيت الحرام أن يفصل في القضية، وتم التوافق على تلك الفكرة، كان محمد ﷺ أول الداخلين البيت الحرام وشعر كبار العشائر بالسعادة لاختيار الصدفة له للبت في النزاع، فأصغى إليهم ثم طلب عباءة ووضع الحجر الأسود عليها وطلب من رؤساء كل عشيرة الإمساك بأطراف العباءة ورفع الحجر معاً. وعندما رفعوه إلى الارتفاع المطلوب قام هو ذاته بوضع الحجر الأسود في المكان المطلوب - الأمر الذي أرضى الجميع، لأنه لم يظلم أي منهم. هذا الذكاء والحدس استطاع التوفيق بين كبرياء كل عشيرة وحاجتها للاتحاد، ولقد تجلت هذه السمة المميزة لعقله، لاحقاً، أثناء بعثته، في مقدرته على المحافظة على وحدة المجتمع الإسلامي الأول رغم وجود شخصيات بالغة القوة وذات أمزجة مختلفة إلى حد بعيد، ففي سعيه وراء السلام، كان دائماً يسعى إلى أن يحقق ثانية ما كان قد فعله في هذا الوضع الصعب بين عشائر قريش: تعليم القلب عدم الخضوع للعواطف المتكبرة والتفكير المتعطرس، وإيصال العقل إلى حلول يرتاح إليها القلب مما يمكن من ضبط النفس بلطف وحكمة، ففي السنوات السابقة للوحي كان رب الرسول ﷺ قد أنعم عليه بهذه الصفة الخاصة أي الجمع بين قلب كبير وروح نفاذة، بين معرفة كيفية تحقيق ما هو معقول في جميع الظروف، مع الذات ولدى الناس الآخرين.

وعندما بلغ محمد ﷺ سن الخامسة والثلاثين، كان قد بنى لنفسه سمعة بحيث أن الكثيرين من بني هاشم كانوا يعتقدون بأن رداء أجداده سيؤول إليه ويعيد العظمة إلى عشيرته بأن يصبح زعيمها، فاستناداً إلى زواجه وأنشطته وصفاته الشخصية أصبح ذا مكانة بارزة سياسياً ومالياً، وأصبح يتلقى طلبات الكثيرين للزواج من بناته، كما حدث مع عمه أبي لهب الذي رغب بأن يزوج ولديه، عتبة وعتيبة، من رقية وأم كلثوم، وهكذا فقد جرت حياكة صلات عشائرية توقعاً للمزايا التي من شأنها أن تعود عليهم إذا ما أصبح محمد ﷺ زعيماً للعشيرة.

طلب الحقيقة

غير أن محمداً لم يكن ليهتم بتلك الأمور ولم يكن يهتم بالشؤون العامة، في هذا الوقت أخذ يقضي فترات من الاعتكاف في أحد كهوف مكة، مثلاً كان يعمل حفاء ونصارى مكة، وعند مجيء شهر رمضان، كان يذهب إلى غار حراء ومعه بعض المؤن ويظل في عزلة ويعود من حين لآخر من أجل التزود بالمزيد من الطعام، مدة تقارب الشهر، للوصول إلى ذلك الغار، كان عليه أن يتسلق جبلاً صغيراً ويذهب إلى الجانب الآخر من ذروة صغيرة أخرى ويتبع ممرّاً ضيقاً، وكان الغار ذاته منعزلاً وصغيراً جداً بحيث كان من الصعب على أكثر من اثنين أن يوجداه فيه معاً، ومن فوهة الغار، كان يمكن رؤية الكعبة البعيدة في الأسفل، على مسافة أبعد، كان السهل القاحل يمتد على مرمى النظر.

كان محمد ﷺ يبحث عن السلام ومعنى الحياة، بعيداً عن الناس ولم يكن يشارك قبائل المنطقة في معتقداتها وطقوسها، وظل مترفعاً عن

الخرافة والأحكام المسبقة، كان في منأى عن الآلهة الزائفة، أكان ذلك في تقديس التماثيل أو عبادة السلطة والثروة، وكان قد سبق له أن قال لزوجته خديجة - رضي الله عنها - عن بعض الأحلام التي كانت تتحقق وكانت تزعجه بسبب الانطباع القوي الذي كانت تخلّفه عندما يستيقظ، لقد كان ذلك حقاً سعيّاً وراء الحقيقة: وبما أنه لم يكن يقتنع بالإجابات التي كان يقدمها من حوله، وانطلاقاً من اليقين الكامن في نفسه بوجوب إجراء المزيد من البحث، فقد قرر الانعزال بنفسه والتفرغ للتأمل، كان يقارب سن الأربعين وبلغ في تطوره الروحي مرحلة جعلت الاستبطان العميق فيها الخطوة التالية اللازمة، كان يفكر ويتأمل وحده في غار حراء في معنى الحياة ووجوده على الأرض والعلامات التي اقترنت به طيلة حياته، ولا بد من أن المساحات الممتدة حوله كانت تذكره بأفاق طفولته في الصحراء، مع فارق الآن وهو أن النضج قد ملأها بآلاف الأسئلة الوجودية الأساسية.

كان منهمكاً بالبحث، وهذا السعي الروحي كان يقوده بالطبع إلى المهمة التي كانت العلامات تشير إليها بشكل صامت وحتمي طيلة هذه الحياة، فالعلامات التي كانت تحميه وتبعث الهدوء في نفسه، والرؤى التي كانت تظهر في أول الأمر في الأحلام ثم تتحقق في عالم اليقظة، والأسئلة التي كانت تدور في الذهن والقلب مقترنة بالآفاق التي تطرحها الطبيعة، كانت كلها تقود محمداً ﷺ بشكل غير محسوس إلى الانخراط الأسمى في المعنى، إلى لقاء ربه، الله الواحد الأحد، ففي سن الأربعين كانت الدورة الأولى لحياته قد بلغت النهاية.

فقد حدث أنه عند اقترابه من غار حراء في شهر رمضان عام 610 أن سمع للمرة الأولى صوتاً يناديه ويحييه: «السلام عليك يا رسول الله»⁽¹⁰⁾.

الفصل الرابع

الوحي، العلم

في وحدته في غار حراء، ظل محمد ﷺ يبحث عن الحقيقة والمعنى. ثم ظهر له الملك جبريل فجأة وقال له: «اقرأ!» أجاب محمد ﷺ: «ما أنا بقارئ!». فغطه الملك حتى بلغ منه الجهد ثم قال له ثانية: «اقرأ!». فكرر محمد ﷺ إجابته: «ما أنا بقارئ!». فغطه الملك ثانية حتى بلغ منه الجهد وأعاد الأمر للمرة الثالثة: «اقرأ!». وجاء الرد ذاته: «ما أنا بقارئ!». فتلا الملك وهو لا يزال ممسكاً به: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (١).

كانت تلك الكلمات الآيات الأولى للقرآن التي أوحى بها للنبي ﷺ بواسطة الملك جبريل، وقد وصف محمد ﷺ، ثم زوجته عائشة - رضي الله عنها - بعد مدة طويلة، وبعض الصحابة والمحدثين حتى ابن إسحق وابن هشام، هذا الحدث وتلك الأحداث التي تلت بكلمات متماثلة بصفة عامة، رغم وجود بعض الاختلافات بشأن بعض الوقائع (معظمها غير مهم) وتسلسلها التاريخي.

بعد التفوه بتلك الكلمات غاب الملك جبريل عن النظر، مخلفاً محمداً ﷺ بحالة من الاضطراب العميق، كان يشعر بالخوف ولم يكن يدري إن كان قد شاهد رؤيا شيطانية أو أنه كان به مس.

فقرر العودة إلى زوجته، ووصل أخيراً وهو في حالة من الجزع وقال: «زملوني! زملوني!» فغطته خديجة — رضي الله عنها — بعباءة وسألتها عما أصابه، فوصف لها ما حدث وأعرب عن خوفه: «ما هذا الذي حدث لي؟ لقد خشيت على نفسي»⁽²⁾. فطمأنته وهمست قائلة: «هون عليك، إن الله لن يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم وتقول الحق وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»⁽³⁾.

ورقة بن نوفل

رأت خديجة — رضي الله عنها — أن تسأل ابن عمها، ورقة بن نوفل النصراني، عن رأيه، فذهبت إليه (من غير الواضح ما إذا كانت ذهبت وحدها أو مع النبي ﷺ) وأخبرته بما حدث لمحمد ﷺ⁽⁴⁾. عرف ورقة الدلائل التي كان ينتظرها فأجاب دون تردد: «قدوس! قدوس! والذي نفس ورقة بيده، إنه الناموس الأكبر صديق أسرار الملك الأعلى، الملك الذي يأتي بالوحي المقدس الذي جاء إلى محمد، وهو الذي نزل على موسى. إن محمداً هو حقاً نبي هذه الأمة»⁽⁵⁾.

وبعد فترة، في لقاء مع محمد ﷺ قرب الكعبة أضاف ورقة: «إنهم سيكذبونك وسيئون معاملتك ويخرجونك ويهاجمونك! وإذا كنت لا أزال على قيد الحياة فيعلم الله أنني سوف أنصرك في تحقيق النصر لقضيته»⁽⁶⁾.

هذا الكلام أدهش النبي ﷺ فقال: «أو مخرجي هم؟» وحذره ورقة قائلاً: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا أودي واعتبر عدواً»⁽⁷⁾.

كانت مهمة النبي ﷺ قد بدأت للتو، وقد سمح له الآن إدراك بعض أسس الوحي الأخير فضلاً عن بعض الحقائق التي كانت موجودة عبر تاريخ النبوات لدى الشعوب.

الإيمان والعلم والتواضع

استرعت الآيات الأولى التي نزلت على النبي ﷺ، الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب - استرعت انتباهه مباشرة إلى العلم، ومع أنه لا يعرف القراءة عند الاعتماد على استعداداته الطبيعية، فقد دعاه الله ليقرأ «باسم ربك»، حيث ربط مباشرة بين الإيمان بالله والعلم، لأن الآيات اللاحقة تؤكد هذه العلاقة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽⁸⁾ بين الخالق والخلق يوجد إيمان يعتمد على المعرفة الممنوحة للبشر من قبل الرب الأكرم ليتيح لهم الاستجابة لدعوته واللجوء إليه، تنشئ الآيات الأولى تقابلاً فورياً مع ما سيورده الوحي لاحقاً عن خلق البشر: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽⁸⁾. سوف يمنح العقل والذكاء واللغة والكتابة الناس الصفات اللازمة لتمكنهم من أن يكونوا خلفاء الله في الأرض، ومنذ البداية، قرن الوحي القرآني معرفة الله بالمعرفة والعلم، مردداً بذلك صدى أصل الخلق ذاته⁽⁹⁾.

جاء في عدة أحاديث أن نزول الوحي الثاني يقابل بداية سور القلم، تلك الآيات أكدت المصدر الإلهي لهذا الإمام فضلاً عن ضرورة المعرفة

والعلم، كما أنها ذكرت أخلاق الرسول ﷺ المتفردة التي شهدت عليها السنوات الأربعون الأولى من حياته.

﴿ن وَالْقَلِيمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ (10).

نون هي إحدى الأحرف الهجائية في اللغة العربية، ويوجد بالطريقة نفسها حروف أخرى تبدأ بها بعض سور القرآن، في حين أنه ما من مفسر - ولا حتى النبي ذاته - قادر على أن يحدد بالضبط ما تعنيه هذه الحروف أو ما يرمز إليه وجودها في بداية بعض السور، وهكذا في اللحظة ذاتها التي يقسم فيها الخالق «بالقلم» ويؤكد ضرورة العلم الذي أتيح للبشر، يفتح الله الآيات بحرف النون الذي تكتنفه الأسرار، معبراً بذلك عن محدودية المعرفة البشرية. إن كرامة البشرية، التي منحها لها المعرفة، لا يمكن أن تخلو من تواضع العقل الذي يدرك حدوده ويدرك بذلك ضرورة الإيمان، إن قبول عدم فهم الأسرار التي ينطوي عليها وجود حرف النون يقتضي الإيمان، إن فهم وقبول النصوص التي لا تكتنفها الأسرار للآيات التي تلي فإن ذلك يقتضي استخدام عقل نشط لكنه بالضرورة - بل بالطبع - عقل له حدود.

الإيمان والأخلاق والاضطهاد

تضيف سورة القلم إلى التعليم الأساسي للإسلام - الذي مفاده أن العلم لا يوجد إلا بإدراك البشر لمحدوديته - بعداً آخر عندما تتحدث عن

«الخلق العظيم» للنبي ﷺ. إن هذه السورة التي تذكرنا بما عرفناه سابقاً عن سلوك النبي ﷺ النبيل بشكل استثنائي منذ ولادته تقيم صلة محددة بين العلم والإيمان والعمل، ففي ضوء الإيمان، يجب أن يكون العلم مبنياً على أساس كرامة الفرد الأخلاقية ومعتمداً عليها؛ وفي الواقع، فإن نبل سلوك النبي ﷺ هو الذي يؤكد له -استنتاجياً- بأنه ليس به مس من الشيطان وأنه على الحق وأن أجره سيكون لا نهاية له، يجب أن يكون للإيمان بالله وللعلم -من منطلق التعاليم الإلهية، كنتيجة فورية- سلوكاً وطريقة في التصرف، تحترم ما هو أخلاقي وتعزز ما هو خير.

تلك الآيات تنطوي على درس آخر، تنبأ به ورقة بن نوفل والراهب بحيرى قبله: سوف يتعرض النبي ﷺ للإهانات والشدائد والحقْد بل وحتى النفي من جانب أهله، وقد تم تحذير النبي ﷺ بأنه سوف يُكذَّب لا محالة، غير أنه في الوقت الراهن، بعد أول الوحي الذي نزل عليه، كان عليه مواجهة شكوكه هو: لقد طمأنته زوجته وبعدها جاء تأكيد ورقة بن نوفل، لكنه لم يتلق أي شيء من الملك جبريل لطمأنته تامة، في بعض الأحيان، وفي أثناء سير النبي ﷺ، كان يرى صورة جبريل تملأ الأفق، فإذا أشاح بوجهه عنها ظل جبريل يطالعه.

لا توجد معطيات دقيقة عن عدد المرات التي جاء فيها الوحي للنبي خلال هذه المرحلة الأولى، لكن عائشة - رضي الله عنها - تروي بأن النبي ﷺ قال في أحد الأيام إنه سمع صوتاً وفجأة «ظهر لي الملك الذي جاء في غار حراء، وهو جالس بين السماء والأرض، فانتابني الخوف وكما حدث في أول الوحي فهرعت إلى البيت وقلت: «دثروني! دثروني!» ففعلوا⁽¹¹⁾.

حدث ذلك وعندها نزلت هذه الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ (12).

في كل نزول للوحي في المرحلة الأولى، كان الله يصف نفسه لرسوله بأنه «ربه»، الذي اصطفاه وأدبه ودعاه إلى حمل التنزيل الأخير الصادر عن الواحد الأحد، فلم يكن عبثاً أن محمداً ﷺ قد تعرض لليتم والفقر وأنه انخرط في حقبة من التأمل، رغم أنه في تلك اللحظة كان القلق والجزع يغشيان إدراكه بأنه تم اصطفاؤه وإسناد الرسالة إليه.

الصمت والشك

ثم ازداد الوضع سوءاً؛ لأن الوحي توقف خلال الأشهر التالية، هذه الفترة التي استمرت بين ستة شهور وسنتين ونصف السنة، حسب الحديث المروي، أثارت في نفس النبي ﷺ شكاً وألماً كبيرين، فقد ظن أنه لم يعد أهلاً لتلقي الوحي، وأن ربه قلاه، أو أن ما حدث له هو مجرد سحر، وقد روت عائشة - رضي الله عنها - شدة ألمه:

انقطع الوحي مدة حتى حزن النبي ﷺ حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل كي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل فقال: «يا محمد! إنك رسول الله حقاً»، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه (13).

كان لظهور جبريل والدلالات المحيطة بالنبي ﷺ أبلغ الأثر في مساعدته على مقاومة مشاعر الشك والعزلة. لقد كان في الواقع يتعرض لما تعرض

له إبراهيم عليه السلام: ففي محنة هذا الصمت، أخذ يشك بنفسه، وقدراته وقوته، لكن الله كان دائماً يضع في طريقه دلالات ورؤى حالت دونه والشك بالله، كان اختبار انقطاع الوحي استهلاً لحد سير الرسول ﷺ في مساعاه الروحي، فقد أنباه الوحي عن ضرورة التواضع، لكن مدة انقطاع الوحي كان يعلمه إياه الآن بشكل عملي. لقد كشف الله له عن وجوده وخلال تلك الأسابيع الطويلة التي خلت من كلمته، كان يعزز الحاجة إليه في قلب رسوله، وأخيراً أوحى الله إليه ثانية، مستدعياً ضحى النهار وسجى الليل من أجل حقيقتيهما المادية، وهي دلالة على قدرة الخالق، بقدر ما هما من أجل رمزيتهما، التي تعبر عن هشاشة الحياة والقلب بين نور الوحي الصاعد وفراغ الصمت المظلم:

﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَى (٥)﴾ (14)

كانت تلك أخباراً سارة، ولم يعد الوحي يتوقف ثانية طيلة ما يزيد عن عشرين سنة.

خديجة (رضي الله عنها)

من الأهمية بمكان التأكيد هنا على الدور الذي قامت به خديجة - رضي الله عنها - طيلة تلك السنوات الحافلة بالأحداث، بعضها خارق للعادة، وأخرى شديدة الإيلام. كانت هي التي لاحظت أولاً، ثم اختارت، محمداً ﷺ لصدقه وإنصافه ونبل أخلاقه، وبما أن الكثيرين من مكة كانوا يخطبون ودّها بسبب ثروتها، فقد كان باستطاعتها تقدير موقف

التعفف والتحفظ من ذلك الشاب الذي كان مع ذلك مقداماً وبارعاً إلى درجة كبيرة. وخلافاً لما هو متعارف عليه، فقد كان لديها من الشجاعة ما جعلها تطرح عليه مشروع الزواج من خلال صديقتها نفيسة، وكان لزوجهما أن يجلب لهما نصيبهما من السعادة والحزن والأسى: فقد فقدوا ابنيهما، القاسم وعبد الله، في مرحلة الطفولة، ولم تبقى على قيد الحياة سوى بناتهما الأربع⁽¹⁵⁾. كان قدر هذه الأسرة صعباً بما فيه الكفاية، لكن لدى العرب، كانت ولادة البنت تُعدُّ عاراً، وجاء في الأثر أن محمداً ﷺ كان، على العكس من ذلك، يحيط بناته هو وزوجته بالحب الشديد والرعاية المتواصلة، التي لم يتردداً أبداً في التعبير عنها في العلن.

عندما نزل الوحي على محمد ﷺ للمرة الأولى وهو في سن الأربعين، التجأ إلى زوجته على الفور، وكانت أول من وقف إلى جانبه وهدأ من روعه، وكانت زوجته، خلال السنوات السابقة كلها، تشاهد رجلاً تميزت شخصيته بالنبل. وعندما عاد إليها من غار حراء، وقد انتابه الاضطراب واجتاحه الشك بشأن ما كان عليه وما كان يحدث له، أحاطته بمحبتها وذكرته بصفاته الحميدة وأعادت له ثقته بنفسه، كانت أحداث الوحي الأولى إنعاماً خارقاً واختباراً مريعاً لرجل لم يعد يعرف إن كان به مس أو إن كان فريسة لحمى هذيان شيطاني. كان وحيداً ومشوشاً، فلجأ إلى زوجته، فوقف الاثنان معاً يواجهان الاختبار، ويحاولان فهم معناه، ثم بعد انتهاء فترة انقطاع الوحي، استجابا لدعوة الله وسارا على طريق الانخراط الروحي، في هذا الصدد، كانت خديجة - رضي الله عنها - دليلاً على وجود الله في قلب اختبار محمد ﷺ. وكانت من حيث تجربة محمد ﷺ الروحية

ما كانت عليه هاجر من حيث تجربة إبراهيم عليه السلام. كانت كلتاهما والابن العلامات التي أرسلها الواحد الآخر لإظهار وجوده ودعمه في اختبارهما، بحيث لا يشكان به أبداً، كانت خديجة - رضي الله عنها - أول من اعتنق الإسلام، وظلت طيلة السنوات العشر من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم تقف إلى جانبه، رفيقة مخلص لا تخذله أبداً، لقد كان دور المرأة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كبيراً واسع النطاق، وقد ظلت خديجة - رضي الله عنها - طيلة خمس وعشرين سنة، زوجته الوحيدة، كان وجودها وحده حماية للنبي صلى الله عليه وسلم لكنها تعرضت معه إلى الرفض من أهله وإلى الاضطهاد والعزلة ⁽¹⁶⁾. كان حبه لها بالغ الشأن، وكان ذلك واضحاً إلى حد أنه بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - بعدة سنوات، قالت عائشة - رضي الله عنها - التي تزوجت النبي صلى الله عليه وسلم لاحقاً - كانت خديجة - رضي الله عنها - المرأة الوحيدة على الإطلاق التي كانت تشعر بالغيرة منها، لقد استقبلت خديجة - رضي الله عنها - النبأ الطيب لاختيار الله له، كانت امرأة مستقلة، وقورة وتحظى بالاحترام، ثم هي زوجة قوية ونبيهة وصادقة وواثقة من نفسها، كانت تقية، مخلص، ذات تصميم وتحلى بالصبر، وهكذا فإن محمد صلى الله عليه وسلم آخر أنبياء الواحد الأحد، لم يكن وحيداً، وكان من أوضح علامات فضل الله عليه ومحبه له وجود امرأة في حياته، زوجته.

وحي وحقائق وكتاب

لقد تجلى الله من خلال الوحي، وقد وجهت مناسبات الوحي وعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى وجود الله الأسمى وتربيته، إذ إنه كان دائماً يخاطب بأنه «ربك».

وكان جبريل قد نقل الأسس الأولى للرسالة ولمعرفة الله - جوهر الإيمان - وعبر في الوقت نفسه عن مركزية العلم (القراءة والكتابة) المقترنة بالسلوك الفاضل، وكان الإعلان عن البشائر الطيبة يقترن بتحذير بشأن معارضة الآخرين القادمة لمحمد ﷺ، ذلك لأنه لم يأت رجل حق إلى الأرض إلا عودي وكُذِّب وأثيرت حوله الأكاذيب، حتى من بعض أقاربه، الذين كانوا يحبونه، أصبحوا يكرهونه إلى درجة أنهم كانوا يريدون قتله.

لقد ظهر جبريل له مرات متعددة، وقد روى النبي ﷺ لاحقاً أن الملك كان يظهر له في بعض الأحيان على هيئة الملائكية وفي أحيان أخرى على شكل بشر، وفي أوقات أخرى، كان محمد ﷺ يسمع صوتاً مثل قرع الأجراس ويأتيه الوحي بشكل مفاجئ ويقتضي منه تركيزاً بالغاً لدرجة الاختناق، كان هذا النمط الأخير مؤلماً جداً رغم أنه كان في نهاية الوحي يستطيع إعادة محتوى الوحي الذي أنزل عليه كلمة كلمة⁽¹⁷⁾. وقد كان جبريل يصحبه طيلة عشرين سنة ويكشف له، بشكل غير مطرد ووفق مقتضيات الموقف، الآيات والسور التي كان من شأنها أن تكون القرآن في خاتمة المطاف، لم يتم ترتيب الوحي وفق التسلسل التاريخي في المصحف الذي كان يتخذ شكله الراهن، بل تم ترتيبها وفق ما كان جبريل يوجه به النبي ﷺ في كل مرة وكان النبي ﷺ يستجيب إلى توجيهه بشكل دقيق. وكان النبي ﷺ، كل سنة، في شهر رمضان، يتلو أمام جبريل كل ما كان قد أنزل عليه من قرآن حتى ذلك الوقت، وفق الترتيب الذي حدده الملك، وبهذه الطريقة نُفِّذ تحقيق منهجي لمحتوى الكتاب وشكله والذي كان يتكون تدريجاً عبر خمس وعشرين سنة.

الفصل الخامس

الرسالة والشدائد

بعد الخروج من المحنة التي نجمت عن التجربة الأولى لنزول الوحي، وفيما بدأ محمد ﷺ يتلقى المزيد من الوحي، فقد أخذ يطلع المقربين له على الرسالة، ولم يكن قد تلقى بعد تعليمات بشأن كيفية طرح الرسالة على شعبه، لكنه توقع أن يواجه معارضة شرسة، كما تنبأ بذلك ورقة بن نوفل.

أوائل الذين اعتنقوا الإسلام

بعد خديجة - رضي الله عنها -، زوجته وأول من اعتنق الإسلام، توسعت دائرة الذين قبلوا الرسالة بحيث تضمنت عائلته ثم أصدقاءه، وهكذا فقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن عمه الذي كان يعيش في كنفه، وزيد بن عبد الله بن أبي طالب، وأم أيمن، المريية التي تولت رعايته بعد عودته إلى مكة وهو في سن الرابعة، وصديق عمره الحميم أبو بكر رضي الله عنه من بين الأوائل الذين أدركوا حقيقة الرسالة ونطقوا بالشهادة، معربين بذلك عن اعتناقهم للإسلام: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». ازداد عدد الذين اعتنقوا الإسلام ببطء نتيجة دعوة النبي ﷺ الحذرة، وانخراط أبي بكر رضي الله عنه الذي ينطوي على التصميم الشديد، كان أبو بكر رضي الله عنه مستعداً دائماً للحديث عن الدين الجديد والعمل من أجله: فقد كان يشتري الرقيق من

أصحابهم ويحررهم انطلاقاً من مبادئ الإسلام، مؤكداً على مساواة البشر، في تلك السنوات كان وجود محمد ﷺ في مكة وأعماله وسلوكه النموذجي، كل ذلك كان يجذب عدداً كبيراً من النساء والرجال الذين أخذوا يعتنقون الدين الجديد الواحد تلو الآخر، غير أن عدد الذين اعتنقوا الدين الجديد ظل مع ذلك صغيراً خلال الأشهر القليلة الأولى، جاء في الأثر أنه خلال السنوات الثلاث الأولى، بلغ عدد المسلمين من قريش بين ثلاثين وأربعين فقط، كانوا يجتمعون مع النبي ﷺ في بيت أحد الذين اعتنقوا الإسلام، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ويتعلمون أسس دينهم فيما ظل الوحي ينزل عليه، ثم أخذ الجو المحيط يزداد عداءً عندما علم سكان مكة بأسس هذه الرسالة الجديدة وأثرها على الفقراء والشبان. وقد قرر النبي ﷺ، إدراكاً منه لذلك الثوران والأخطار المقبلة، التركيز بشكل حذر على تعليم جماعة صغيرة كان يعرف أنهم سيواجهون المعارضة والرفض، وعلى الأرجح، الإقصاء، ولقد كانت هذه الجماعة التي ظلت ثابتة في وجه الصعوبات والاضطهاد بفضل تربيتهم الروحية وصدق انتمائهم للدين الجديد، فمنذ البداية، كان النبي ﷺ يعطي الأولوية إلى النوعية بدلاً من الكمية، وكان يفضل الاهتمام بطبيعة القلوب والعقول التي كان يخاطبها وليس بالأعداد، فقد قام خلال السنوات الثلاث الأولى، بهدوء، بتكوين المجتمع الأول من المؤمنين، الذي تميز بأنه ضم، دون تمييز، نساء ورجالاً من كافة العشائر والفئات الاجتماعية (مع أن الغالبية كانوا من الشبان والفقراء).

الجهربالدعوة

بعد تلك السنوات، أمره الوحي بالدعوة العلنية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾. ففهم النبي ﷺ أن عليه الآن تبليغ الرسالة إلى أفراد العشيرة

التي كانت تربطه بهم أو أصر القرابة، فبدأ يدعوهم إلى الإسلام. وفي أحد الأيام، صعد إلى جبل الصفا ودعا رؤساء القبائل فرداً فرداً. وقد ظن هؤلاء أن لديه خبراً مهماً يريد الإعلان عنه، فجمعوا على سفح التل للإصغاء إليه، كانوا لا يستطيعون النظر إلى الوادي، من المكان الذي وقفوا فيه، بينما كان محمد ﷺ مواجهاً له، فناداهم قائلاً: «أرأيتم لو أخبركم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»، فأجابوا بصوت واحد تقريباً: «نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً»، فمضى النبي ﷺ يقول: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! لقد أمرني الله أن أنذر عشيرتي الأقربين، لا أغني عنكم شيئاً في هذه الحياة ولا أملك لكم نفعاً في الآخرة، ما لم تؤمنوا بوحداية الله». ومضى يقول: «إني كمن يرى العدو ويعدو إلى قومه ليحذرهم قبل أن يؤخذوا على حين غرة، وهو يصيح وهو يعدو: «حذار! حذار!»⁽²⁾. وجاء رد عمه أبي لهب فوراً وهو يتميز من الغيظ: «تباً لك! ألهذا جمعتنا؟» ثم انصرف على الفور وأخذ معه الرؤساء الذين تجمعوا: وهكذا فقد كان يمثل الذين رفضوا رسالة محمد ﷺ وعارضوه ببالغ الشدة⁽³⁾، بعد ذلك، عندما أقام النبي ﷺ وليمتين لعرض رسالته، فشلت الأولى لأن أبا لهب تدخل ثانية لمنع ابن أخيه من الكلام، وفي الوليمة الثانية تمكن محمد ﷺ من إبلاغ فحوى رسالته، التي سمعها الحاضرون وقبلها سرّاً بعض أفراد عشيرته الذين دعاهم.

استقبل أقاربه وكبار القبيلة كلامه ببرود واستخفاف لأنهم كانوا يدركون أن طبيعة رسالة محمد ﷺ تهدد التوازن العريق في مجتمعهم. فتلک الرسالة كانت تتطوي على تحدٍّ لآلهتهم ولسلطاتهم، وفي ذلك ما فيه من خطورة كبيرة، وظل محمد ﷺ يخاطب أقاربه إلى أن نزل عليه وحي جديد يأمره باتخاذ موقف مباشر وحاسم: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁴⁾.

وهكذا فقد دخلت الرسالة النبوية في مرحلة جديدة، لقد توجهت الآن إلى الناس كافة واقتضت التمييز بين التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، وشرك قريش في تعدد آلهتهم، وكان النبي ﷺ قد جمع حوله صفوة من النساء والرجال الصادقين المخلصين، كان بعضهم من أقاربه، ولكن كان الكثيرون غيرهم من فئات اجتماعية وقبائل مختلفة، وكان يزودهم بتعاليم روحية ودينية طيلة السنوات الثلاث السابقة، وكان من المقدر لهم أن يواجهوا، بثبات وصبر، الرفض والاضطهاد والإقصاء في مجتمع مكّي بدأ يتصعد.

الرسالة

في سنوات الوحي الأولى، أخذت الرسالة القرآنية تتمحور تدريجاً حول أربعة محاور: وحدانية الله، مركز القرآن، الصلاة، والحياة بعد الموت. فقد دعي المسلمون الأوائل إلى تحول روحي عميق وجذري، وقد فهم ذلك جيداً الخصوم ضمن عشائريهم، الذين كانوا يخشون من الثوران الذي لا بد أن يسببه الدين الجديد في معتقدات مجتمعاتهم وتنظيمه.

التوحيد

أكدت الرسالة القرآنية بالدرجة الأولى على التوحيد، فبالإضافة إلى فكرة الله كرب، والتي رأيناها تنبثق في مناسبات الوحي الأولى، فقد ظهر الاسم الإلهي، اسم الله بالطبع، فضلاً عن العبارات التي تقرر وجوده بالسلام والرحمة، وهكذا فقد خاطب جبريل النبي ﷺ بعبارات: «السلام عليكم يا رسول الله» و«سلام الله ورحمته عليك». وقد استخدم المسلمون تلك العبارات منذ البداية في تحية بعضهم بعضاً والدعاء إلى الله باسميه الاثنين: السلام والرحمن، كما أن كل سورة من سور القرآن تبدأ بعبارة بسملة يستدعي المتكلم بها وجود الواحد الأحد وصفاته القدسية:

«بسم الله الرحمن الرحيم» وقد جعل القرآن منذ البداية اسم «الرحمن» معادلاً لاسم «الله»: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (5).

هذه الإشارة الدائمة إلى الواحد الأحد ومختلف أسمائه شيء أساسي. بل إنها هي التي تحدد نوع العلاقة التي أقامها المؤمنون الأوائل مع الله: إدراك وجوده والتأكد من أن كرمه هو نعمة منه ووعد بالسلام، وقد تضمنت ذلك بأوضح وجه سورة «الرحمن» التي تخاطب معشر الإنس والجان وتدعوهم إلى التفكير وإدراك وجوده وإنعامه (6).

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الزُّلْزِلَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ (7).

مركز القرآن

كل شيء من الطبيعة إلى مقتضيات الأخلاق والإنصاف في السلوك البشري، يذكر بالخالق وتجليه الأساسي بالخير والرحمة. بل إنه أنزل النص ذاته باسم رحمته للبشر. فالوحي هو منحة وعبء على السواء. وهذا، من أول الأمر، يطرح المحور الثاني للتعاليم الأولى للإسلام. إن مركز القرآن - الذي يقيم الصلة، في الآيات المذكورة أعلاه، بين الله والبشرية - هو أحد أسس العقيدة الإسلامية (8). فالقرآن هو كلام الله الذي أوحى به بهذه الصفة إلى البشرية ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وهو في

الوقت نفسه نذير ونور وإعجاز⁽⁹⁾. إنه تذكرة لرسائل التوحيد السالفة، نور الهدى الإلهي للمستقبل، ومعجزة الكلمة الخالدة التي ليس لها مثل المرسل إلى البشر في صميم تاريخهم.

منذ البداية، يتجلى القرآن كمرآة للكون. إن كلمة (Verse) التي استخدمها المترجمون الغربيون الأوائل - من منطلق مفردات الكتاب المقدس - تعني حرفياً «علامة» (آية). فالكتاب الموحى به، النص المكتوب، يتكون من آيات، على غرار الكون، مثل نص منشور أمام أعيننا، يعج بالآيات. فعندما يقرأ عقل القلب، ليس العقل التحليلي فقط، القرآن والعالم، فإنه يجد أن النصين يتوجهان إلى بعضهما وأنها صدى لبعضهما، وأن كلاً منهما يتحدث عن الآخر وعن الواحد الأحد. فالآيات تذكرنا بمعنى أن نولد ونعيش ونفكر ونشعر ونموت.

فالقرآن بما يتصف به من شكل ومحتويات مثيرة، فضلاً عن قوته الروحية، هو معجزة الإسلام. كما أنه يمثل مسؤولية كبيرة ومزدوجة للمسلمين: على صعيد المتطلبات الأخلاقية التي تطبعها فينا التعاليم القرآنية ومن حيث قدرتها على أن تكون شاهدة على ذات التعاليم المطروحة على البشر، على السواء. هذا البعد يظهر منذ أوائل الوحي، فسورة «المزمل»، وهي من أوائل الوحي تنطوي على نذير: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»⁽¹⁰⁾. وتستخدم آية أخرى صورة قوية التعبير عن الصفة الروحية للقرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾⁽¹¹⁾. فالوحي يفصح عن نفسه بأنه نذير خير وأمر أخلاقي شديد الحزم ينشر الإلهام الروحي بقدر ما ينظم الشكل الواضح للطقوس الدينية.

الصلاة

بينما كان محمد ﷺ يسير في أنحاء مكة، جاءه الملك جبريل، وعلمه كيفية الوضوء وأداء فرض الصلاة⁽¹²⁾. هذه التعاليم جاءت في وقت مبكر جداً، حيث إنها فرضت على الفور عمل التطهر بالماء مع الأمر بأداء الصلاة التي تقوم على تلاوة القرآن وعلى سلسلة من الركعات، وقد نفذ النبي ﷺ تعليمات جبريل الواحدة تلو الأخرى، وعاد إلى البيت ليعلم زوجته خديجة - رضي الله عنها - كيفية أداء الصلاة، في تلك السنوات الأولى، كانت الصلاة المفروضة تمارس مرتين في اليوم فقط، صباحاً ومساءً.

وتشير سورة المزمل المشار إليها آنفاً إلى صلاة الليل التي أصبحت واجبة على كافة المسلمين في بداية الحقبة المكية وبقيت على تلك الحال إلى أن تم في خاتمة المطاف فرض الصلوات الخمس في كل يوم، كان التدريب الروحي والشعائر ينطويان على متطلبات ثقيلة:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۖ (١) قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) يَصْفَهُ ۖ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَبَنِّئْ إِلَيْهِ بُنْيَانًا (٨)﴾ (13).

في قلب مكة، وفي بيئة متزايدة العداء، كان النساء والرجال الذين اعتنقوا الإسلام يتعلمون بلا توقف، وبهدوء: فقد كانوا يقومون الليل ويصلون مدة طويلة، ويتلون عن ظهر قلب آيات القرآن التي جعلها الواحد الأحد الصلة الفضلى بين وده اللامتناهي وقلب كل كائن. هذا التأهيل الروحاني الراقي هو الذي كونه الخصائص المهمة للمؤمنين الأوائل: كان هؤلاء الأتقياء والراشدون والحازمون يصلون إلى إله

الرحمة والسلام، ويتلون القرآن الموحى به، الذي هو ذكر ونور ويسيرون على خطى خاتم الأنبياء وتعاليمه، إن جوهر الرسالة الإسلامية يتجسد كلياً في علاقة الثقة والمحبة الحميمة بالعلي الأعلى ويقيم صلة مباشرة بين الفرد وخالقه، الذي شاء إظهار السلوك الأسمى من خلال رسول، من البشر، أرسله ليكون قدوة للبشر، وقد جمعت ثلاث آيات لاحقاً الجوهر الحقيقي لهذه التعاليم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (14).

في قلب هذه العلاقة الحميمة، يفتح النبي الطريق:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (31) (15).

وهو مثال الإنسان الذي يتوق إلى الإله الذي يتجاوز محدودية الحياة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١) (16).

لقد عاش المؤمنون الأوائل على هذه التعاليم: ففي صلواتهم كانوا يتوجهون إلى القدس، معربين بذلك عن الرابطة الواضحة بين هذه الرسالة والتوحيد في اليهودية والنصرانية، اللتين لهما ذات التطلعات إلى الأبدية والحياة في الآخرة.

الآخرة واليوم الآخر

تكرر آيات القرآن موضوع الحياة بعد الموت، ففي مواجهة عدم تصديق الناس، يعتمد القرآن، كما رأينا في فصول سابقة، على أمثلة مستقاة من الطبيعة، وعلى وجه التحديد من الصحراء، التي تبدو وكأنها أرض ميتة، تهتز وتربو بعد نزول المطر، وفي وقت مبكر جداً توجه اهتمام النبي بالدرجة الأولى إلى هذه الحياة الأخرى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (17).

وفي واقع الأمر، لم يكن مقصود الرسالة بكل وضوح تهدئة الشكوك والمخاوف بشأن الموت الذي لا مفر منه بل كان غرس الاعتقاد الراسخ في عقول المؤمنين وقلوبهم بأن لهذه الحياة معنى، وأتينا إلى الله راجعون. إن هذه التذكرة المتواصلة بالآخرة تؤكد بالفعل على اليوم الآخر، يوم الحساب، الذي يقيم الله فيه الميزان بين الخير والشر والمسؤول عنهما كل كائن خلال حياته الدنيوية، وبالتالي، فإن إدراك اليوم الآخر يشير إلى العلاقة بين الإيمان والأخلاق، بين التأمل والعمل: إن «الطريق المستقيم» الذي يرضى عنه العلي الأعلى هو طريق ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (18).

وهكذا فإن يكون الإنسان مع الله ولله وأن يكرس نفسه لله ينطوي على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؛ إنه السعي لتحقيق مقتضى الأخلاق (19). أن يكون الإنسان مع الله يستتبع بالضرورة تغيير السلوك والانضمام إلى ﴿أُمَّةٍ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (20). إن الإسلام، كغيره من أديان التوحيد، يؤكد على الرجوع إلى الله، على حكمه، على الجنة والنار، وتقرن آيات عديدة معنى الحياة بالآخرة، في التجربة الروحية التي تحدد معنى الحياة وتربطها بمقتضى السلوك الأخلاقي، تعد هذه المرحلة التمهيدية شيئاً أساسياً، رغم أنها ليست التعاليم النهائية عن العلاقة بالله، إن ذروة

العلاقة مع من هو أقرب إلينا من حبل الوريد، والتي تتجاوز الطمع في جنته والخوف من ناره، هي محبته والطموح إلى النظر إلى وجهه الكريم إلى الأبد، كما علم النبي ﷺ صحابته لاحقاً بهذا الدعاء: «اللهم امنن علينا بالنظر إلى وجهك الكريم». إن المقتضى الأخلاقي هو الذي يشكل الطريق اللازم إلى القرب الحميم من الله والمليء بالمحبة.

الشدائد

انتقلت الدعوة الآن إلى العلن، ومع أن الإرشاد الذي كان يناله الداخلون حديثاً في الإسلام في دار الأرقم كان يتصف بالحذر، إلا أنهم لم يكونوا ليترددوا في التحدث مع أقربائهم وإلى من حولهم، فيوماً بعد يوم كان يزداد إدراك رؤساء العشائر للخطر الذي كان يشكله الدين الجديد؛ لقد كان تمرداً صريحاً ومباشراً على آلهتهم وتقاليدهم، وكان سيعرض سلطة الرؤساء للخطر في خاتمة المطاف، فقرروا في بادئ الأمر إرسال وفد إلى عم النبي ﷺ، أبي طالب، الذي كان حتى ذلك الوقت يحمي ابن أخيه. فطلبوا منه أن يتحدث إلى محمد ﷺ ويطلب منه التوقف عن نشر رسالته، التي كانوا يعتبرونها خطرة وغير مقبولة لأنها كانت تهاجم آلهتهم وتراث أسلافهم مباشرة، لكن أبا طالب لم يفعل شيئاً بعد زيارتهم الأولى، فعادوا وأكدوا له أن المسألة شديدة الإلحاح، عندئذ أرسل أبو طالب يطلب ابن أخيه وحاول إقناعه بإنهاء أعماله حتى لا يضعه في موقف حرج، كان رد محمد ﷺ حازماً: «والله يا عماء، لئن وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»⁽²¹⁾. أمام هذا التصميم، لم يصر أبو طالب، بل أكد للنبي ﷺ استمرار دعمه له، ثم جاء للنبي ﷺ وفد آخر وعرض عليه المال والجاه

والسلطة، فرفض عروضهم الواحد تلو الآخر وأكد لهم تمسكه برسالته: وهي دعوة الناس إلى معرفة الله والإيمان به، مهما كان الثمن.

ما بي وما تقولون، ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولكن الله بعثني عليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم. فإن تقبلوا ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (22).

بهذه الكلمات وضع محمد ﷺ حداً لإمكان القبول بحل وسط: فهو لن يتوقف عن إبلاغ رسالته، ويتوكل على الله ويصبر على عواقب هذا القرار في هذه الدنيا. وكانت الأعمال العدائية قد بدأت في هذه المرحلة: فقد دأب رؤساء العشائر على توجيه الإهانات للنبي ﷺ وكانوا ينعته بالجنون وأن به مساً أو أنه ساحر. وأرغم عمه أبو لهب ابنيه على طلاق ابنتي النبي ﷺ، اللتين كانا قد تزوجاهما، في حين أن زوجته كانت تعمد إلى إلقاء القمامة في الطريق عند مرور محمد ﷺ.

وانتشرت الإشاعات بأن محمد ﷺ كان ساحراً في واقع الأمر، وأنه فرق الأسر وفصل الآباء والأمهات عن أولادهم والأزواج عن زوجاتهم وأنه مثير للمتعاب، وعند اقتراب موعد السوق السنوية عمل رؤساء العشائر، انطلاقاً من خوفهم من قيام محمد ﷺ بنشر رسالته بين الزائرين، إلى توزيع الرجال على مختلف مداخل مكة لتحذير القادمين من الزوار من الأذى الذي سببه محمد ﷺ وأصحابه، وقد نجحت استراتيجية عزله عنهم نجاحاً كبيراً، مع أن البعض لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتأثروا. ومنهم قاطع الطريق أبو ذر الغفاري، فعند سماعه بهذه الرسالة الجديدة التي

تدعو للإيمان بآله واحد، ذهب إلى النبي ﷺ رغم تحذيرات القرشيين. فوجد محمداً ﷺ مستلقياً في الظل قرب الكعبة، فنَادَى على محمد بالاسم وسأله عن رسالته فأصغى إليه ثم نطق على الفور بالشهادة، الأمر الذي أدهش النبي ﷺ الذي قال وهو ينظر إليه: «إن الله يهدي من يشاء!» وقد أصبح أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاحقاً من أشهر صحابة النبي ﷺ؛ وكان معروفاً بتفانيه وشدة واستنكاره للترف والكسل.

كان النبي ﷺ يتعرض للأذى والسخرية، وكان الناس يطلبون منه أن يأتي بالمعجزات والأدلة، فكان لا يفتأ يجيبهم بما أنزل عليه من القرآن: «إن أنا إلا رسول!» وازداد الضغط وبدأت مظاهر المعارضة العنيفة تظهر بشكل متزايد، وكان رؤساء العشائر يشاركون في التعدي بشكل خاص على فقراء المسلمين الذين لم يكن لهم من يحميهم من أي من العشائر. فكان بلال الرقيق يُقيد من قبل مالكة في الصحراء، في الشمس المحرقة. وكان مالكة يضع حجراً كبيراً على بطنه لإجباره على التخلي عن دينه، لكن بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظل يردد «أحد، أحد». ثم اشترى أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلالاً (كما كان يفعل بالكثيرين من الرقيق الآخرين) وأطلقه. وقد أصبح بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لاحقاً مؤذن المدينة ويحظى باحترام الجميع لصدق إيمانه وإخلاصه وجمال صوته (23).

ثم أصبح رجل من قبيلة مخزوم، واسمه عمرو، يعبر عن معارضته للإسلام بأقصى طريقة ممكنة، وكان أقرباؤه يسمونه أبا الحكم، لكن المسلمين الذين رأوا رفضه رؤية الحق وخشونته، سموه أبا جهل، فذهب مرة للقاء النبي ﷺ ووجه إليه الإهانات التي تتم عن درجة من الحقد جعلت الذين سمعوه، رغم كونهم غير مسلمين، يقولون بأنه تجاوز مفاهيم الشرف جراء إهانة محمد ﷺ بهذه الطريقة، عندما سمع بذلك حمزة،

عم النبي، انبرى إلى أبي جهل وهدده بالانتقام منه إذا كرر ما فعله بهذه الطريقة، وأعلن في الوقت نفسه، بأنه اعتنق هو نفسه الإسلام، وأنه سيتولى الآن هو نفسه حماية ابن أخيه⁽²⁴⁾.

فتوقف أبو جهل عن إهانة محمد ﷺ: وبدلاً من ذلك، فقد أخذ يسيئ إلى أفقر الصحابة، وأشدهم تأثراً، وكان عمار ﷺ، وهو شاب من أصل يمني، قد اعتنق الإسلام منذ أوائل الدعوة وتأهل على يد النبي ﷺ في دار الأرقم، ثم أسلم أبوه ياسر، ثم أمه، سمية، بعده بفترة وجيزة، وانخرطاً بهمة كبيرة في تعلم الدين الجديد، فاخترهم أبو جهل ليكونوا موضعاً لكراهيته وانتقامه: فكان يضربهم ويقيدهم في الشمس المحرقة ويعذبهم، ولم يكن النبي ﷺ يستطيع فعل أي شيء بسبب الطابع المعقد للتحالفات بين العشائر، فكان يرى هذه المعاملة المهينة دون أن يتمكن من التدخل، فمر يوماً بياسر وزوجته، اللذين كانا يعانيان من سوء المعاملة فقال لهما: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة». ولكن رغم عمليات التعذيب تلك، والتي استمرت لأسابيع، كانت سمية وزوجها ياسر يرفضان التخلي عن دينهما، بل إن سمية كانت تصرخ في وجه أبي جهل وتندد به وبسلوكه الذي ينم عن الجبن، وقد أثار ذلك غضبه فظل يطعنهما حتى ماتت، ثم التفت، وهو في ثورة غضبه ذاتها، إلى زوجها وظل يضربه حتى مات أيضاً، فكانت سمية وياسر أول شهيدتين في الإسلام: حيث جرى اضطهادهما وتعذيبهما ثم قتلهما لرفضهما الكفر بالله وبوحدانيته وصدق وحيه⁽²⁵⁾.

أخذت الأوضاع تزداد سوءاً بالنسبة للمسلمين، لاسيما بالنسبة لأشدهم تأثراً وضعفاً من حيث المركز الاجتماعي والانتساب العشائري. كانت حمايته منوطة بعميه أبي طالب وحمزة، لكن هذه الحماية لم تكن

تشمل بأي حال من الأحوال الجماعة الروحية الأولى للمسلمين، وأصبحت القاعدة هي الإهانات والرفض وسوء المعاملة، وأخذ محمد ﷺ يبحث عن حل لتخفيف الفتن والآلام التي كان يعاني منها المسلمون الأوائل، ففكر بالاتصال بالوليد، رئيس عشيرة مخزوم، التي كان أبو جهل ينتمي إليها؛ وكان الوليد يتمتع بسلطة كبيرة على المجتمع المكي برمته، فإذا استطاع النبي ﷺ إقناعه بصدق رسالته، أو جعله على الأقل يتشفع للمسلمين ويوقف عمليات اضطهادهم، فإن هذا سيكون إنجازاً لنفسه ولأصحابه. ولكن فيما كان يطرح أفكاره ويحاول كسب دعم الوليد، قاطعه رجل أعمى، فقير الحال وكبير السن، كان قد اعتنق الإسلام حديثاً وأخذ يطلب إليه تلاوة بعض سور القرآن عليه، في أول الأمر أشاح محمد ﷺ بوجهه بهدوء، لكنه سرعان ما شعر بالضيق جراء إلحاح الرجل المسن الذي كان يحول دونه وطرح قضيته على الوليد، الذي كان شديد الازدراء ورفض في خاتمة المطاف مجرد سماع أقوال النبي ﷺ. وقد نزلت سورة جراء هذه الواقعة طالبةً من المسلمين استقاء العبرة الأزلية منها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢)
وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَزْكِي ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعَّهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى
(٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى
(٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا ۚ إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ۖ (١١) لِمَنْ شَاءَ
ذِكْرُهُ ۚ (١٢)﴾ (26).

لقد تعرض النبي ﷺ، في اندفاعه لحماية جماعته، إلى عتاب ربه، الذي علمه ألا يشيح عن أي كائن، بصرف النظر عن الظروف الصعبة التي يمكن أن يكون الرسول يواجهها، حتى وإن كان الشخص فقيراً أو مسناً

أو أعمى، ففي سعي النبي ﷺ للحصول على حماية شخص بارز مفيد من الناحية الاجتماعية والسياسية، أهمل رجلاً فقيراً، لا أهمية له لقضيته، من حيث الظاهر، ينشد العزاء الروحي، وقد سجل القرآن هذه الغلطة، هذا الانزلاق، معلماً المسلمين من خلال هذه القصة عدم إهمال أي كائن بشري أبداً، وعدم الابتعاد عن الفقراء والمعوزين، بل أهاب بهم خدمتهم ومحبتهم، ولم يكن النبي ﷺ لينسى هذا الدرس، وكان دائماً يدعو الله قائلاً: «اللهم ارزقنا التقى والعفاف والغنى وحب المساكين» (27).

وهكذا فقد كان النبي ﷺ قدوة للمسلمين لا من حيث سلوكه المتميز فحسب بل أيضاً من حيث نقاط الضعف في إنسانيته، التي ذكرها القرآن حتى لا تنسى ضمائر المسلمين أبداً هذه الرسالة عبر الأزمنة، لا يجوز لأحد أبداً أن يدع المصالح الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية تلفته عن الناس الآخرين، عن الاهتمام والاحترام الواجبين لهم، فلا يجوز لشيء أن يجعل الإنسان يتساهل في هذا المبدأ الإيماني من أجل إستراتيجية سياسية ترمي إلى إنقاذ أو حماية جماعة من خطر من الأخطار، إن قلباً صادقاً يقدمه فرد صادق فقير لا حول له ولا قوة أفضل ألف مرة عند الله من قلب إنسان غني يهتم بمصالحه ويكون محور سعي للملاطفة والمجاملة.

وقد كان النبي ﷺ يسعى دائماً لأن يكون قدوة شاهداً على هذه الرسالة، لكن المسلمين، عبر تاريخهم، كثيراً ما نسوا وأهملوا هذه الدعوة في معاملة المعوزين باحترام والحفاظ على كرامتهم، وحتى في حياة النبي ﷺ، تحدث أحد الصحابة، أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي أتينا على ذكره آنفاً، بطريقة شديدة وحازمة منتقداً نقائص بعض المسلمين الذين ينقادون بشكل متزايد إلى السلطة والراحة والثروة، فقد رأى في

ذلك بداية لعكس النظام الروحي، ودليلاً على ابتعاد شديد، والعلامات الأولى لوقوع كوارث جرى التنبؤ بها. ولقد علمنا التاريخ، منذ ذلك الوقت، بما كان يحفل به من أمثلة على التعطش للسلطة والثروة والتساهل بالمبادئ، صدق هذا الحدس، ولا يزال يتردد صدى تحذيرات النبي ﷺ لنا في أذهاننا، حيث خاطب أمته الروحية القادمة عبر القرون: «لكل أمة فتنه، وفتنة أمتي المال» (28).



الفصل السادس

المقاومة والتواضع والنفي

ظل رؤساء العشائر يستهزئون بمحمد ﷺ ويشجعون الآخرين على انتقاده وإهانته، كان يُطلب من الرجل الذي ادعى النبوة أن يأتي بالمعجزات والأدلة المحسوسة، وكان الناس يعترضون على اختيار الله لرجل لا يتمتع بسلطة سياسية، ويمشي في الأسواق دون أي علامة تميزه عن غيره من الرجال، فكانوا يسخرون من الرجل ومزاعمه بقدر ما كانوا يسخرون من الرسالة.

ومع ذلك، وكما رأينا، فقد صمد النبي ﷺ لكل ذلك. وعندما جاء أحد زعماء قريش، وهو عتبة بن ربيعة، ليعرض عليه المال والجاه، كان رد النبي ﷺ قبل كل شيء أن استشهد بالقرآن مطولاً:

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
 عَآيَتَهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مِمَّا
 نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِيْءَاذَانَا وَقُرْءَانًا وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا
 عَمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ
 وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَبَلِّغِ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا
 يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴿قُلْ أَيُّكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِنْ فَوْقَهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (2).

ومضى النبي ﷺ في تلاوته حتى بلغ الآية (38) التي تذكر أولئك الذين يسجدون، وعندما وصل إلى تلك الآية، سجد تعظيماً للواحد الأحد. كان عتبة قد جاء ليعرض عليه الثروة وجاء هذه الدنيا، فأصبح يواجه رجلاً يسجد بدافع من إيمانه بالحي الذي لا يموت ويعبر بذلك عن رفضه الواضح للعرض الذي قدم له للتو، وقد تأثر عتبة تأثراً عظيماً جراء شكل الرسالة القرآنية ومحتواها، وعاد إلى قومه واقترح عليهم عدم معارضة هذه الرسالة، لكنهم كانوا مقتنعين أنه قد سحر جراء عظمة تلك الكلمات ولم يعيروا اهتماماً لنصيحته وواصلوا عمليات الاضطهاد.

الجهاد

أما النبي ﷺ فقد صبر، وكلما هاجمه خصومه كان يتلو القرآن عليهم ليجيبهم ويحمي نفسه ويقاوم، وهذا ما علمه الوحي في هذه الآية، التي كانت المرة الأولى التي وردت فيها كلمة «الجهاد» في القرآن:

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ (3).

أمام مختلف أنواع الضغوط، من أخفها إلى أكثرها عنفاً، تلقى محمد ﷺ آية دلته على طريق المقاومة ووسيلتها التي

سوف يقوم بها - «الجهاد» - إن ما نجده هنا هو المعنى الأول والأساسي لمفهوم الجهاد المشتق من «جاهد» أي «بذل الجهد»، ولكن أيضاً، في هذا السياق، «المقاومة» (أي مقاومة الاضطهاد والقمع). فالله يأمر رسوله بأن يقاوم سوء معاملة قريش له بالاعتماد على النصوص القرآنية التي هي في الواقع سلاحه الروحي والفكري ضد العدوان، فالذين يسخرون ويوجهون الإهانات ويقومون بالإذلال والهجوم والتعذيب والقتل، والذين يطلبون المعجزات والبراهين، يجيبهم النبي ﷺ دائماً بسلاح القرآن ودرعه، وهو الذي يشكل بحد ذاته - كما رأينا - المعجزة والبرهان، فالنصوص القرآنية تفجر القوة الحقيقية في الناس، التي تنطوي على القدرة على مقاومة أعمال الاضطهاد في هذا العالم وتتغلب عليها، لأنها تدعو إلى الحياة التي تتجاوز أوهام هذه الحياة: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (4).

إن جوهر مفهوم الجهاد في سبيل الله محدد كلياً في هذا الاستعمال الأول لتلك الكلمة في سورة «الفرقان». إنه تمييز، من خلال معجزة الوحي الثنائي (الكون والنص القرآني)، لوجود الواحد الأحد، ومقاومة أكاذيب وإرهاب الذين لا تسيرهم سوى الرغبة في حماية مصالحهم وسلطاتهم أو ملذاتهم، إن الموقف الأول الذي يقتضيه هذا هو الترفع:

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١١) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ (5).

وللفرقان أيضاً بعد أخلاقي آخر، كما تدل عليه الآيات السابقة إذ إن ما يميز المؤمن في هذه الحياة لا يقتصر على الإيمان فحسب بل هو أسلوب في الوجود والسلوك، وقد تسلم النبي ﷺ وصحابته بهذه المعرفة في أول الأمر وحاولوا نقل رسالتهم بحرية وكانوا يتجنبون في الوقت نفسه المواجهة. لكن زعماء قريش لم يعجبهم ذلك، وصعدوا أعمال الاضطهاد فيما كان الوحي ينزل المرة تلو المرة بتعاقب سريع، وقد تذرع المسلمون، شأنهم في ذلك شأن النبي ﷺ، بالمقاومة - بالجهد - مذكرين الناس بوجود الله الواحد الأحد وبالحياة بعد هذه الحياة وبيوم الحساب وبضرورة الأعمال الصالحة، وكان القرآن دائماً سلاح بصيرتهم الروحية ودرعهم في وجه الأعمال الوحشية التي كانوا يتعرضون لها.

غير أن هذا الاضطهاد بلغ من الشدة والاستمرار بحيث أصبح هذا الجهاد صعباً في بعض الأحيان، ففي أحد الأيام جاء بعض المسلمين إلى النبي ﷺ بينما كان مستلقياً في ظل الكعبة وسأله: «ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟» فقال النبي ﷺ: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب فما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!» (6).

لذا فقد كان عليهم أن يصبروا ويتحملوا ويثابروا ولا ييأسوا أبداً من الله ومشئئته، كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الربط الصعب بين الثقة بالله والألم، وقد أتاحت معاناة الألم المادي والمعنوي بلوغ مرحلة الإيمان التي يقبل فيها المؤمن الشدائد، والتي يمكن أن يشك المؤمن بنفسه دون الشك بالله، وتأتي قصة عمار رضي الله عنه الشاب لتكون درساً للمسلمين: فقد رأى بأمر عينيه أمه، ثم أباه، يُقتلان لأنهم رفضوا إنكار الله. ثم تعرض عمار رضي الله عنه ذاته للتعذيب بأقسى طريقة، وفي أحد الأيام، بينما كان يُعذب، ولم يعد يستطيع تحمل المزيد من العذاب، أنكر الله ومدح آلهة قريش. فأطلقه معذوبه، لكن شعوراً بالذنب سيطر عليه وأخذ يعذبه ولم يستطع التخلص منه، حيث إنه كان على قناعة بأن إنكاره لا يمكن التكفير عنه. فذهب إلى النبي ﷺ وهو يبكي، وأنبأه بسبب ما يشعر به من بؤس وشقاء وبشكوكة بقيمته ومصيره، فسأله النبي ﷺ عن معتقداته الصحيحة، فأكد له عمار بأنها لم تتغير وأنها ثابتة ومثينة، وأنه لا يجد في نفسه أي شك بإيمانه بالله ومحبه له، فهذا محمد ﷺ من روع عمار وطمأنه، حيث إنه فعل ما بوسعه، فلا حاجة لأن يلوم نفسه. بل نزل الوحي مؤيداً لذلك: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ (7)، وقال لعمار بأنه إذا تعرض ثانية للتعذيب مماثل لا يستطيع تحمله، فإن بإمكانه من أجل إنقاذ حياته أن يقول بفمه ما يكون معذوبه يريدون سماعه، ويثبت على إيمانه بالله وصلواته في قلبه.

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يتفهم الموقفين: موقف الذين لم ينكروا إيمانهم أبداً حتى عندما كلفهم ذلك حياتهم، وموقف الذين تقادوا الموت، عند تعرضهم للتعذيب الذي لا يطاق، بأن أنكروا إيمانهم بأفواههم،

لكنه ظل ثابتاً في قلوبهم وعقولهم، بعد ذلك أصبح العلماء يعتمدون على هذا المثال، بين جملة أمور، في القول بأنه يمكن للمسلمين في حالات بالغة الخطورة تكون فيها حياتهم معرضة للخطر على أيدي قوة ظالمة، أن يقولوا بأفواههم ما يريد معذبهم أن يسمعه منهم، وهذا هو معنى «التقية» (التي تعني عملية التظاهر بشيء بخلاف ما في قلوبهم وعقولهم) وأصبحت جائزة، كما هي هنا في حالة عمّار، ولكن فقط حين يكون الفرد مضطراً للمحافظة على حياته في حالة بالغة الخطورة تتطوي على تعذيب لا يطاق، وسوف نرى أنه في أي موقف آخر، كان المسلمون يقولون الحقيقة، بصرف النظر عن الثمن.

المخاطرة

لم تكن مقاومة قريش موجهة إلى مجرد رجل ورسالة، ففي واقع الأمر، لو أن جميع رسل الله واجهوا الموقف نفسه - المعارضة والحق من جزء كبير من جماعتهم - فإن ذلك يعود إلى أن ما تتضمنه الرسالة التي أتوا بها كانت تتطوي على ثورة جذرية في نظام المجتمع.

يورد القرآن الكلام الذي كان يواجه به الرسل، في عصور مختلفة، عندما انطلقوا لتبليغ الرسالة إلى أقوامهم، كان الرد الأول في معظم الأحيان رفضاً للتغيير والخوف من فقد السيطرة، كما جاء في الرد على موسى وهارون من جانب قوم فرعون: ﴿أَجِئْنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (8). إن فهم هذه العلاقة بالذاكرة والأجداد والعادات مسألة أساسية لفهم كيفية رد

فعل مختلف الأقوام عند مواجهتهم بالتحويلات التي كان لا بد أن تحدث على أثر اعتناق معتقد جديد، وبالتالي، وجوداً جديداً في جسم المجتمع، فرد العقل كان دائماً انعكاسياً وانفعالياً، لأن المخاطرة هي بالهوية والاستقرار اللذين يعتمد عليهما المجتمع المعني، وقد أحدث النبي محمد ﷺ، برسالته والتطور الذي كان يزداد وضوحاً في مجتمعه، ردود الفعل ذاتها باللغة الشدة، الأمر الذي جعل القرشيين، الذين اعتراهم الخوف مما بدا أنه يهدد خصائصهم، يعارضونه بوحشية ودون هوادة.

من البدهي أن قضية السلطة مسألة حاسمة: فجميع الأقوام الذين جاءتهم الرسل كانوا يعتقدون في أول الأمر أن الرسل لم يكونوا يسعون إلا إلى السلطة والجاه، ولم تكن حالة محمد ﷺ تشذ عن هذه القاعدة، فمن البدهي أن الناس ينطلقون من وجهة نظرهم في محاولة تفسير وفهم نوايا الرسل ومقاصدهم، ففي النظام البشري، لا يقوم المرء بالإطاحة بالتقاليد، وبالتالي بنظام اجتماعي وسياسي، ما لم يكن يسعى وراء السلطة، إن منطلق العلاقات الإنسانية يفرض هذا التفسير. وهذا ما يفسر شكوك وصمم الزعماء الذين يواجهون رسالة تتطوي على نتائج صريحة تؤثر على أولئك الزعماء، رغم أن محتواها بحد ذاته أبعد ما يكون عن تلك الاعتبارات.

ودعوة محمد ﷺ إلى الاعتراف بإله واحد، والتخلي عن الأوثان السابقة، والدار الآخرة بعد الحياة الدنيا، وإلى الأخلاق والعدالة، أطلقت ثورة حقيقية في عقول الناس وفي المجتمع على حد سواء، ولم يكن يهم كثيراً، بالنظر لكافة المعطيات، ما إذا كان يسعى وراء السلطة لنفسه أو

لأي طرف آخر؛ إن ما ظل بدهياً بحد ذاته هو أن عكس المنطلقات الذي انطوت عليه رسالته، التي كانت تتوجه إلى الدار الآخرة، قد زلزل الأسس التي تستند إليها السلطة الدنيوية.

وقد رأى المؤمنون الجدد أن الإيمان بإله واحد وإدراك مفهوم الأبدية فضلاً عن التعاليم الأخلاقية هي عناصر تحررهم الروحي والفكري والاجتماعي، وقد كانت نظرة قريش واضحة وفي محلها، فالنتائج التي تتطوي عليها معارضتهم الجذرية لرسالة تحرر جذري كانت بالغة الخطورة وتتطوي على تداعيات جوهرية لمصيرهم، فقد أحسوا، دون أن يكون بإمكانهم دائماً سماع أو فهم، مغزى التأكيد الجوهري على الإيمان بالواحد الأحد، الذي يعبر على الفور عن تغيير صميمي وتحول عام للنظام.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ③ وَلَمْ يُولَدْ ④ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ⑤﴾ (9).

هذه الآية تشير إلى وجود حدود:

﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥﴾ (10).

أُسْئَلَةُ:

حارت قريش فيما يمكن أن تعمله لمنع انتشار رسالة محمد ﷺ. فقرر زعماءؤها إرسال وفد إلى يثرب لسؤال علماء الدين اليهود عن

طبيعة الوحي الجديد وصدقه. وكان يعرف عن يهود يثرب بأنهم يؤمنون بفكرة الإله الواحد، وكثيراً ما كان محمد ﷺ يشير إلى موسى عليه السلام، نبيهم، لذا فهم أفضل من يعبر عن رأي أو حتى من يقترح إستراتيجية لمساعدة قريش.

عندما استشيروا بشأن النبي الجديد، اقترح الحاخامات بأن يسأله المكيون ثلاثة أسئلة ليتبين لهم ما إذا كان ما يقوله حياً في الواقع أو أنه محتال، كان السؤال الأول عن قصة مجموعة من الشبان الذين نفاهم قومهم؛ والثاني عن رحالة عظيم الشأن بلغ أطراف الكون؛ والثالث كان طلباً مباشراً بتعريف الروح، غادر وفد قريش وهم مقتنعون بأن لديهم الوسيلة التي تمكنهم من إيقاع محمد ﷺ في فخ. فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه وطرحوا عليه الأسئلة الثلاثة.

فأجاب على الفور تقريباً: «أخبركم بما سألتهم عنه غداً» (11).

لكن جبريل لم يظهر في اليوم التالي، ولم ينزل وحي على محمد ﷺ. كما أن جبريل لم يأت في اليوم الذي بعده، أو خلال الأربعة عشر يوماً الآتية بعد ذلك شعر زعماء قريش بالارتياح بعد أن تأكدوا بأنهم استطاعوا أخيراً أن يثبتوا نفاق «النبي المزعوم» الذي عجز عن الإجابة عن أسئلة الحاخامات، أما محمد ﷺ، فقد شعر بالحزن، ومع مرور الأيام، كان خوفه يزداد من أن يكون الله قد تخطى عنه: ودون أن يشك في الله، فقد عاد له الشعور بالشك بذاته الذي زادته سخرية خصومه منه، وبعد أسبوعين جاءه الوحي مع الإيضاح:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۚ (٢٤)﴾ (12).

هذه الآيات كانت تنطوي مرة أخرى على عتاب غياب ودرس: فقد ذكرت النبي ﷺ بأن مركزه ومعرفته يعتمدان على ربه، على الله الواحد الأحد الذي له الملك وحده، وأنه يجب ألا ينسى ذلك، هكذا يجب فهم عبارة «إن شاء الله»؛ فهي تعبر عن الحدود، عن شعور بالتواضع من جانب الذي يتصرف وهو يعلم بأن الله وحده هو الذي بيده كل ما يحدث، بما يتجاوز ما باستطاعة المرء قوله أو فعله. وليست هذه الرسالة قدرية بأي حال؛ فهي لا تعني أنه لا يجب على المرء أن يعمل، بل على العكس، بأنه يجب على المرء ألا يتوقف عن العمل وأن يكون دائماً مدركاً في ذهنه وقلبه لحدود القوة البشرية، فللمرة الثانية تعرض النبي ﷺ لعتاب العلي القدير، فمهما واجه المرء من شدائد، فإن قوته وحيثته تتمثلان في أن يظل واعياً لافتقاره للخالق.

ولم تأت الإجابات عن الأسئلة التي وجهت إلى النبي ﷺ إلا بعد مدة من الوقت، وقد كان التأخير ينطوي على تناقض ظاهري.

حيث إنه جاء لتعزيز إيمان المسلمين، وإرباك الذين تحدوا النبي ﷺ: ففجّره المؤقت عن الإجابة ثم الوحي الذي جاء بعد فترة من الوقت برّهناً على أن محمداً ﷺ لم يكن واضع الكتاب الذي كان يتنزل عليه وأنه كان بالفعل يعتمد على مشيئة ربه.

أشارت الإجابة عن السؤال عن الروح مباشرة - بالطريقة نفسها التي تمت تذكرته بها بشأن واجب التواضع - إلى العلم الأسمى للواحد الأحد:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) (13).

أما بشأن القصتين (قصة أهل الكهف وذي القرنين) فقد وردتا أيضاً في السورة (18)، سورة الكهف، كانت القصتان تنطويان على الكثير من المعلومات والتفاصيل التي لم يكن بوسع قريش وحاخامات يثرب توقعها ولم يكن النبي ﷺ يعرف أي شيء عنها قبل نزول الوحي. وقد تضمنت السورة ذاتها قصة موسى عليه السلام الذي انساق في لحظة من النسيان والغفلة إلى القول إنه بالنظر لكونه نبياً فإنه «يعلم». فاخبره الله لاحقاً بأن واجهه بمن هو أكثر علماً منه، وهو الخضر الذي ورد ذكره في القرآن، والذي علمه كيف يفهم علم الله الأسمى، كما علمه الصبر وحكمة التواضع والامتناع عن طرح أكثر مما ينبغي من الأسئلة (14).

فمن تجربة موسى عليه السلام (الذي كان قليل الصبر) إلى تجربة محمد ﷺ (الذي نسي افتقاره إلى الله) فضلاً عن الدرس الذي تم تلقيه لجميع البشر (الذين لم يؤثروا من العلم إلا قليلاً)، كل ذلك يذكر المسلمين بهشاشتهم واحتياجهم إلى الله، مهما كان وضعهم، وهذا الدرس يتجلى في سورة الكهف، بعد ذلك كان النبي ﷺ يهيب بكل المسلمين قراءة هذه السورة كاملة كل يوم جمعة كي يتذكروا، في كل أسبوع، كي لا ينسوا أنفسهم وكي لا ينسوا الله.

الحبشة

ازدادت عمليات الإهانات والاضطهاد مع تتابع نزول الوحي. ولم تعد الآن تقتصر على أضعف المسلمين بل تناولت أيضاً رجالاً ونساءً كان مركزهم من شأنه أن يحميهم، مثل أبي بكر رضي الله عنه. وكان محمد صلى الله عليه وسلم، الذي كان في حماية عمه أبي طالب، موضعاً للاستهزاء والسخرية، لكنه لم يتعرض إلى أذى جسدي، وبعد أن رأى محمد صلى الله عليه وسلم أن الوضع في مكة يزداد سوءاً، اقترح على المسلمين ما يلي: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»⁽¹⁵⁾.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعني ملك الحبشة، النجاشي، النصراني، الذي كان يلقى الاحترام من شعبه ويعدل بينهم⁽¹⁶⁾. فقد أخذ بعض المسلمين يستعدون للسفر وقام أخيراً عدد من الأفراد والأسر بمغادرة مكة سراً مهاجرين الهجرة الأولى: كان مجموعهم مئة شخص، اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين رجلاً ونحو عشرين امرأة.

حدث هذا في عام 615، بعد خمس سنوات من بداية نزول الوحي وستين من بداية الدعوة العامة، كان الوضع قد أصبح بالغ الصعوبة، إلى درجة جعلت هؤلاء المسلمين يخاطرون بالذهاب إلى المنفى بعيداً جداً عن مكة، وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية، ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضي الله عنه، لكنه عاد حين قابل، وهو في طريقه، أحد وجهاء مكة الذي أجاره، كما كان بينهم أم سلمة - رضي الله عنها - التي أصبحت لاحقاً زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم، والتي وصلت إلينا من خلالها مختلف الروايات عن الهجرة إلى الحبشة.

وقد اكتشف زعماء قريش بعد برهة وجيزة أن بعض المسلمين - ومن المفارقات أنهم لم يكونوا الأضعف والأكثر تأثراً - قد غادروا مكة. ولم يطل بهم الأمر حتى عرفوا المكان الذي توجه إليه المسلمون. وكان ثمة أسباب تدعوهم للقلق بشأن تلك الهجرة: إذا استطاعت هذه المجموعة الصغيرة من المسلمين الاستيطان في مكان آخر، فإن ذلك سيغني حتماً أنهم سيشوهون سمعة أهل مكة وربما يثيرون العداء ضدهم أو أنهم قد يقيمون تحالفاً ضدهم مع ملك كانوا يعلمون أنه يشاركهم الإيمان بإله واحد، بعد بعض الوقت من ذهاب المسلمين، قرر زعماء قريش أن يرسلوا إلى النجاشي مبعوثين هما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة - رضي الله عنهما - لإقناعه بعدم منح حمايته لأولئك المهاجرين وبأن يبعدهم إلى مكة، ذهب المبعوثان إلى بلاط النجاشي يحملان الكثير من الهدايا التي كانا يعرفان أن وجهاء الحبشة يقدرونها جداً، فقاما بمقابلة الوجهاء فرداً فرداً وأعطوهم الهدايا وحصلوا على تأكيدات بدعمهما عندما يقدم المبعوثان المكيان طلبهما للملك.

في مواجهة النجاشي

كان عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة يودان لو أن الملك يوافق على إعادة المسلمين دون سماع دفاع المهاجرين، لكن النجاشي رفض قائلًا إن الذين اختاروه ليحميهم لهم الحق في عرض قضيتهم، فدعا إلى اجتماع يحضره المبعوثان من مكة ووفد من المهاجرين المسلمين، واختار هؤلاء جعفر بن أبي طالب عليه السلام، الذي كان يتصف بالحكمة وبالفصاحة ليمثلهم ويجيب عن أسئلة الملك، سألهم الملك عن سبب هجرتهم ولاسيما عن ماهية الرسالة الجديدة التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم. شرح جعفر للملك

المبادئ الأساسية التي نزل بها الوحي والمتضمنة في تعاليم محمد ﷺ وهي: الإيمان بآله واحد ونبذ عبادة الأوثان، والأمر بوصل ذوي القربى وقول الحق ومقاومة الظلم.. إلخ، وأضاف جعفر أن قريشاً كانت تضطهد المسلمين بسبب هذه الرسالة، ولهذا قرروا اللجوء إلى الحبشة بجوار النجاشي الذي اشتهر بأنه حاكم عادل ومتسامح.

سأل الملك جعفراً ﷺ إن كان معه نسخة أو إن كان يستطيع تلاوة نص من آيات الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، أجاب جعفر بالإيجاب وأخذ يتلو بعض الآيات من سورة مريم:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ (١٦)
فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا
بَشَرًا سَوِيًّا ۖ (١٧) قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ (١٨) قَالَ
إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ (١٩) قَالَتْ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۖ (٢١)﴾ (١٧).

تأثر الملك ورجال البلاط بجمال النص الذي تلى عليهم بالعربية، وازداد تأثرهم عندما تمت ترجمته لهم وفهموا أنه يبشر بمعجزة ولادة عيسى. قال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى جاء من مشكاة واحدة» (١٨). والتفت إلى مبعوثي مكة ليرفض طلبهما ويعلمهما أنه لن يسلم المهاجرين المسلمين وأنه سيظل يمنحهم ضيافة اللجوء.

خرج عمرو وعبد الله وهما يستشيطان غيظاً، لكن عمرو سرعان ما قرر أن يعود إلى النجاشي ليخبره عما جاء في هذه الرسالة الجديدة عن عيسى عليه السلام، وهو ما لا يتطابق على الإطلاق مع المعتقدات النصرانية. ففعل ذلك في اليوم التالي، وبعد أن أصغى له الملك أرسل يطلب جعفرأ ووفده وطلب معرفة المزيد عما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام، كان المسلمون يدركون خطورة هذا اللقاء: إن شرح الفروقات بين الدينين قد تجعل النجاشي يعيدهم إلى مكة، ومع ذلك فقد قرروا الالتزام بنص الرسالة وشرح ما جاء فيها بصدق. وعندما سأل النجاشي «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟» أجاب جعفر رضي الله عنه بلا مواربة «نقول ما علمنا نبينا: إنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول». ولم يتم التطرق إلى كونه «ابن الله»، فأجاب النجاشي بأن أمسك بعضا وقال: «إن عيسى بن مريم لا يزيد عما قلتم إلا بمقدار طول هذه العصا»⁽¹⁹⁾. وقد تعجب رجال البلاط من جوابه وعبروا عن ذلك بسعال خفي، لكن النجاشي تجاهلهم وأمر بعودة مبعوثي مكة ومعهما جميع الهدايا التي جاء بها، وجدد ترحابه بالمسلمين وأكد لهم بأنهم سيجدون الحماية والأمن في أرضه.

كانت تلك نكسة كبيرة لأهل مكة، الذين سارعوا إلى الانتقام بتصعيد أذاهم للمسلمين بعد عودة المبعوثين.

أما جعفر رضي الله عنه وجماعته، فقد وجدوا بلداً نصرانياً، رغم كونهم منفيين فيه ولم يكونوا على دين أهله، إلا أنهم لقوا ترحاباً وحماية وتسامحاً فيه. كانوا قد قرروا قول الحق: في أشد اللحظات خطورة من مواجعتهم مع النجاشي، فلم يحاولوا تصادي الإجابة عن السؤال ولا كذبوا بشأن ما

قاله محمد ﷺ عن عيسى بن مريم عليه السلام. فقد غامروا في الواقع بأن تتم إعادتهم إلى مكة وتسليمهم، لكنهم لم يكونوا في وضع عمّار عليه السلام، الذي أنكر دينه جراء التعذيب لإنقاذ حياته، ففي هذه الحالة، وعلى الرغم مما كان ينطوي عليه الموقف من أخطار لم يكن أمامهم مهرب: لقد حافظ المسلمون على معتقداتهم، التي أعرّبوا عنها بصدق وأمانة، لم يكن لديهم خيار آخر سوى قول الحقيقة، وهذا ما فعلوه.

على أنه تجدر الملاحظة بأن جعفرًا عليه السلام بدأ بذكر نقاط التشابه بين الدينين السماويين، وقد بينت الآيات الأولى التي تلاها بوضوح أن مصدر الرسالة هو ذاته وأن المسلمين، في قبولهم للوحي الجديد، إنما يعبدون الإله ذاته الذي يعبدّه النصارى ويعترفون بنبيهم. كان المبعوثان من مكة هما اللذان حاولا إظهار الاختلافات بغية إثارة المشكلات، لكن جعفرًا عليه السلام سارع إلى القيام بجراحة بشرح رسالة دينه بما فيها من خصائص واختلافات، وكان مجرد وجود المسلمين في الحبشة رسالة أخرى للنصارى وهي أن المسلمين يعترفون من حيث الأساس بأن النجاشي صاحب مبادئ وعادل وأن هذا هو ما دعاهم إلى اللجوء في أرضه، لم يكن النجاشي مسلماً، لكنه أدرك تماماً المعنى المزدوج، الصريح والضمني، للرسالة التي جاء بها المسلمون: إلههم هو إله النصارى نفسه، بصرف النظر عن الاختلافات بين نصوصهم ومعتقداتنا؛ أما قيمهم المتعلقة بالاحترام والعدل فهي ذاتها بصرف النظر عن الاختلافات بين نصوص الدينين. وهكذا فقد سمع الملك هؤلاء الذين يؤمنون بدين آخر ورحب بهم.

بعد ذلك اعتنق النجاشي الإسلام وظل على اتصال دائم مع النبي محمد ﷺ. وقد مثله في مناسبة عرس، وصلى النبي ﷺ عليه صلاة الغائب عندما علم بوفاته، مكث معظم المسلمين المنفيين في الحبشة فيها حوالي خمس عشرة سنة، حتى غزوة خيبر في (630)، حين انضموا إلى النبي ﷺ في ذلك الوقت في يثرب، التي كانت قد أصبحت حينئذ المدينة، وعاد آخرون إلى مكة قبل ذلك عند سماعهم لأخبار إيجابية من مكة (مع أن بعضاً منهم عادوا ثانية إلى الحبشة)، لكن ما من أحد منهم لقي أي متاعب في مملكة النجاشي.



الفصل السابع

المحن والارتقاء والآمال

كان الوضع في مكة يزداد سوءاً، وكان من بين أشد خصوم الإسلام شراسة، إلى جانب أبي لهب وأبي جهل، عمر بن الخطاب، وكان هذا الأخير قد اشتهر لكونه قام بضرب امرأة دخلت حديثاً في الإسلام ضرباً عنيفاً.

عمر بن الخطاب

كان قد بلغ السخط مبلغاً كبيراً من عمر جراء ما آلت إليه الأحداث. فقرر أن الشيء الوحيد الذي يمكنه عمله هو أن يقتل النبي ﷺ. فهذه أضمن وسيلة لوضع نهاية لحالة الفوضى والفتنة اللتين فشتا في المجتمع المكي وعرضتا ذلك المجتمع برمته للخطر.

خرج من بيته، وسيفه بيده، يبحث عن محمد ﷺ. في طريقه، لقي نعيم بن عبد الله ﷺ، الذي كان قد اعتنق الإسلام سراً، فسأله نعيم عن سر غضبه وأخبره عمر عن عزمه على قتل النبي ﷺ. ففكر نعيم بسرعة عن وسيلة لصرفه عن تنفيذ خطته: فنصحه بأن يرجع إلى أهل بيته قبل التصدي لمحمد ﷺ. فأخبره أن أخته فاطمة وزوجها سعيد - رضي الله عنهما - قد اعتنقا الإسلام، ذهل عمر وغضب وغير خطته وانطلق مباشرة إلى بيت أخته.

كانت أخته وزوجها يتلوان القرآن مع خباب رضي الله عنه، وهو من شبان الصحابة، عندما سمعوا شخصاً يقترب من منزلهم، توقف خباب رضي الله عنه عن التلاوة واختبأ، لكن عمر كان قد سمع صوت التلاوة داخل البيت، فسألها ببرود عما كانا يتلوانه، فأنكرا ذلك، لكن عمر أصر على أنه سمعهما بكل تأكيد يتلوان نصاً من النصوص، فرفضاً مناقشة الموضوع، الأمر الذي جعل عمر يستشيط غضباً، فانقض على ختته يريد ضربه وعندما حاولت أخته التدخل، لطمها وأسأل دمها، فكان لمنظر الدم على وجه أخته أثر فوري فتوقف عمر. في تلك اللحظة، قالت أخته بقوة: «نعم، لقد أسلمنا ونؤمن بالله ورسوله. فاصنع ما بدا لك»⁽¹⁾. ذهل عمر؛ كان يتنازعه الندم، لكونه أذى أخته، والحيرة بشأن الأنباء التي بلغته للتو. فطلب من أخته إعطاءه ما كانت تقرأه عند وصوله، فطلبت أخته منه أن يتطهر قبل ذلك، وقد شعر عمر بالتعقل لكنه ظل منزعجاً واستجاب لطلب أخته وتوضاً ثم أخذ يقرأ:

﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ الْقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾﴾⁽²⁾.

كانت هذه الآيات الأولى التي قرأها ثم تابع قراءة الآيات التي كانت سرداً لدعوة الله لموسى عليه السلام في جبل سيناء، إلى أن وصل إلى الآية:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) .⁽³⁾

توقف عمر عن القراءة وأعرب عن إعجابه بجمال ونبل تلك الكلمات. عندها تشجع خباب من موقف عمر الإيجابي على ما يبدو، فخرج من المخبأ وأخبره بأنه سمع النبي ﷺ يدعو الله بأن ينصر المسلمين إما بأبي الحكم أو بعمر بن الخطاب⁽⁴⁾. سأله عمر عن مكان محمد ﷺ، وعندما أخبره بأنه في دار الأرقم ذهب إلى هناك. ولما وصل إلى الباب، شعر الذين كانوا في البيت بالخوف لأن عمر كان لا يزال معه السيف في حزامه. لكن النبي ﷺ قال لهم بأن يدخلوه وقام عمر على الفور بالإعلان عن عزمه على دخول الإسلام. فهتف الرسول: «الله أكبر!» ورأى في اعتناق عمر للإسلام استجابة لدعوته.

كان النبي ﷺ يعرف أنه لا يستطيع السيطرة على القلوب، ففي مواجهة الاضطهاد، وفيما كان يعاني من صعوبات جمة، توجه إلى الله آملاً أن يهدي الله أحد الرجلين اللذين كان يعرف أن فيهما الصفات البشرية فضلاً عن القوى اللازمة لعكس وضع الأشياء، وكان النبي ﷺ يعرف بالضبط أن الله وحده هو الذي بيده هداية القلوب، فبعض الأفراد يحتاجون إلى وقت طويل قبل أن يهتدوا، لا بد لهم من سنوات من التساؤل والشك، والتقدم والتراجع، بينما كان آخرون يهتدون على الفور، بعد قراءة نص أو استجابة لبادرة أو سلوك معينين، وهذا ما لا يمكن تفسيره. ولم تكن الهداية التي استغرقت أطول الوقت هي الأكثر متانة بالضرورة، والعكس ليس صحيحاً أيضاً؛ فعندما يتعلق الأمر بالهداية وتقلب القلوب

والإيمان والحب لا يوجد منطق وكل ما يبقى هو القوة الإلهية الخارقة، كان عمر رضي الله عنه قد خرج من بيته وهو مصمم على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، بعد أن كان قد أعماه إنكاره للإله الواحد، وها هو، بعد بضع ساعات، قد تغير وتحول جراء هداية حركتها آيات قرآنية والمعنى الإلهي، وكان من شأنه أن يصبح واحداً من أشد المسلمين إخلاصاً للرجل الذي كان يروم قتله. ما كان لأحد من المسلمين أن يتصور بأن يهتدي عمر رضي الله عنه إلى رسالة الإسلام، التي كان يعبر عن كراهيته لها بقوته المعهودة، لقد كان الانقلاب الذي طرأ على قلبه آية، تنطوي على درس مزدوج: أنه ما من شيء يعجز عنه الله، وأنه يجب عدم إطلاق الأحكام النهائية على أي شيء أو أي شخص. كانت هذه تذكرة جديدة بالحاجة إلى التواضع في جميع الظروف: فبالنسبة لكائن بشري، إن تذكر قدرة الله اللامتناهية، يجب أن يعني شكاً صحيحاً بذاته هو وتعليق إصدار الأحكام بالنسبة للآخرين، وهكذا فكلما ازداد النبي صلى الله عليه وسلم قرباً من الله - حيث كان كل يوم أكثر قدوة لصحابته وللأبدية - كان يتحقق فيه التواضع الذي كان يتجلى في وجوده ومعرفته وحكمته.

كان عمر رضي الله عنه، بما أوتي من جرأة وشجاعة، قد قرر الإعلان عن دخوله في الإسلام، فذهب على الفور إلى أبي جهل لإخباره عن إسلامه، واقترح على النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصلوا علناً عند الكعبة⁽⁵⁾. وقد انطوى هذا على مخاطر بالطبع؛ لكن الأمر كان يتعلق بأن يظهروا لزعماء عشائر قريش أن للمسلمين وجوداً بينهم وأنهم مصممون على المضي في رسالتهم. وقد دخل عمر وحمزة - رضي الله عنهما - المعروفان بقوة الشكيمة الكعبة وصليا قبل بقية المسلمين الذين صلوا بعدهم جماعة دون أن يجرؤ أحد على منعهم.

النفي

على أن الأمور قد بلغت حداً لا يمكن السكوت عليه. فكان التوتريزاد يوماً بعد يوم، وشعر زعماء قريش الذين اجتمعوا للتشاور في طريقة لوضع حد لهذا التوسع البطيء، بأنه أصبح من المحتم عليهم اتخاذ تدابير أكثر جذرية، كان أوائل الذين دخلوا في الإسلام ينتمون إلى جميع القبائل، الأمر الذي جعل من المتعذر عليهم اللجوء إلى إستراتيجية تقوم على أساس التحالفات التقليدية، فبعد مناقشات طويلة وحامية الوطيس، التي كانت بذاتها تقسم العشائر من الداخل، قرروا محاصرة جميع بني هاشم، وهم عشيرة محمد ﷺ، وفرض مقاطعة تامة ضد العشيرة وأفرادها.

ثم تعاهد نحو أربعين من زعماء قريش ووقعوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم، وقرر أبو لهب، الذي كان ينتمي إلى عشيرة هاشم، أن يتبرأ من عشيرته ويدعم المقاطعة، مخالفاً بذلك أعراف الشرف التقليدية، أما أبو طالب فقد اتخذ موقفاً معاكساً وظل يدعم ابن أخيه، الأمر الذي أجبر قريش على أن تشمل بحكم الواقع عشيرة المطلب في المقاطعة، كان هذا قراراً جذرياً، إذ إنه كان يعني ضمناً تجنب أي اتصال بأفراد العشيرة، فلن يعودوا إلى الزواج من بناتهم وأبنائهم ولا الاتجار معهم أو إقامة أي اتصال معهم، إلى ما هنالك، وكان من المفترض أن تكون المقاطعة شاملة وأن تستمر طالما ظلت العشيرتان تسمحان بمواصلة محمد ﷺ الدعوة إلى رسالته، كانوا يريدون أن ينهي مهمته ولا يتحدث أبداً عن الله الواحد الأحد.

قررت عشيرتا بني هاشم والمطلب، حرصاً على أمنهما، الانتقال معاً إلى منطقة واحدة في وادي مكة، ومع أن المقاطعة لم تكن كلية - حيث كان الأقارب يوصلون الطعام والبضائع خفية إلى بني هاشم - إلا أن الوضع أصبح خطيراً، وازداد عدد الذين أصبحوا يعانون من المرض والجوع من بينهم، ودامت المقاطعة أكثر من ثلاث سنوات وأضعفت العشيرتين من الناحية الاقتصادية، فقد خسر أبو بكر رضي الله عنه معظم ثروته نتيجة المقاطعة وأصبحت الضغوط الاجتماعية والنفسية لا تحتمل.

كان يوجد من بين أفراد قريش من يرون أن هذه المقاطعة غير ضرورية، إن لم تكن عديمة الفائدة، وكان بعضهم بالطبع مرتبطين بالعشيرة بروابط القرابة، التي يتعذر نسيانها أو التكر لها، وجرت محاولات عديدة لوضع حد للمقاطعة خلال تلك السنوات الثلاث، لكنها لم تنجح أبداً لأن عدداً من الشخصيات الأساسية، مثل أبي لهب وأبي جهل يرفضون مناقشة الموضوع، وأخيراً حدث التغيير بمبادرة من بضعة أفراد يبحثون عن الحلفاء في كل من العشيرتين، فبينما كان الناس متجمعين قرب الكعبة، خاطب أحدهم الآخرين، وأعرب عن معارضته للمقاطعة المفروضة على بني هاشم. ثم انضم إليه رجل من بين الجماعة، وتلاه آخر، ثم شخص رابع، وحاول أبو جهل التدخل، لكن المجتمعين الذين كان الكثيرون منهم يرون ذلك الرأي لكنهم لم يكونوا يجروؤن على الكلام، أجمعوا على معارضة المقاطعة، وذهب أحد أفراد المجموعة التي بادرت في القيام بهذا التمرد إلى داخل الكعبة، وتناول الصحيفة التي تضمنت قرار

المقاطعة ومزقتها، وشعر المتشددون أنه لا فائدة من المقاومة فتم بذلك رفع الحصار، وكان الغوث ملموساً لدى العشيرتين المنفيتين، حيث إن الوضع كان قد أصبح لا يحتمل.

عام الحزن

تحسن وضع المسلمين عدة أشهر بعد انتهاء المقاطعة. فعادوا إلى إقامة علاقات من الصداقة والعمل مع القرشيين، وواصل النبي ﷺ نشر رسالته وأصبح الظهور العلني الذي استهله عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقعاً يومياً في مكة، مع أن الإهانات والاضطهاد لم تتوقف.

لكن سرعان ما تغيرت الأوضاع تغيراً مثيراً. فقد توفيت زوجة النبي ﷺ خديجة - رضي الله عنها - بعد فترة وجيزة من رفع المقاطعة، كانت خديجة زوجة للنبي ﷺ ورفيقته في الدين وأوثق الداعمين له طيلة خمس وعشرين سنة، وتوفاها الله بعد تسع سنوات من بداية الدعوة، في (619م). حزن النبي ﷺ حزناً عميقاً لوفاتها: كان قد تلقى في مرحلة مبكرة، من الملك جبريل، نبأ اختيار خديجة - رضي الله عنها - وكان يعرف أن وجود خديجة - رضي الله عنها - إلى جانبه كان من آيات حماية ومحبة الله له، ففي ضوء وجودها والدور الذي قامت به في حياته، يمكن تقدير المعاني المتعددة الممكنة لآية سيتم تنزيلها بعد مدة طويلة جاء فيها وصف العلاقة بين الزوج وزوجته: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾⁽⁶⁾. لقد كانت الدرع الذي يحمي (عاطفياً ومادياً)، ويخفي (حالات الضعف والشكوك فضلاً عن الثروة)، ويوفر الدفء والقوة والمركز والعزة والتواضع.

ولم يمض وقت طويل على وفاتها حتى مرض أيضا أبو طالب، الذي كان يمنع النبي ﷺ حتى ذلك الوقت من قريش، وقد زاره النبي ﷺ وهو على فراش الموت، وأكد أبو طالب أنه كان سعيداً في حماية ابن أخيه، الذي كان دائماً متواضعاً وعادلاً، ودعاه محمد ﷺ إلى النطق بالشهادة قبل الرحيل، لكي يشفع له فيها عند الله، لكن أبا طالب الذي كان حريصاً على مفاهيم الشرف لدى العشيرة، قال إنه يخشى أن تظن قريش بأنه نطق بالشهادة خوفاً من الموت، ولم يكن هنالك وقت لبحث الموضوع أكثر من ذلك: فقد توفى أبو طالب والنبي ﷺ إلى جانبه، فهذا الرجل، الذي قام بشهامة وشجاعة بمنح الشاب حمايته، وحبّه واحترامه، لم يدخل في الإسلام، وكان محمد ﷺ يحبه، ويحترمه، لذا فقد كان حزنه شديداً وعميقاً. عن هذا الحزن وانعدام الحول والقوة، نزلت آية بشأن هذا الحدث لتقرر درساً خالداً بشأن أوضاع القلوب وأسرارها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

في غضون بضعة شهور، بدا أن النبي ﷺ أصبح عرضة للأذى أكثر من ذي قبل: لقد فقد الشخص الذي منحه الحب والشخص الذي منحه الحماية. على أنه، رغم حزنه، كان عليه أن يتصرف بسرعة ويجد الوسيلة لحماية جماعة المسلمين الذي ظلوا مقيمين في مكة، فقرر محمد ﷺ البحث عن الدعم خارج المدينة.

الطائف، والرقيق

قصد النبي ﷺ بلدة الطائف وتحدث إلى زعماء قبيلة ثقيف، على أمل أن يستجيبوا لرسالة الإسلام ويوافقوا على حماية المسلمين من أعدائهم.

لكنه استقبل استقبالاً في غاية البرود، وسخر الزعماء من قوله بأنه نبي. فقد سألوا كيف يسمح الله لرسوله أن يطلب الدعم من قبائل غريبة؟ ولكنهم لم يكتفوا برفض مناقشة المسألة بل إنهم أغروا الناس به: ف فيما كان يغادرهم كانت الإهانات تلاحقه وكان الصبية يقذفونه بالحجارة. وتجمع الكثير من الناس وأخذوا يسخرون منه وهو يمر بهم، وأخيراً لجأ إلى بستان هرباً من الذين كانوا يلاحقونه. وبعد أن بقي وحيداً ولم يجد حماية من البشر، توجه إلى الواحد الأحد وأخذ يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى غريب يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، لكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر هذه الدنيا والآخرة من أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك، ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (8).

لقد توجه إلى الواحد الأحد الذي يحميه والذي يتوكل عليه عندما سُدت في وجهه السبل، لم تكن الأسئلة التي طرحها تعبر عن شك بشأن بعثته، لكنها أعربت بوضوح عن عجزه كبشر وعن جهله بمقاصد الله، في تلك اللحظة بالذات، وبعيداً عن بقية الناس، في وحدة إيمانه وثقته بالرحمن الرحيم، سلم أمره كلياً لله، وهذا يعني أن هذا الدعاء يكشف عن كل الثقة والاطمئنان اللذين استقاها محمد ﷺ من صلته بربه الأقرب إليه من حبل الوريد، هذا الدعاء، الذي اشتهر بين المسلمين، يفصح عن عجز

البشرية وعن قوة الرسول الروحية الخارقة، لقد كان يعرف، رغم ما بدا من أنه وحيد ولا نصير له، أنه لم يكن وحيداً.

كان صاحباً البستان قد شاهداً محمداً ﷺ عن بُعد عند دخوله البستان، وشاهداه وهو يرفع يديه ويدعو الله. فأرسلا عبدهما عداساً، وهو شاب نصراني، ليأخذ له عنقوداً من العنب، وعندما أعطاه عداس العنب، سمعه يقول، (بسم الله)، (أتوكل على الله). أصيب عداس بدهشة شديدة وسأل عن هوية هذا الرجل، الذي قال كلمات لم يكن -وهو النصراني- قد سمع أحداً من الوثنيين يتفوه بها، وسأله محمد ﷺ عن بلده فأجابه عداس بأنه من نينوى، فقال النبي ﷺ: «هذا بلد يونس ابن متى». فذهل الشاب وتعجب من استطاعة هذا الرجل معرفة ذلك، وبعد أن أخبر عداس محمداً ﷺ بأنه نصراني، سأل عداس محمداً ﷺ بدوره عما يكون، وكيف حصل على تلك المعلومات، فقال له النبي ﷺ: «إن يونس أخي، فهو نبي وأنا نبي»⁽⁹⁾.

حدّق عداس في وجهه قليلاً ثم قبل رأسه ويديه وقدميه، فأثار ذلك حنق سيديّه، فعندما عاد إليهما قال لهما إن ما يعرفه هذا الرجل لا يعرفه إلا نبي. اعتنق عداس الإسلام على الفور، بعد مناقشة استغرقت بضع دقائق. كان ملك الحبشة النصراني قد اكتشف على الفور الصلة بين الرسالتين، والآن فقد شاركه عبد شاب، نصراني أيضاً، في حديثه، وهكذا فقد لقي محمد ﷺ في طريقه مرتين، وهو يعاني من الحزن والعزلة، نصارى أولوه الثقة والاحترام والمأوى: أحدهما ملك رحب بالمسلمين ومنحهم الأمن، والثاني عبد خدم نبيهم عندما رفضه الجميع وأنكروا رسالته.

ثم انطلق النبي ﷺ عائداً إلى مكة، في طريقه لقي فارساً وطلب إليه أن يسأل أحد وجهاء مكة الذي كان يمت إلى الفارس بصلة القرابة، إن كان يوافق على أن يجير محمداً ﷺ قبل الفارس لكن وجيه مكة رفض، وكذلك رفض زعيم آخر كان محمداً ﷺ يسعى إلى نيل حمايته. ولم يكن النبي ﷺ يرغب في دخول مكة في تلك الظروف ولجأ إلى كهف حراء، حيث نزل عليه الوحي في المرة الأولى، وأخيراً أجاره رجل ثالث واسمه مطعم وهو أحد زعماء عشيرة نوفل ووافق على حمايته وحيّاه عند الكعبة لإشهار حمايته له.

الإسراء

كان النبي ﷺ يحب الذهاب إلى الكعبة ليلاً، كان يقف هناك ويصلي ساعات طويلاً، وفي إحدى الأمسيات، شعر فجأة بتعب شديد واستغرق في النوم (10).

قال محمد ﷺ بعد ذلك أن جبريل أتاه وهزمه مرتين ليوقطه، لكن محمداً ﷺ ظل نائماً، وفي المرة الثالثة التي هزمه جبريل فيها آفاق محمد ﷺ وقاده جبريل إلى باب المسجد، حيث كان حيوان أبيض (بين البغل والحمار، لكن كان له أجنحة) ينتظرهما، فركب ذلك الحيوان، الذي دعي بالبراق وانطلق مع جبريل إلى القدس، هناك قابل محمد ﷺ مجموعة من الأنبياء الذين سبقوه (إبراهيم، وموسى وغيرهما) وصلى بهم عند موقع المعبد، بعد الصلاة، رُفِعَ محمد ﷺ مع جبريل إلى ما يتجاوز المكان والزمان، وفي طريقه، عبر السماوات السبع، قابل ثانية

مختلف الأنبياء، ونفذت رؤيته وجمال تلك الآفاق إلى صميم كيانه. وأخيراً وصل إلى سِدرة المنتهى، وهناك تلقى النبي ﷺ فرض الصلوات الخمس اليومية والآية التي وضعت عناصر العقيدة الإسلامية (11):

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾ (12).

وعاد جبريل والبراق بمحمد ﷺ إلى القدس ومن هناك إلى مكة، وفي طريق عودته شاهد بعض القوافل المتوجهة إلى مكة أيضاً، وكان الوقت لا يزال ليلاً عندما بلغا جوار الكعبة فغادر جبريل والبراق وتوجه النبي ﷺ إلى بيت أم هاني - رضي الله عنها - وهي من أخلص صحابته، فقص عليها ما حدث له، وأشارت عليه بأن لا يحدث أحداً بذلك، وهو ما رفضه محمد ﷺ وقد أورد القرآن فيما بعد هذه التجربة في موضعين مختلفين، أحدهما في سورة الإسراء التي أشارت مباشرة إلى الحدث:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَرِهِ مِنْ ءَايِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ (13).

كما وردت أيضاً في سورة النجم:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ۝﴾

أَوَ أَدْنَى ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۖ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ
 ۙ أَفَتُمْنُونَهُ ۚ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ
 الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۖ مَا
 زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۖ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ (14).

أثار الإسراء والمعراج العديد من التعليقات، عندما سرد النبي ﷺ الوقائع، ولاحقاً لدى علماء المسلمين، فعندما ذهب محمد ﷺ إلى الكعبة وحدث عن تجربته، أطلق ذلك سيلاً سريعاً من السخرية والاستهزاء والنقد، فقد رأت قريش أنه أصبح لديها أخيراً برهان على أن هذا النبي المزعوم كان مجنوناً في حقيقة الأمر؛ لأنه تجرأ على الزعم بأنه قطع في ليلة واحدة السفر إلى مدينة القدس (التي تحتاج بحد ذاتها إلى عدة أسابيع) وأنه، علاوة على ذلك، فقد عرج إلى الله الواحد الأحد، فهذا جنون واضح.

كانت تجربة ليلة الإسراء، التي تحدثت عنها الروايات الكلاسيكية عن حياة النبي ﷺ بوصفها هبة من الله وتثبيتاً للرسول المصطفى، اختباراً حقيقياً لمحمد ﷺ ومن حوله، فقد رسمت الحدود بين أولئك المؤمنين الذين كان إيمانهم يتجلى في ثقتهم بالنبي ﷺ ورسالته، والآخرين، الذين ذهلوا جراء كون تلك القصة أبعد ما تكون عن الاحتمال، وقد سارع وفد من قريش إلى أبي بكر رضي الله عنه يسأله عن صديقه المجنون الذي فقد عقله، لكن إجابته الفورية والمباشرة أثارت دهشتهم: «لئن كان قال ذلك فقد صدق!» لقد كان إيمان أبي بكر رضي الله عنه وثقته على درجة من القوة

والثبات بحيث إنه لم يتأثر بما قالوه ولو لثانية واحدة، وبعدها ذهب يسأل النبي ﷺ الذي أكد له الوقائع فكان أن قال أبو بكر رضي الله عنه: «إني أصدقك فأنت تقول الحق دائماً» (15). منذ ذلك اليوم أطلق النبي ﷺ على أبي بكر لقب «الصديق».

لقد حدثت واقعة الإسراء في وقت كان فيه المسلمون يعانون من وضع في غاية الصعوبة، وقد جاء في الأثر أن بضعة من المسلمين ارتدوا عن الإسلام، لكن الغالبية العظمى صدقوا محمداً ﷺ. وبعد بضعة أسابيع، أكدت الوقائع بعض عناصر روايته، مثل وصول القافلة التي كان قد تحدث عنها (حيث إنه رآها في طريق العودة) ووصفها وصفاً دقيقاً. بهذا الإيمان القوي من جانب جماعة المسلمين، استطاعوا مواجهة الشدائد التي كانت تنتظرهم لاحقاً، فمنذ ذلك الوقت أصبح عمر ابن الخطاب وأبو بكر - رضي الله عنهما - يحتلان مركز الطليعة لهذه القوة الروحية.

تساءل العلماء المسلمون، منذ البداية، عما إذا كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد، على أن هذا الموضوع ليس أساسياً إذا ما نظرنا إلى الدروس التي يمكن استقاؤها من هذه التجربة الخارقة التي تعرض لها النبي ﷺ. هناك بالطبع، قبل كل شيء مركزية مدينة القدس: في ذلك الوقت كان النبي ﷺ يصلي مستقبلاً المدينة المقدسة (القبلة الأولى للصلاة) وقد صلى بالأنبياء عند موقع المعبد في ليلة الإسراء، وهكذا فإن القدس تبدو في صميم تجربة النبي ﷺ وتعاليمه بوصفها رمزاً مزدوجاً، لكل من المركزية (اتجاه القبلة) والعالمية (الصلاة بجميع الأنبياء). وقد

تغيرت القبلة لاحقاً في المدينة - من القدس إلى الكعبة - وذلك لتمييز الإسلام عن اليهودية، لكن هذا لم يقلل بحال من الأحوال مكانة القدس، وقد أقامت الإشارة في الآية آفة الذكر إلى «المسجد الحرام» (الكعبة، في مكة) و«المسجد الأقصى» (في القدس) صلة روحية ومقدسة بين المدينتين.

أما الدرس الآخر فله جوهر روحي صرف: فقد كان الوحي برمته ينزل على محمد ﷺ طيلة رسالته الأرضية، باستثناء، كما رأينا، الآيات التي أرست أسس الإيمان الأساسية وفريضة الصلاة، فقد عُرج بالنبى ﷺ إلى السماء ليتلقى الدروس التي كانت ستصبح أساس تعاليم الإسلام وطقوسه، أي العقيدة والعبادة، التي تقتضي من المؤمنين قبول شكلها وجوهرها⁽¹⁶⁾. فخلافًا لمجال الشؤون الاجتماعية (أي المعاملات)، التي تنطوي على التوسط المبدع لفكر الناس وذكائهم، فإن العقلانية البشرية هنا تخضع، باسم الإيمان وكتطبيق لمبدأ التواضع لله، لأمر الوحي: لقد فرض الله واجبات ومعايير يتعين على الفكر أن يصفي إليها ويطبّقها وعلى القلب أن يحبها، فبعد أن عُرج بالنبى ﷺ لتلقي الأمر بفريضة الصلاة، بين النبي ﷺ من التجربة التي مرّ بها ما يجب أن تكون الصلاة عليه في جوهرها: فهي تذكرة بالعلي الأعلى وعروج إليه، خمس مرات في اليوم، بغية الانصراف عن الذات، وعن العالم، وعن الأوهام، فالمرّاج، إذاً هو أكثر من مجرد النموذج الأصلي للتجربة الروحية، فهو حافل بالمعنى العميق للصلاة، التي تمكّننا، من خلال الكلمة الأزلية، من تحرير وعينا من الأمور الطارئة للزمان والمكان، وفهم معنى الحياة والحياة فهماً كاملاً.

إلى المنفى

الزمن هو عام (620 م)، أي بعد سنة من وفاة زوجة محمد ﷺ، خديجة - رضي الله عنها - وعمه أبي طالب، وكان زمن الحج السنوي إلى الكعبة وموسم سوق مكة السنوية يقترب، وكان محمد ﷺ لا يزال ينشر رسالته في جو من الرفض والاستبعاد والاضطهاد وكان نحو مئة من المسلمين يعيشون في حماية الحبشة، لكن لم يكن يلوح في الأفق حل للمسلمين الذين يعيشون في مكة.

وبدأ الحجاج القادمون من جميع مناطق الجزيرة يصلون إلى منى، حيث يمكثون فيها طيلة مدة الموسم، وكان محمد ﷺ يذهب إلى ذلك المكان ويدعو إلى دينه النساء والرجال الذين كانوا قد سمعوا به وهم في أماكنهم لكنهم لم يكونوا يعرفون مضمونه على وجه التحديد. ولم يكن دائماً يلقي استجابة إيجابية.

وفي العقبة، ليس بعيداً عن منى، قابل النبي ﷺ جماعة من أهل يثرب كانوا ينتمون إلى قبيلة الخزرج، هي إحدى القبيلتين الكبيرتين المتناحرتين في يثرب (والثانية هي قبيلة الأوس)، وأخذ يعرض عليهم رسالته، وكانوا قد سبق لهم أن سمعوا عن الرسالة من القبائل اليهودية التي كانت تعيش في مدينتهم، ويرغبون في معرفة المزيد عنها.

فاستمعوا إلى النبي ﷺ وبعد ذلك قبلوا رسالة الإسلام؛ ووعدوا بإخبار أفراد قبيلتهم بشأن جوهر الرسالة وبالبقاء على اتصال دائم مع النبي ﷺ⁽¹⁷⁾. ثم عادوا إلى مدينتهم وأخذوا يبشرون بالرسالة فيها.

وفي مكة، كان عدد الذين يدخلون في الإسلام يتزايد وواصل النبي ﷺ نشر دعوته، وفيما يخص حياته الشخصية، أشار عليه الكثيرون بأن يتزوج ثانية، لكن النبي ﷺ لم يتابع الموضوع رغم الاقتراحات. لكنه كان قد رأى في المنام رؤيتين تضمنتا عرض عائشة صغيرة السن، وهي ابنة أبي بكر رضي الله عنه، والتي كانت في ذلك الوقت في السادسة من العمر، ليتزوجها. وعندما أشارت عليه خولة، التي تولت رعاية احتياجات النبي ﷺ منذ وفاة خديجة - رضي الله عنها - أن يتزوج ثانية واقترحت عليه اسمين: سودة، وهي أرملة في الثلاثينيات من العمر كانت قد عادت مؤخراً من الحبشة، وعائشة، ابنة أبي بكر رضي الله عنه - وجد محمد ﷺ في هذه المصادفة العجيبة دليلاً على صدق الرؤيتين، وطلب إلى خولة أن تفعل اللازم للتأكد من أن الزواج من الاثنين ممكن، كان تعدد الزوجات مألوف عند العرب في ذلك الوقت، وكان وضع النبي ﷺ هو الشاذ عن القاعدة، إذ إنه ظل متزوجاً من واحدة طيلة خمس وعشرين سنة، كان الزواج من سودة سهل التحقيق، فقد أجابت سودة على الفور مرحبة بعرض الزواج وتزوجا بعد بضعة شهور، أما عائشة - رضي الله عنها - فقد كان أبوها قد وعد، حسب التقاليد العربية، بتزويجها من ابن مطعم، وكان عليه أن يتفاوض مع مطعم من أجل إلغاء الارتباط، بعد ذلك أصبحت عائشة - رضي الله عنها - رسمياً زوجة محمد ﷺ الثانية، وإن كان الزواج لم يتم إلا بعد عدة سنوات.

بعد سنة، كان الحجاج والتجار يندفعون أفواجا إلى مكة من أجل احتفالات 621، وتم ترتيب اجتماع ثان عند العقبة بين النبي ﷺ ووفد يثرب الذي أتى للإبلاغ عن تطور الوضع في مدينتهم، وقد شارك في

الاجتماع عشرون فرداً من يثرب، اثنان منهم ينتمون إلى عشيرة الأوس: فقد عاهدوا النبي ﷺ على الولاء، مؤكدين أنهم لن يعبدوا سوى الإله الواحد، دون غيره، وأنهم سوف يلتزمون بأوامر الإسلام ونواهيها، فكانوا يشكلون الجماعة الإسلامية الأولى.

وأرسل محمد ﷺ معهم أحد الصحابة، مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي كان قد عاد للتو من الحبشة والذي اشتهر بالهدوء والحكمة وجمال تلاوته للقرآن.

عندما رجع الوفد إلى يثرب دأبوا على نشر الرسالة، كان مصعب رضي الله عنه يعلمهم أصول الإسلام ويتلو عليهم القرآن ويحجب عن أسئلتهم. ورغم الانقسامات القديمة التي كانت لا تزال حادة بين الأوس والخزرج، فقد دخل أفراد القبيلتين في الدين الجديد وأدركوا أن خصوماتهم السابقة أصبحت غير ذات معنى: فقد وحدتهم رسالة الأخوة التي جاء بها الإسلام، على أن زعماء العشائر ظلوا مترددين في اعتناق الإسلام. ولم يكن مصعب رضي الله عنه يتأثر بمهاجمتهم ولا بموقفهم العدائي، بل كان دائماً يقول «أو تجلسون وتسمعون، فإن رضيتم أمراً قبلتموه، وإن كرهتموه فكفوا عنه ما تكرهون»⁽¹⁸⁾. وكانت النتيجة أن ازداد عدد الذين دخلوا في الإسلام، حتى من بين الزعماء.

في حج السنة القادمة اجتمع النبي ﷺ بوفد مهم من مسلمي يثرب، كان يضم ثلاثة وسبعين شخصاً، من بينهم امرأتان. وكانوا من الأوس والخزرج وقدموا ليبشروا النبي ﷺ بانضمامهم إلى الإسلام والتزامهم به. وبعد بعض المناقشات بشأن مستقبل علاقاتهم، أبرموا عهداً ثانياً نص

على أن يقوم مسلموا يثرب بحمايته هو وبقية المسلمين من نساء وأطفال مكة المسلمين، هذه البيعة الثانية التي نصت على منح اللجوء والحماية وتعهد مسلمي يثرب بمساندة إخوانهم المكيين، فتح أمام النبي ﷺ المجال لمستقبل واعد، فمنذ ذلك الوقت، أخذ محمد ﷺ يشجع المسلمين على الهجرة إلى يثرب خلسة، بينما بقي أقرب أصحابه إلى جانبه في مكة.

مع غير المسلمين

كان محمد ﷺ يحتفظ دائماً بعلاقات قوية مع أفراد مختلف العشائر ومع أهله الذين لم يعتنقوا الإسلام، والمثال على ذلك عمه أبو طالب الذي كان يحبه وظل بقربه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وبقي عمه الآخر، عباس، ملازماً للنبي ﷺ رغم أنه لم يكن قد اعتنق الإسلام بعد، وكان محمد ﷺ يثق به ثقة كبيرة، ولم يكن يتردد في أن يُسرَّ إليه أو يشركه في الاجتماعات الخاصة التي تتعلق بمستقبل الجماعة (وقد حضر عباس لاحقاً بيعة العقبة الثانية، وكان النبي ﷺ يُسرُّ إليه بالاستعدادات بلغة السرية المتعلقة بهجرته إلى يثرب). ولم يكن بقاءه على الوثنية يمنع النبي ﷺ من إظهار عميق احترامه له وثقته الكبيرة في الحالات التي كانت حياته معرضة فيها للخطر.

لقد كان هذا الموقف من الثقة هو الذي مكّن المسلمين من الهجرة إلى الحبشة، بحماية ملك كان النبي ﷺ يثق به رغم أنه لم يكن مسلماً، فقد أقام علاقاته على أساس الثقة ومبادئ الاحترام، لا حصرياً على أساس الانتماء الديني. وقد فهم أصحابه ذلك فهماً صحيحاً، ولم يترددوا في إقامة علاقات متينة مع غير المسلمين باسم القرابة أو الصداقة، على أساس

الاحترام والثقة المتبادلين، حتى في الأوضاع التي كانت تتطوي على الخطر. وهكذا فقد وجدت أم سلمة - رضي الله عنها - التي انفصلت عن زوجها، نفسها وحيدة مع ابنها وهي في طريقها إلى المدينة، وقد عرض عثمان بن طلحة، الذي لم يكن مسلماً أن يرافقها ويحميها حتى تصل إلى المكان الذي كان زوجها فيه، فلم تتردد في الثقة به: فرافقها هي وابنها إلى مقصدهما، ثم ودعهما بكل احترام، وكانت أم سلمة - رضي الله عنها - تسرد هذه القصة مراراً وتكراراً، وتشيد بنبل أخلاق عثمان بن طلحة رضي الله عنه.

ثمة أمثلة كثيرة من هذا الطابع، ولم يكن النبي ولا بقية المسلمين يقصرون علاقاتهم الاجتماعية والإنسانية على من كانوا من دينهم. وقد ثبت القرآن لاحقاً صحة مبدأ تلك العلاقة التي تقام على أساس الاحترام المتبادل:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾ (19)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه نموذجاً للإنصاف إزاء الذين لم يكونوا من دينه. فطيلة سنوات بعثته، استمر في تلقي الودائع من التجار غير المسلمين الذين ظلوا يتعاملون معه ويولوه كامل الثقة. وعشية مغادرته إلى المدينة، طلب محمد صلى الله عليه وسلم من علي رضي الله عنه أن يعيد كافة الودائع التي كانت لا تزال في عهده إلى أصحابها فرداً فرداً، وقد ظل يطبق بدقة مبادئ الأمانة والعدل

التي علمه إياها الإسلام مع كل من تعامل معه، سواء أكان من المسلمين أم من غير المسلمين.

وفي هذه الحقبة نفسها، أظهر النبي ﷺ موقفاً ليناً إزاء الذين تركوا الإسلام، جراء الاضطهاد والضغط من جانب أسرهم، كان هذا هو حال اثنين من شباب المسلمين، هما هشام وعياش، اللذان تخليا عن الإسلام بعد مقاومة طويلة الأمد، فلم يتم اتخاذ أي قرار أو عقوبة ضدهما، وقد عاد عياش لاحقاً إلى الإسلام وهو نادم أشد الندم ومليء بالحزن. وجاء الوحي لاحقاً للتخفيف من رؤيته وحكمه القاسيين على نفسه:

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣ ﴾
وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُوا ﴿٥٤﴾ (20).

وعندما سمع هشام هذه الآيات، عاد هو أيضاً إلى الإسلام، لكن أحد الذين لم يرجعوا كان عبيد الله بن جحش، الذي كان قد ذهب إلى الحبشة مع المجموعة الأولى من المهاجرين ثم تحول إلى النصرانية وترك زوجته، أم حبيبة بنت أبي سفيان (21).

لم يقم النبي ﷺ، من مكة، ولا أحد من المسلمين الذين كانوا في الحبشة، باتخاذ أي إجراء ضده: فقد ظل نصرانياً إلى أن وافته المنية، دون أن يتعرض إلى أي مضايقة أو سوء معاملة، ظل هذا الموقف المتمثل باحترام حرية كل شخص ملازماً للنبي ﷺ طيلة حياته، ولم تتضمن أي

روايات موثوقة عن حياته أي ذكر لموقف مختلف، لكنه تحدث بشدة لاحقاً في المدينة، واتخذ إجراءات صارمة ضد المنافقين الذين تظاهروا باعتناق الإسلام بدافع مجرد جمع المعلومات عن المسلمين، ثم تخلوا عن الإسلام وعادوا إلى قبائلهم بالمعلومات التي استطاعوا الحصول عليها. هؤلاء هم في الواقع خونة حرب، استحقوا عقاب الموت لأن أعمالهم كانت ترمي إلى تدمير الجماعة الإسلامية.

الإذن بالهجرة

كان آخر الذين أجازوا النبي ﷺ (مطعم) قد توفي حديثاً، وأصبحت الأوضاع شديدة الصعوبة، وكان القرشيون الذين اكتشفوا أن المسلمين بدؤوا يغادرون مكة، قد أصبحوا بدورهم أشد عنفاً في مقاومتهم للمسلمين. وقرر زعماء العشائر أن يتحدوا وقرروا استناداً إلى تحريض أبي لهب وأبي جهل، بأنه يجب القضاء على النبي ﷺ كانت خطتهم تقضي بتكليف قاتل من كل عشيرة ليمنعوا بني هاشم من الثأر والمطالبة بالدية. واتفقوا على عدم إضاعة الوقت، وأن عليهم التخلص من النبي بالسرعة الممكنة.

كان جبريل قد جاء ليؤكد للنبي ﷺ معنى رؤيا كان قد رآها قبل بضعة أيام، حيث رأى في المنام مدينة مزدهرة تظهر وترحب به. قال له جبريل بأن عليه الاستعداد للهجرة إلى يثرب وأن يصحب معه أبا بكر ﷺ. انطلق محمد ﷺ ليبشر أبا بكر ﷺ بالنبأ، فبكى أبو بكر ﷺ فرحاً، على أنه كان لا يزال عليهما ترتيب التفاصيل النهائية لرحلتهما. كانا قد سمعا أن قريشاً قد وضعت خطة للتخلص من النبي، فطلب محمد من علي ﷺ أن يرقد في فراشه في الليلة اللاحقة وألا يغادر مكة حتى يأمره بذلك.

اختبأ الذين كانوا يرومون قتل النبي ﷺ أمام البيت وانتظروا خروجه،
مثلما كان يفعل عادةً، لصلاة الفجر، وعندما سمعوا صوتاً داخل البيت،
ظنوا أن محمداً ﷺ قد نهض وأنه يستعد للخروج، وكانوا على وشك
القيام بالهجوم عندما أدركوا أنهم خُدِعوا، وأن الرجل الذي في البيت هو
ابن عمه علي عليه السلام. وهكذا فقد فشلت خطتهم. في غضون ذلك كان النبي
ﷺ قد توجه إلى بيت أبي بكر عليه السلام بعد أن كان قد أنهى آخر التفاصيل
المتعلقة بمغادرته إلى يثرب.



الفصل الثامن

الهجرة

لم يكن النبي محمد ﷺ قديراً ولا متهوراً، كانت ثقته بربه مطلقة، لكن هذا لم يكن يجعله أبداً يستلسم وينساق مع الأحداث، وقد ذكره الوحي بألا ينسى أن يقول: «إن شاء الله»، عند عزمه على القيام بعمل ما وأن ذكر الله يجب أن يقترن بالتواضع لله (لا سيما فيما يتصل بقواه هو كإنسان). ومع ذلك، فإن هذا لم يكن يعني ضمناً بأن ينسى تحمل المسؤولية وبعد النظر في الخيارات التي يمارسها في عالم البشر، وهكذا فقد كان محمد ﷺ يرسم خطة للهجرة إلى المدينة منذ سنتين، ولم يترك شيئاً للمصادفات.

وبعد أن استخدم قواه البشرية وذكاءه سلم أمره إلى الله وتوكل عليه، ليفهمنا بذلك معنى التوكل على الله، حيث قام بكل شعور بالمسؤولية بممارسة كافة الصفات (الفكرية والروحية والنفسية والعاطفية... إلخ)، التي أسبغها الله على كل منا ونتذكر تواضعاً لله أن الله وحده هو الذي يدبر الأمور ويتحكم في الأشياء، فيما يتعذر على الإنسان فعله، وهذا الدرس هو في الواقع عكس إغراء القدرية: الله يتدخل فقط بعد أن يكون الإنسان قد سعى قدر المستطاع واستنفذ كل إمكانات العمل، وهذا هو المعنى العميق للآية القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (1).

مع أبي بكر

قرر محمد ﷺ وأبو بكر ﷺ مغادرة مكة ليلاً والتوجه نحو اليمن لتفادي جذب انتباه قريش، وقدم أبو بكر ﷺ إلى محمد ﷺ ناقه اسمها القصواء، وأصر النبي ﷺ على أن يدفع له ثمنها؛ لأنه كان يريد أن تكون الهجرة له وحده، وكان يرغب ألا يكون عليه ديون عند هجرته إلى يثرب. كما أنه رفض لاحقاً قطعة من الأرض أراد يتيमान منحها له عند وصوله إلى يثرب التي أصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم المدينة، (مدينة الرسول) (أو المدينة المنورة).

بعد أن توجهوا جنوباً اختبأ بضعة أيام في غار ثور وكان عبد الله بن أبي بكر - رضي الله عنهما - يأتيهما بالأنبياء بشأن نوايا قريش، وكانت بنتاه أسماء وعائشة - رضي الله عنهما - تعدان الطعام وتحملانه سراً إلى الغار ليلاً، وهكذا فقد استخدم أبو بكر ﷺ جميع أولاده، البنيتين والغلام لتغطية خروجه مع محمد ﷺ، رغم الخطر الكبير الذي كان الوضع ينطوي عليه لابنتيه بشكل خاص. وكان دائماً يظهر مثل هذا الموقف العادل في تعامله مع أبنائه وبناته، على ضوء تعاليم النبي ﷺ.

رغم كل هذه الترتيبات، فقد توجهت مجموعة من القرشيين، الذين كانوا يشكون في وجود خديعة، نحو الجنوب بحثاً عن النبي ﷺ. وقد وصلوا أمام الغار استعداداً لدخوله، وكان بوسع أبي بكر ﷺ رؤيتهم من المكان الذي كان واقفاً فيه، وقال للنبي ﷺ وهو خائف بأنه لو نظر الرجال إلى الأسفل لرأونا، فطمأنه محمد ﷺ وهمس في أذنه: «لا تخف: فإن الله معنا»⁽²⁾، وأضاف يقول: «ما رأيك باثنين الله ثالثهما؟»⁽³⁾ هذه الكلمات

طمأنت أبا بكر رضي الله عنه، فأمام الغار لاحظت المجموعة أن العنكبوت قد نسجت خيطها على مدخل الغار وأن حمامة كانت ترقد فوق بيضها هناك: كان من البدهي أنه لم يكن بوسعهما الاختباء في الغار، وقرر المطاردون البحث عنهما في مكان آخر.

مرة أخرى، ورغم إستراتيجيتهما التي تم التخطيط لها بعناية، فقد مر النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه بتجربة التعرض للخطر. فحياتهما كانت تعتمد على التوكل على الله الذي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه به في تلك اللحظة الحرجة، تجلى بكامل قوته ومعناه. فالله وحده هو الذي يستطيع إنقاذ حياة رسوله. وعندما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم فقد حرص على ألا يكون مديناً لأحد (فقد رفض الهدايا وسدد ديونه وأعاد الأمانات المودعة لديه)، لكنه كان يعرف أيضاً أنه مدين بكل شيء للواحد الأحد، وأنه لا نهاية لما هو مدين به له وما عليه من التزام إزاءه. إن الهجرة هي بالدرجة الأولى الدرس الأساسي في قلب التجربة التي خاضها النبي صلى الله عليه وسلم؛ توكل على الله ينجم عنه «دون غطرسة» استغناء تام عن الناس فضلاً عن الإدراك المتواضع للاعتماد المطلق على الله.

كان أبو بكر رضي الله عنه قد استأجر بدويًا غير مسلم، عبد الله بن أريقط، ليدلهما على الطريق إلى يثرب عبر طريق خفي وغير مطروق، وفي الوقت الذي تم تحديده للمغادرة، جاء ابن أريقط ليقابلهما عند الغار ومعه النوق. وانطلقوا باتجاه الغرب، ثم جنوباً، قبل التوجه في خاتمة المطاف شمالاً إلى يثرب، كانت رحلة محفوفة بالأخطار حيث إنه إذا استطاع القرشيون اللحاق بالمسافرين الثلاثة فإنهم كانوا سيقتلونهم بالتأكيد بغية وضع حد

لأنشطة محمد ﷺ التخريبية على حد زعمهم، كان النبي ﷺ وصاحبه في السفر قد توكلا على الله لكنهما لم يترددا في استئجار أحد البدو الذين رغم أنه على شرك أعدائهما، إلا أنه كان معروفاً لديهما بأمانته (وكان يفخر بوفائه بوعده) وبقدراته كدليل (كان يعرف أكثر من أي شخص آخر المرات الوعرة البعيدة عن الطرق المعتادة التي سلكها معهما).

ومرة ثانية، كان هذا الموقف يلزم النبي ﷺ في حياته: فالنساء والرجال الذين أحاط نفسه بهم قد لا يكونون على دينه، لكنهم كانوا معروفين لديه بصفاتهم الأخلاقية وقدراتهم البشرية. فلم يكن محمد، شأنه في ذلك شأن الذين أتوا بعده، يتردد في الاعتماد عليهم.

المساجد

استغرقت الرحلة إلى قبا عشرين يوماً، ووصل الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أخيراً إلى قرية قبا الصغيرة التي كانت تقع خارج يثرب، كان الناس ينتظرونهما ورحبوا بهما بحرارة بالغة، وقد مكثا ثلاثة أيام في القرية وباشرا في بناء مسجد فيها، هو الأول في فترة الهجرة⁽⁴⁾. وقد سلك النبي ﷺ هذه الطريقة في كل مرحلة من مراحل الرحلة الثلاث إلى يثرب. وعندما غادر النبي ﷺ قبا، توجه إلى يثرب وتوقف عند الظهر، في وقت الصلاة، في وادي رنونا، حيث أدى أول صلاة جمعة مع أصحابه، وبدأ هناك أيضاً ببناء مسجد، ثم توجه إلى مركز المدينة، وقد استوقفه كثيرون من الناس ودعوه إلى المكوث عندهم، فطلب أن يخلوا سبيل ناقته القصواء لأنها مأمورة بتحديد المكان بالضبط الذي سيستقر فيه. فتحركت الناقة إلى الأمام وإلى الخلف عبر الحشد الكبير من الناس.

ثم توقفت أخيراً قرب قطعة أرض يملكها يتيمنان، وكما ذكرنا آنفاً، فقد دفع النبي ﷺ الثمن المستحق لهما. وقد بوشر على الفور ببناء مسكنه وبإنشاء مسجد، في بناء النبي لهذه المساجد الثلاثة فإنه كان يشير إلى أهمية ومركزية المسجد في العلاقة مع الله والمكان والجماعات البشرية. إن بناء مسجد هو تكريس لمكان مقدس محدد ضمن القدسية الأولى والأساسية للكون في مجموعته، كما قال النبي ﷺ «جعلت لي الأرض كلها مسجداً»⁽⁵⁾. وبعد أن يتم بناء المسجد المكان المحوري للجماعة الروحية الإسلامية التي تم إنشاؤه فيه، لكنه يعبر أيضاً عن حقيقة الاستقرار، وقبول المكان المضيف، الذي يتم تحويله لاحقاً إلى مكان للإنسان وإلى بيت له. بل إن وجود المسجد يبين أنه قد تم اعتماد مكان ما ليكون بيتاً، وأن الضمير المؤمن «في مقره الأمين»، لأن مكان العبادة، المذكر بالمعنى، قد تم إنشاؤه. إن عمل النبي ﷺ المتكرر هو بجد ذاته درس: فبصرف النظر عن طبيعة النفي أو الرحلة، وبصرف النظر عن الحركة والمغادرة، يجب على المرء ألا ينسى أبداً المعنى والاتجاه، فالمساجد تنطق بالمعنى وبالاتجاه وبلاستقرار. وقد أصبحت يثرب المدينة.

المنفى: المعنى والدروس

لقد اضطر النبي ﷺ وأصحابه إلى مغادرة مكة بسبب أعمال الاضطهاد والشدة والضراء الصادرة عن إخوانهم وأخواتهم، ضمن عشائر كل منهم. كان الوضع قد أصبح لا يطاق: فقد ماتت نساء ورجال، وعُذِّب آخرون وأخيراً كان زعماء قريش قد قرروا مهاجمة النبي ﷺ والتخلص منه، كانت الهجرة قبل كل شيء الواقع الموضوعي للمؤمنين من

نساء ورجال لم يكونوا يستطيعون ممارسة دينهم فقرروا بدأ حياة جديدة من أجل معتقداتهم، وبما أن أرض الله واسعة، كما قرر القرآن، فقد قرروا ترك موطنهم وهجر عالمهم وعاداتهم ومعاناة النفي، وكل ذلك في سبيل دينهم⁽⁶⁾. وقد أشاد الوحي لاحقاً بشجاعة وتصميم أولئك المؤمنين الذين أعربوا عن ثقتهم بالله والتوكل عليه، من خلال القيام بمثل تلك الخطوات الصعبة والمكلفة على الصعيد الإنساني:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾⁽⁷⁾.

المنفى إذًا هو امتحان آخر للتوكل على الله، فقد تعرض جميع الأنبياء إلى هذا الامتحان القاسي للقلب، كما هو الحال لدى جميع المؤمنين بعدهم. فإلى أي مدى يستطيعون المضي، وإلى أي مدى هم مستعدون للطاء، من أنفسهم وحياتهم، للواحد الأحد والثقة به ومحبته؟ هذه هي الأسئلة الأزلية التي تطرح بشأن الإيمان التي تقترن بكل تجربة زمنية وتاريخية للضمير المؤمن، كانت الهجرة إحدى إجابات الجماعة الإسلامية في فجر وجودها.

لقد كانت الهجرة أيضاً، في الواقع، تقتضي أن يتعلم المسلمون الأوائل كيف يظلون أوفياء لمعنى تعاليم الإسلام رغم تغير المكان والثقافة والذكرى. كانت المدينة تعني مواجهة عادات جديدة وأنواع جديدة من العلاقات الاجتماعية، ودوراً مختلفاً كل الاختلاف للنساء (اللواتي كان لهن وجود أكثر بكثير مما كان عليه الحال في مكة)، وعلاقات داخلية أكثر تعقيداً، فضلاً عن الوجود المؤثر للجماعات اليهودية والنصرانية، وهو أمر جديد

للمسلمين، ومنذ البداية، كان على جماعة المؤمنين، في سعيهم للافتداء بالنبي، أن يميزوا بين ما يخص المبادئ الإسلامية وما يتصل بشكل أخص بالثقافة المكية، وقد ظلوا أوفياء للأولى والعمل على اكتساب منهج مرن ونقدي إزاء ثقافتهم الأصلية. بل كان عليهم (حتى) محاولة إصلاح بعض مواقفهم، التي كانت ثقافية أكثر منها إسلامية. وقد كان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلم ذلك ودفع الثمن، بعد أن كان يتصرف بطريقته باللغة الشدة إزاء زوجته عندما كانت تراجع، الأمر الذي كان غير وارد في مكة)، فقد ردت عليه بأن عليه أن يتحمل الوضع ويقبله مثلما فعل النبي صلى الله عليه وسلم. كانت هذه تجربة صعبة عليه، مثلما كانت صعبة على الآخرين، الذين كان من المحتمل أن يميلوا إلى التفكير بأن عاداتهم وتقاليدهم كانت إسلامية بحد ذاتها: وقد أثبتت الهجرة أن الأمر ليس كذلك وأن على المرء الشك في كل ممارسة ثقافية، ليكون مخلصاً للمبادئ الإسلامية، والانفتاح على ثقافات أخرى والاكتساب من ثروتها، على حد سواء. على سبيل المثال، بعد أن علم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيُجرى عرس لدى مسلمي المدينة (الأنصار)، فقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتم إرسال اثنتين من الفتيات المغنيات إليهن، وذلك لأن الأنصار يحبون الغناء، كما قال (8). فهو لم يقتصر بذلك على الاعتراف بسمة ثقافية أو بذوق لم يكن بحد ذاته معارضاً للمبادئ الإسلامية، لكنه قام بتضمينه بوصفه إثراءً لتجربته الإنسانية الخاصة به. لقد كانت الهجرة، إذًا، أيضاً، اختباراً للذكاء، تحفز إلى الحاجة للتمييز بين المبادئ ومظاهرها الثقافية؛ وعلاوة على ذلك، فقد كانت تعني ضمناً الانفتاح والترحيب بثقة بعبادات اجتماعية جديدة وبطرق جديدة للوجود والتفكير وبأذواق جديدة. وهكذا فقد انضمت عالمية المبادئ إلى ضرورة الاعتراف بتنوع طرائق الحياة والثقافات، وكانت الهجرة التجربة الأكثر

مباشرة وعمقاً لهذا؛ لأن هذا كان يعني انتزاع المرء من جذوره والمحافظة في الوقت نفسه على الولاء للإله نفسه وللمعنى نفسه، في بيئات مختلفة.

الهجرة هي أيضاً الشعور بالتححرر، التاريخي والروحي على حد سواء. فقد حرر موسى عليه السلام شعبه من اضطهاد فرعون وقادهم إلى الإيمان والحرية، إن جوهر الهجرة هو من الطابع نفسه تماماً، فبعد أن تعرض المؤمنون للاضطهاد بسبب معتقداتهم، قرروا الانعتاق من معذبيهم والسير إلى الحرية، كان هذا تعبيراً من جانبهم عن عدم استطاعتهم قبول الاضطهاد، ولا يستطيعون قبول وضعية الفريسة، وأن المسألة بسيطة من حيث الأساس: إن التفوه علناً باسم الله كان يعني ضمناً إما أن يكون المرء حراً أو الانعتاق إلى الحرية، هذه الرسالة بالذات كان قد سبق للنبي صلى الله عليه وسلم أن أوصلها، ثم تلاه أبو بكر رضي الله عنه، إلى جميع الأرقاء في مكة. فدخلهم في الإسلام كان يعني تحررهم، وكانت كل تعاليم الإسلام تشير إلى إنهاء الرق، ومنذ ذلك الحين، كانت توجه دعوة أوسع نطاقاً إلى الجماعة الإسلامية الروحية في مجموعها: الإيمان يقتضي الحرية والعدالة وعلى المرء أن يكون مستعداً، كما كان عليه الحال في الهجرة، لدفع الثمن الشخصي والجماعي من أجلها.

إن البعد الروحي لتلك التعاليم قريب وفي المتناول، بل هو كامن في أساسها ويضفي معنى عليها، ومنذ أوائل نزول الوحي، دُعي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن ينأى بنفسه عن مضطهديه وعن الشر: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠). ثم: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ﴾ (١١). (10).

وقد اتخذ إبراهيم -الذي كان ابن أخته لوط واحداً من القلائل الذين آمنوا واعترفوا به- ذات الموقف عندما خاطب أهله بما يلي:

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُم النَّارُ وَمَالُكُمْ مِّن نَّصِيرٍ ۝٢٥﴾ ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لَوْ طُؤَ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ (11).

الهجرة هي منفى الضمير والقلب من الآلهة المزيفة، من كافة أنواع الاغتراب، من الشر والخطايا، التحول عن أوثان زمن المرء (السلطة والمال وعبادة المظاهر.. إلخ)؛ الهجرة من الأكاذيب والأساليب غير الأخلاقية للحياة وتحرير الذات عبر معاناة الانعتاق، من كافة مظاهر الحرية التي تعززها، مفارقة، عاداتنا الخاصة - تلكم هي المتطلبات الروحية للهجرة. وعندما سئل النبي ﷺ لاحقاً من قبل أحد الصحابة عن أفضل هجرة ممكنة، أجاب: (أن تهجر الشر) (12). وسوف يتكرر لاحقاً هذا الشرط للمنفى الروحي بأشكال مختلفة.

وهكذا فإن المسلمين الذين قاموا بالهجرة، حيث إنهم هاجروا من مكة إلى المدينة، قد عاشوا تجربة البعد الدوري لتعاليم الإسلام، حيث إنه كان عليهم تحقيق عودة جديدة إلى أنفسهم، أي إلى هجرة القلب. كانت هجرتهم المادية إلى المدينة هجرة روحية إلى داخل ذاتهم؛ ففي ترك مدينتهم وجذورهم، عادوا إلى أنفسهم، إلى قريتهم من الله، إلى معنى حياتهم الذي يتجاوز الأحداث التاريخية الطارئة.

فقد انتهت الآن لقد انتهت الآن الهجرة المادية، وهي العمل التأسيسي للجماعة الإسلامية الأولى ومحور تجربتها، ولن تحدث ثانية، كما أوضحت

عائشة — رضي الله عنها — ذلك بقوة للموجودين في المدينة الذين كانوا يريدون أن يعيشوا من جديد تلك التجربة، وقد قرر عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاحقاً بأن هذا الحدث الفريد هو إيدان بداية عهد الإسلام، الذي بدأ في عام 622 م. وما يبقى، وما هو متاح للجميع عبر العصور إلى ما شاء الله، هو تجربة الهجرة الروحية، التي تعيد الفرد إلى نفسه وتحرره من أوهام الذات والعالم. إن الهجرة في سبيل الله هي من حيث الجوهر سلسلة من الأسئلة التي سوف يسأل الله كل فرد عنها. من أنت؟ ما معنى حياتك؟ إلى أين أنت ذاهب؟ إن قبول مخاطر تلك الهجرة والاتكال على الواحد الأحد، هو أن يجيب المرء: بك أعود إلى نفسي وأنا حر.

الاستقرار والعهود

كانت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم الأولى لدى وصوله إلى قبا أن يُعرف المسلمين بمسؤولياتهم الأساسية: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا في الليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»⁽¹³⁾. إن الإشارة إلى السلام مرتين، في بداية الخطبة وفي خاتمتها تدل على ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد من أصحابه بأن يفهموا استقرارهم في مدينتهم الجديدة، فرعاية الفقراء وصلة الأرحام تبدو تذكراً بالأساس الأخلاقي للوجود الإسلامي، الذي يتعين على كل مسلم أن يتعهد بالالتزام الدائم به، صلاة التهجد — «والناس نيام» — تشير إلى الهجرة الروحية المذكورة آنفاً، وتعطي القلب القوة والصفاء في الإيمان اللذين يتيحان تنفيذ واجبات الالتزام بالأخلاق وإفشاء السلام، إن هذا السعي لتحقيق السلام الداخلي (وحده، ولكن في النور الدافئ لمحبة الأسرة) هو الطريق الذي يتعين على المؤمن سلوكه كي يتمكن من إفشاء السلام في العالم ويساعد فقراء الناس.

هذه التعاليم لازمت حياة النبي ﷺ، بما في ذلك كل مرحلة من مراحل وجوده في المدينة، فلدى الوصول إلى المدينة، كان قد اكتسب سلطة رمزية وسياسية لا يسع وجهاء المدينة تجاهلها. فقد كان العديدون من سكان المدينة قد اعتنقوا الإسلام واعترفوا به رسولاً لله؛ وكان هؤلاء ينتمون إلى عشائر الأوس والخزرج على السواء، رغم الحروب التي كانت مستعرة بينهم منذ زمن طويل، لقد كانت رسالة الإسلام على درجة من القوة، مثلما كان عليه الحال في مكة، بحيث تجاوزت الانقسامات السابقة وجمعت النساء والرجال من عشائر مختلفة وطبقات اجتماعية متنوعة، وأصول مختلفة، على قلب واحد، هذا الوجود لم يكن يُعد إلا تهديداً لأولئك الذين كانوا يتمتعون بشيء من السلطة قبل وصول النبي ﷺ. كما أنه لم يسع القبائل اليهودية والمسيحية، المقيمة في المنطقة منذ زمن طويل، إلا اتخاذ موقف المتفرج الذي ينتظر النتائج، حيث إنهم كانوا منقسمين بين أن يعترفوا بالتشابه بين دينهم ورسالة التوحيد الإسلامية والتساؤل عن نوايا النبي الجديد، الذي كان من الطبيعي أن يعترفوا بنبوته (كان زعماء اليهود قد صرحوا عن ذلك قبل وصوله). وقد كان محمد ﷺ يدرك بالطبع ما ينطوي عليه الوضع من تعقيد ومن المخاطر الدينية والاجتماعية والسياسية الناجمة عن استقراره في المدينة.

فقد قام على الفور بإبرام اتفاقية تنص على المساعدة المتبادلة بين المسلمين واليهود الذين كانوا يقطنون في الواحة⁽¹⁴⁾. كانت شروط العهد تستند إلى الاعتراف بالانتماءات المختلفة ولم تطلب أي تحول إلى الإسلام.

وقد نصت الاتفاقية على مبادئ العدل والمساواة والكرامة لجميع الموقعين على الاتفاقية (من يهود أو مسلمين أو من أهل المدينة أو من المهاجرين القادمين من مكة أو الأوس أو الخزرج). «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، الأمر الذي يعني في الواقع أنهم ينتمون على قدم المساواة والتمام إلى الأمة⁽¹⁵⁾. وقد نصت على قيام الجميع بالدفاع عن حقوق كل فرد وأنه في حال وقوع صراع مع المشركين فإن عليهم جميعاً الوقوف معاً وألاً يقيموا تحالفات أو اتفاقيات مستقلة⁽¹⁶⁾. وقد ورد أيضاً في الاتفاقية أنه في حال حصول نزاع، فإن النبي ﷺ يتحمل مسؤولية التنفيذ الصارم والعاقل لهذه الاتفاقية، كان اعتراف النبي ﷺ بقيمة تلك العلاقات التعاقدية التي استلهمها من الوحي، عنصراً ثابتاً في حياته وتعاليمه. فالعهد يحدد إطاراً؛ يؤكد استقلال الأطراف المعنيين به والاعتراف بهم (على أن يتم احترام جوهره)، وبالتالي فإنه يتيح وضع وسائل التنظيم والتقويم، وقد أصبح «العهد» لاحقاً في الإسلام شيئاً أساسياً، سواء في عهود الزواج أو العهود التجارية والاجتماعية وتلك التي توضع لتسوية الصراع أو حالة الحرب⁽¹⁷⁾، وقد شدد الوحي على أهمية العهود وعلى الوفاء بشروطها: (إن العهد كان مسؤولاً)⁽¹⁸⁾. وقال النبي ﷺ في هذا الصدد: (المسلمون عند شروطهم)⁽¹⁹⁾.

مع اليهود

كان الوحي وشروط الميثاق وموقف النبي ﷺ من اليهود منذ وصوله إلى المدينة هي العوامل التي حددت الإطار العام للعلاقة

بين المؤمنين في الديانتين، فقبل كل شيء كان هناك الاعتراف
برابطة: الإله نفسه قد بعث كلاً من موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم.
واليهود والنصارى هم «أهل الكتاب»، الذين تلقوا رسالة موحى
بها من الله. ويقرر القرآن بوضوح هذا الاعتراف:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ
قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴿٢٠﴾﴾.

عندما استقر مقام النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، لم يطلب من أحد اعتناق
الإسلام، وأوضح أنه يريد أن تكون العلاقات في المجتمع الجديد مبنية
على المساواة، بعد ذلك، عندما نشأت الصراعات وتعرضت التحالفات
للخيانة، تدهور الوضع وتدهورت علاقات القبائل اليهودية مع بعضها إلى
حد كبير، ومع ذلك، فإن هذه التطورات لم تؤثر على الإطلاق على المبادئ
التي تحكم العلاقة بين المسلمين واليهود: من حيث الاعتراف والاحترام
المتبادلان، فضلاً عن المساواة أمام القانون أو في تسوية النزاعات بين
الأفراد أو الجماعات.

على سبيل المثال، بعد بضع سنوات، عندما كان المسلمون في حالة
صراع كامن مع قبيلة يهودية كانوا يشكون بأنها تخونهم، ظن أحد
المسلمين أنه قد يتجنب المسؤولية عن سرقة قام بها بأن ألقى اللوم
على أحد اليهود، وقد نزل الوحي على شكل ثماني آيات يندد بالخيانة

الخطيرة التي ارتكبتها المسلم المذنب وكشف عن براءة اليهودي (21). كان ضلوع المسلم في السرقة صريحاً ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١٣) (22).

ومهما حدث من صراع مع جماعات أخرى، فقد ظل مبدأ الاحترام والعدل ثابتاً ومتجاوزاً للوقائع التاريخية ويقضي بالألا يستسلم ضمير المسلم لعمى العواطف والحق. فقد أورد القرآن أن أي حقد يمكن أن ينشأ عن الحرب لا يلغي المبادئ التي يجب على المؤمنين أن يظلوا ملتزمين بها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (23).

لقد حافظ محمد ﷺ على مبدأ التمييز بين المواقف والناس المعنيين فيها، وأظهر بالغ الاحترام للأفراد ومعتقداتهم، وقد كان هناك شاب يهودي يصحب النبي ﷺ ويتبعه أينما ذهب عدة سنوات؛ لأنه كان يحب صحبة النبي ﷺ. وعلى الرغم من ذلك لم يطلب منه النبي ﷺ أبداً أن يتخلى عن دينه.

ثم أصيب الشاب بمرض خطير وعندما كان على فراش الموت طلب من أبيه أن يسمح له باعتناق الإسلام، لكنه ظل طيلة حياته في ملازمته للنبي ﷺ على دينه ويحظى بمحبة النبي ﷺ واحترامه.

بعد ذلك، بينما كان النبي ﷺ مع جماعة من المسلمين، مرت به جنازة فوقف الرسول احتراماً للمتوفى، وقد تعجب المسلمون من ذلك وقالوا له إنها كانت جنازة يهودي، فأجاب النبي ﷺ بوضوح: (ألم

تكن نفساً بشرية^٩، وقد ظلت التعاليم ثابتة رغم الصعوبات والخيانة والحروب: لم يجبر أحد على اعتناق الإسلام وكانت الفروق تحترم وكان يتعين معاملة الجميع على قدم المساواة، كانت تلك رسالة الوحي الأساسية وجوهر أعمال النبي، ينبغي قراءة كافة الآيات اللاحقة التي تشير إلى الصراعات والقتل والقتال في سياق ما نزل به الوحي (كون المسلمين في حالة حرب وبحاجة لحماية أنفسهم) ولا تغير بأي حال من الأحوال المحتوى الأساسي للرسالة في مجموعها.

المنافقون

بالرغم من هذا الميثاق، ورغم الجهود التي بذلها محمد ﷺ لطمأنة مختلف القبائل ومختلف الزعماء الدينيين، لم يكن الوضع بهذه البساطة. فقد كان ينطوي على التعامل مع ما لدى بعض الناس من غيرة وجشع وصراع على القوة فضلاً عن الإحباط الذي كان بعضهم يشعر به. لقد واجه النبي ﷺ مواقف تتيح له فرصة كافية لمعرفة ما في مكة، حيث كان الدخول في الإسلام يقتضي من جانب البشر تضحيات لا يمكن أن تتبع إلا من قلوب مؤمنة إيماناً مخلصاً وعميقاً. لكن الأمور تغيرت في المدينة. فقد أدى التشكيل الاجتماعي في المدينة، ومراكز القوى المختلفة فيها، والطابع ذاته لدور النبي - كل ذلك غير الوضع تغييراً كلياً: فبعض الأفراد وجدوا فرصة لاكتساب السلطة (مصلحة شبه سياسية) في الإعلام عن اعتناقهم للإسلام، في أول سورة نزلت في المدينة، أشار القرآن إلى هذا الظهور الإشكالي للمنافقين، الذين كانوا يشكلون خطراً رئيساً لأنهم

يكيدون للمجتمع المسلم من الداخل⁽²⁴⁾. وكما أشار ابن كثير في تفسيره للقرآن، تتحدث أربع آيات في بداية سورة البقرة عن المؤمنين الصادقين ولا يذكر غير المؤمنين إلا في آيتين، لكن ثلاث عشرة آية وصفت مواقف المنافقين وأقوالهم الحافلة بالخداع والخيانة⁽²⁵⁾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامِنُونَ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)⁽²⁶⁾.

ثم يقول بعد ذلك:

﴿وَإِذَا لَفُؤَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (١٤)⁽²⁷⁾.

كان الخطر حقيقياً وأصبح دائماً لاحقاً. فبعض هؤلاء الناس أثاروا الحزازات القديمة بين الأوس والخزرج، وكادت إحدى هذه المحاولات تنجح لولا أن أحد الأفراد ذكرهم بالطابع الأسمى لأخوتهم في الإسلام. وكان أحد أفراد عشيرة الخزرج، عبد الله بن أبيّ، قد دخل في الإسلام لكن تبين لكثيرين من المؤمنين أنه مثير للفتن، حيث كان مثلاً نموذجياً للمنافق الذي ورد ذكره في القرآن، وكان أبو أمير، من عشيرة الأوس، يُنظر إليه بالطريقة نفسها حيث إنه كان ينشر سموم الفتنة، لكن لم يُتخذ أي إجراء بشأنهما، لكن الناس كانوا حذرين منهما وحرصوا على عدم الوقوع في الشباك التي يمكن أن تسبب الانقسام في صفوف المسلمين.

عهد المؤاخاة

كي يقوي النبي ﷺ الروابط بين المسلمين، ولا سيما بين مسلمي المدينة (الأنصار) والذين هاجروا من مكة (المهاجرين)، فقد قرر وضع عهد رسمي بالمؤاخاة بين المسلمين، وكان هذا يعني أن كل مهاجر كان مرتبطاً بعهد مع أحد الأنصار، الذي كان عليه مساعدة المهاجر على الاستقرار ومشاركته في ممتلكاته، وتمكينه من العيش في المدينة في أفضل الظروف الممكنة. وعلى صعيد أوسع، فإن علاقاتهم كانت تقوم على أساس الأخوة والمشاركة والمساعدة الروحية المتبادلة (كان يتعين على المهاجرين من مكة أن يعلموا أخواتهم وإخوانهم في المدينة ما كانوا يعرفونه عن الإسلام). هذا العهد وفر للمجتمع المسلم الجديد الذي استقر في المدينة قوة ووحدانية خاصتين.

وقد تم إيجاد علاقات بالغة العمق بين المؤمنين الذين أعربوا لاحقاً عن شدة محبتهم المتبادلة في الله. في حديث قدسي صور النبي ﷺ هذه المحبة بأنها قمة الأخوة في الإيمان، وسعى أصحابه إلى تحقيقها في أعمالهم اليومية والتزاماتهم: (في يوم القيامة يقول الله: أين الذين تحابوا؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) (28).

تدل الطريقة التي تعامل المسلمون فيها مع الأوضاع المؤلمة والصعبة والخطرة التي واجهتهم على أنهم حققوا درجة من الأخوة والثقة لا يمكن لأي شدة أن تستطيع هدمها على الإطلاق. هذه الروابط شكلت قوة المجتمع المسلم الروحية والاجتماعية، وفي ذلك كان يكمن سر نجاحهم أمام الله وبين الناس: الإيمان بالله ومحبة الوالدين والأخوة بين أفراد الشعب والأخلاق التي تخدم الكون وجميع الكائنات.

الأذان للصلاة

مع مرور الشهور توطدت تدريجياً أركان العبادات: الصيام في شهر رمضان وفرض أكثر دقة للزكاة علاوة على الشهادة والصلاة، وأصبح المسلمون يجتمعون في المسجد في أوقات محددة ويصلون جماعة.

كان النبي ﷺ يفكر في طريقة لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، كان يفكر في احتمالات محاكاة الممارسات اليهودية أو النصرانية، بواسطة الأجراس أو البوق. وفي أحد الأيام جاءه عبد الله بن زياد، وهو من الأنصار الذين اشتركوا في بيعة العقبة الثانية، وقال له إنه رأى في المنام رجلاً علمه طريقة الدعوة إلى الصلاة، استمع له النبي ﷺ وأدرك على الفور صدق الرؤيا.

فبعث يطلب بلال الحبشي رضي الله عنه الذي كان صوته في غاية الجمال وطلب إليه أن يقف على قمة أعلى بيت قريب من المسجد ويدعو الناس إلى الصلاة.

هذه الدعوة ذاتها التي لم تتغير والتي تتمثل في تأكيد عظمة الله («الله أكبر») والشهادة («أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»)، ودعوة الناس إلى الصلاة والفلاح في الدنيا والآخرة لا زالت تتردد منذ نحو خمسة عشر قرناً في البلدات والمدن الإسلامية، هذه الدعوة مع كل ما فيها من أنغام وإيقاعات وأصوات فإنها تعبر من خلال موسيقاها عن الجمع بين الإيمان والجمال، بين الروحانية وحب الجمال، تماماً مثلما أرادها النبي ﷺ عندما اختار بلالاً مؤذناً، إنها تذكرة بالله الواحد الأحد الذي يحب الجمال والذي يستقبل مرحباً، خمس مرات في اليوم، الذين يستجيبون للدعوة الجميلة إلى المثول بين يدي صاحب الجمال الأعظم (29).

الفصل التاسع

المدينة، الحياة، والحرب

كان النبي ﷺ وأصحابه الذين قدموا من مكة يستقرون تدريجياً في المدينة، وأخذوا يجدون مواقعهم في هذه البيئة الجديدة، وقد مكث محمد ﷺ ضيفاً خلال الأشهر السبعة الأولى في بيت أبي أيوب رضي الله عنه إلى أن تم بناء المسجد والمنزلين القرييين منه، ثم انتقل النبي ﷺ إلى منزله وانضمت إليه زوجته سودة - رضي الله عنها - ثم بعد بضعة أشهر، عائشة - رضي الله عنها - التي جرى الاحتفال بزفافها في المدينة، ثم وصلت بنات النبي ﷺ في الأسابيع اللاحقة.

وهكذا فقد كان مجتمع جديد يتوطد في ظروف بالغة الصعوبة، وكانت الصراعات القبلية والمنازعات على السلطة كثيراً ما تعقد العلاقات بين المسلمين وأفراد العشائر الأخرى، وذلك رغم الجهود والتحالفات، وفي بعض الأحيان كانت تطفو على السطح بين المسلمين أنفسهم حزازات قديمة من أيام الجاهلية تسبب التوترات بين الأفراد، ومع ذلك فقد تواصلت التربية الدينية والروحية، وكان النبي ﷺ دائماً جاهزاً ليذكرهم بالمبادئ التي يتعين على المؤمنين التقيد بها منذ الآن.

أما في مكة فقد كان الغضب يثور وكان نجاح المهاجرين ينظر إليه لا بوصفه إذلالاً لهم فحسب، بل تهديداً لتوازن القوى في شبه الجزيرة العربية كلها، فقد كانت قريش، طيلة عشرات السنين، تحتل بشكل

طبيعي مركز الزعامة المطلقة لا بسبب ماضيها فحسب، بل أيضاً لأنها كانت المسؤولة عن مدينة مكة ومقر الأوثان والموقع الذي كانت تلتقي فيه القبائل مرة في السنة لأغراض تجارية، وقد انتشرت أنباء نجاح محمد ﷺ واستقراره في المدينة في أنحاء الجزيرة، وهذا أثر بشكل كبير على مكانة قريش وقوتها الفعلية، وكان محمد ﷺ وأصحابه يعرفون ذلك وكانوا يتوقعون تصرفاً وشيكاً من العشيرة وأفراد الأسرة الذين كانوا يعرفونهم حق المعرفة.

النزاع مع قريش

لم يهاجر جميع مسلمي مكة، فالذين لم يهاجروا كانوا يتعرضون إلى معاملة سيئة من زعماء قريش، حيث إن هؤلاء الزعماء منزعين من النجاح الذي حققه محمد ﷺ. وفي الواقع فقد بقي بعض المسلمين في مكة دون الإعلان عن اعتناقهم للإسلام، وأصبحوا يخافون الآن من الانتقام الشديد الذي ينتظرهم لا محالة إذا ما اكتشفت قريش إسلامهم.

وقد ذهب بعض من قريش إلى أبعد من ذلك بل قرروا، مخالفة منهم لميثاق الشرف الذي كانت كافة عشائر الجزيرة تلتزم به، الاستيلاء على ممتلكات المهاجرين وحوادثهم التي خلفوها وراءهم في مكة، وعندما سمع محمد ﷺ والمسلمون الذين استقروا في المدينة بهذا التصرف الذي كان عاراً وعملاً ينطوي على الجبن، شعروا بالغضب، فقرروا، بعد ستة أشهر من هجرتهم، مهاجمة قوافل مكة التي تمر بالقرب من المدينة ليسترجعوا ما يوازي ما تمت مصادرتة في مكة من ممتلكاتهم.

وفي الأشهر التي لحقت قام النبي ﷺ بتجهيز ما لا يقل عن سبع حملات (لم يشترك دائماً فيها) ⁽¹⁾ هذه الحملات كانت تتضمن المهاجرين فحسب، لأنهم وحدهم الذين كانوا ضحايا اغتصاب قريش لممتلكاتهم، ولم يتم إشراك الأنصار، لأنهم لم يكونوا طرفاً في الصراع ولم يحدث أي قتال أو قتل في تلك الحملات: فقد كان تجار قريش يتخلون عن بضائعهم ثم يطلق سراهم، وفي بعض الأحيان كان المهاجرون يصلون متأخرين إلى المكان الذي كان من المفترض أن يكون المكيون قد توقفوا فيه، فيجدون أن القافلة قد ارتحلت، وأن العملية قد فشلت، إلا أنهم كانوا ينجحون بصفة عامة واستطاع المهاجرون تحصيل تعويضات ذات شأن على شكل غنائم.

وفي تلك الفترة ذاتها، أرسل النبي ﷺ أيضاً بعثات كانت مهمتها جمع المعلومات عن حركات قريش وأنشطتها، ونواياها (أو احتمال استعداداتها للحرب)، والتحالفات الجديدة التي قد يقيمونها في المنطقة، كانت اليقظة أمراً أساسياً، حيث إن عدوانية قريش كانت تشتد وأصبحت علنية بشكل ظاهر وواسع الانتشار، غير أن إحدى هذه السرايا لم تكن موفقة: كان عبد الله بن جحش ومجموعة صغيرة قد أمروا بالاقتراب مسافة قريبة من عشائر قريش في وادي نخلة (بين مكة والطائف) وجمع معلومات عن نوايا زعمائها، وقد رأوا قافلة فقرر عبد الله بن جحش وأفراد مجموعته مهاجمتها رغم أن الليلة كانت آخر ليلة في شهر رجب وهو أحد الأشهر الحُرُم التي كانت جميع القبائل تعد الحروب فيها محرمة، وقد قتل أحد رجال قريش واستطاع آخر الهروب وأخذ اثنان من رجال القافلة أسيرين. وعند عودتهم إلى المدينة، غضب النبي ﷺ من فعلتهم التي كانت مخالفة كلياً لتعليماته، هذا الحدث كان نقطة تحول في العلاقات بين المدينة ومكة.

كان الرسول ﷺ يقيم أحلافاً طيلة أكثر من سنة مع بعض القبائل على طول ساحل البحر الأحمر، على طريق كانت تسلكه عادة قوافل مكة المتوجهة إلى الشمال، إلى ما بعد المدينة، إلى العراق وأبلاد الشام. وكان من المحتم أن يزعم ذلك قريشاً التي اضطرت للبحث عن طرق جديدة إلى الشرق كانت التوترات في ازدياد مضطرد ووجدت قريش، التي كانت ترغب في الإساءة إلى سمعة المهاجرين وتأليب قبائل المنطقة ضدهم، ذريعة رائعة في الهجوم على القافلة الذي جرى في الشهر الحرام، وقد دلت الاستخبارات التي تم الحصول عليها من هنا وهناك من قبل مبعوثي محمد ﷺ على أن صداماً بين المسلمين وقريش قد أصبح وشيكاً.

الوحي

أثناء هذه الفترة بالذات، نزل الوحي على النبي ﷺ مرتين متتاليتين، وكان ينطوي على موضوعين مختلفين كل الاختلاف في طبيعتهما، لكنه في المرتين كان ينطوي على خروج عن مجريات الماضي، فقد كان يطلب من المسلمين، طيلة أكثر من ثلاث عشرة سنة، التذرع بالصبر وممارسة المقاومة السلبية في وجه الاضطهاد والإرهاب اللذين كانوا يتعرضون لهما على أيدي زعماء قريش والعشائر الأخرى، لقد تحملوا وثابروا ثم هاجروا دون الرد على العدوان مع تجنب المواجهة.

ولكن بعد أن استقر بالمسلمين المقام في المدينة، كان قد اتضح أن قريشاً سوف تصعد معارضتها وتجد سبباً أخرى للقضاء على رسالة النبي ﷺ، التي لم تعد تهدد التوازن السياسي في مكة فحسب، بل أيضاً نظام القوى

في أنحاء الجزيرة، كان مركز قريش إزاء كافة القبائل والعشائر هو المعرض للخطر وكذلك هيبتهم الدينية والعسكرية، لقد كانت الهجرة التي كانت تحرراً للمسلمين، تعني أيضاً صراعات وحروباً قادمة.

ثم نزل على النبي وحي لم يدع مجالاً للشك:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣١) ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (٢).

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه لاحقاً عند سماعه تلك الآية، إنه فهم على الفور أنها تعلن بصراع وحرب وشيكن، مثلما فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الآخرون من تلك الآية، بعد الآية لم يعد يطلب من المسلمين ممارسة المقاومة السلبية، بل كان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد عدوان العدو.

فإلى «الجهاد» الروحي والاستخباري، الذي كان يتمثل إما في مقاومة أحلك إغراءات الذات الأنانية أو الجشعة، أو العنيفة أو بالرد على حجج الوثنيين المتناقضة من خلال القرآن، فقد أضيف الآن شكل ممكن جديد لـ «الجهاد» تمثل في القتال والمقاومة المسلحة اللازمة للعدوان المسلح والدفاع عن الذات ضد الطغاة.

إن جميع أشكال الجهاد، كما يظهر بوضوح، مرتبطة بمفهوم المقاومة. هذا المفهوم ينطبق أيضاً على صعيد القتال، النضال المسلح، في آخر الآية تم التعبير عن القتال بأنه لازم لمقاومة الميل البشري الطبيعي إلى التوسع واضطهاد الآخرين:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوْمِعُ وَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (3).

لقد اعتبرت الحاجة إلى توازن وتنظيم القوى ضرورة موضوعية بالنظر للطبيعة البشرية، إن القوة المطلقة لفرد واحد أو لأمة واحدة أو لإمبراطورية واحدة من شأنها أن تؤدي إلى إبادة التنوع بين البشر وإلى تدمير مختلف أماكن العبادة (القائمة تنتهي بالمساجد)، التي ترمز هنا إلى تعددية الأديان الكائنة بإرادة الله ومشيئته، لذا، فإن المواجهة بين القوى ومقاومة إغراء البشر بشن الحرب، عبر عنهما، في مفارقة ظاهرية، بأنهما يعملان على تحقيق السلام بين البشر، هذا ما أكدته الآية الأخرى على صعيد أعم:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (4).

في أول الخلق سألت الملائكة الله عن أغراضه من خلق البشر ليكونوا خلفاء له: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ (5). كان سؤالهم هذا تذكرة بأن الجنس البشري هو - في طبيعته - متعطش للسلطة ويميل إلى نشر الشر وإلى القتل: أما الجانب الآخر من البشر، أي محبتهم للخير والعدل، فإنه يتعين عليهم المقاومة ومن خلال التوصل إلى توازن، يهيئون الظروف المؤدية إلى السلام وهو الثمرة الهشة للتوازن بين القوى والميول المتعارضة، وهكذا، فإن كلاً من «الجهاد» و«القتال» هما الطريقتان اللتان، سيتيحان - عبر مقاومة الإغراءات المظلمة للذات الداخلية فضلاً عن نزعة البشر البغيضة إلى الحرب - المجال للتوصل إلى السلام، الذي

يعد ثمرة جهد متواصل ومتجدد للتغلب على الإغراءات فضلاً عن الطغاة، إن جوهر «الجهاد» هو السعي إلى تحقيق السلام، أما القتال فهو، في بعض الأحيان الطريق اللازم للوصول إلى السلام.

كان المسلمون يواجهون حقبة جديدة مفتوحة أمامهم في المدينة، كان عليهم أن يواجهوا عقابيل الحروب، وضحاياها الذين يقتلون والمعاناة التي تزداد شدة جراء كون أعدائهم من عشائر المهاجرين أنفسهم، من أقاربهم. تلك كانت تكلفة بقائهم.

تغيير القبلة

كان قد مضى على استقرار المسلمين في المدينة سنة ونصف السنة تقريباً عندما نزل الوحي الثاني المشار إليه آنفاً، كانت القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم حتى ذلك الحين هي القدس، لكن جاء أمر مفاجئ من الوحي:

﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤) (٦).

هذه الآية تنطوي على عدة رسائل وقد كان لها عواقب على علاقات النبي بالقبائل اليهودية والنصرانية، حيث إن هذا التغيير أنشأ تمييزاً، ومسافة، بين الأديان السماوية التوحيدية، ومع إن القدس ظلت أساسية في قلب الإسلام، إلا أن التوجه الجديد في الصلاة أعاد طقوساً مباشرة

وصلة روحية بين إبراهيم عليه السلام - الذي بنى أول بيت وضع للناس لعبادة الله - والإسلام التوحيدي، وقد ابتهج المسلمون بهذا وفهموا أنه عودة إلى الأصول، إن توجيه الوجه يعني توجيه كيان الإنسان وقلبه إلى المنبع، الأصل، الإله الواحد، إله إبراهيم عليه السلام، إله الكون والبشرية، وهكذا فقد استعادت الكعبة وظيفتها الأولية، فعلى الأرض هي بيت الله، المركز الذي تتوجه الآن إليه جميع القلوب، من كافة الأطراف.

لكن القبائل اليهودية لم تكن لتبتهج بهذا التغير، فمنذ بداية استقرار المسلمين في المدينة، كان يوجد اختلافات بين اليهود والمسلمين تتعلق بالاعتراف بالله الواحد وتوقيع المواثيق بل كان أيضاً عند اليهود -بشكل أكثر خفية- شكوك بشأن الدين الجديد وكانوا يخشون من أن يشكل توسعه تهديداً لهم، وكان قد تنامي إلى سمع محمد صلى الله عليه وسلم أن جرت اتصالات بين بعض القبائل اليهودية وبعض حلفاء قريش، فبالنظر لعدم الثقة هذه، لم يكن الوحي الذي جاء بهذه الآية ليعزي وجهاء المدينة من اليهود؛ لأن التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بدا من الواضح الآن أنه يختلف عن رسالة اليهودية.

وعلاوة على ذلك فإن تغيير القبلة كان رسالة لا تقبل وضوحاً وقوة لسكان مكة، فالوضع المركزي الذي أخذت المدينة تنعم به في رسالة الدين الجديد جعل سكانها يخشون من نوايا المسلمين في المستقبل بشأن المدينة والكعبة، ولم يكن هذا بالشئ الذي تقبله قريش وأصبح من الواضح الآن أن القضاء على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذي يمكن أن يحميهم ويضمن لهم استمرار الامتيازات التاريخية التي كلفهم الحصول عليها الكثير من الجهد والمشقة.

قافلة

كان النبي ﷺ قد علم للتو بأن قافلة بقيادة أبي سفيان كانت في طريق عودتها من بلاد الشام وهي تحمل الكثير من البضائع وأن الغالبية العظمى من عشائر قريش قد شاركوا في هذا المشروع التجاري، فقرر محمد ﷺ اعتراض القافلة، وكان أحد أسباب ذلك هو السبب السابق نفسه الذي دفعه إلى مهاجمة القافلة السابقة: الرغبة في استرجاع الممتلكات التي استولت عليها قريش عندما اغتصبوا ممتلكات المهاجرين بعد ذهابهم إلى المدينة، والسبب الثاني هو أن من شأن ذلك أن يمثل إظهاراً للقوة للتأثير على سكان مكة، الذين كانوا يتآمرون بشكل متصاعد ضد المدينة.

انطلق النبي ومعه (209) أو (313)، حسب بعض الروايات، من أصحابه، بمن فيهم المهاجرون والمنفيون من مكة، والأنصار، والمسلمون من أهل المدينة، وكانوا يحملون أسلحة ذات شأن - بالنظر لأهمية القافلة التي كانوا ينوون مهاجمتها - رغم أنهم لم يكونوا في واقع الأمر مهيبين للحرب. كان النبي ﷺ قد طلب من عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو أحد المهاجرين من مكة، الذي كان من الطبيعي أن يكون جزءاً من الحملة، البقاء في المدينة من أجل الاعتناء بزوجته رقية، ابنة النبي ﷺ، التي كانت تعاني من مرض شديد⁽⁷⁾.

كان النبي ﷺ ينوي اعتراض القافلة في بدر، لكن أبا سفيان كان قد جاءه تحذير بالهجوم الوشيك من قبل جواسيسه، فأرسل مبعوثاً إلى زعماء مكة لإخبارهم بالخطر الذي كان معرضاً له وطلب المعونة، وقام على الفور

بتغيير طريقه، وعندما تأكد من أنه استطاع الإفلات من الهجوم، أرسل مبعوثاً آخر إلى زعماء قريش لإخبارهم بأن الخطر قد زال وأنه لم يعد بحاجة إلى معونة، غير أن زعماء قريش كانوا قد انطلقوا ومعهم ما ينوف عن ألف رجل وقرروا، بناء على إصرار أبي جهل، بوجوب الاستمرار في الحملة رغم زوال الخطر الظاهر. ومع أنه كان بالإمكان تفادي المواجهة، فإنهم، بدورهم كانوا عازمين على إظهار قوتهم ضد عدوهم. وسمع النبي ﷺ وأصحابه، الذين عسكروا قرب بدر، بأن جيشاً ضخماً قد انطلق من مكة. وكان هذا يعني تغييراً كبيراً في الخطط: كانوا قد انطلقوا من المدينة ليضعوا أيديهم على القافلة وما تحمله من بضائع (وهو ما لم يستطيعوا القيام به)، أما الآن فإن جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف حجم قوتهم كان يسير إليهم، وزعماءه مصرون على ما يبدو على حسم الموقف بالقتال، كانت هذه حرباً لم يكن المسلمون مستعدين لها في واقع الأمر.

المشاورات

كان محمد ﷺ يفكر بما إذا كان يتعين عليه التقدم ومحاولة اللحاق بالقافلة أو التوقف والعودة إلى المدينة بغية تجنب الاصطدام بجيش قريش الضخم، فقرر استشارة أصحابه لاستطلاع رأيهم بالمسألة. كان أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - أول المتكلمين وأكدوا استعدادهما للتحرك إلى الأمام والمخاطرة بمواجهة شاملة، ثم تكلم مهاجر آخر، المقداد بن عمرو، فقال: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك» (8).

سُرَّ النبي ﷺ لهذا الموقف وأشرق وجهه، لكن هذا ما كان يتوقعه بالطبع من المهاجرين، كان يحتاج إلى الدعم الصريح من الأنصار، لأنهم لم يكونوا طرفاً مباشراً في الصراع مع قريش وكانوا قد وقعوا اتفاقية مناصرة لا تلزمهم إلا في حالة الحرب في المدينة، لا خارجها. وقال سعد ابن معاذ رضي الله عنه، ممثلاً الأنصار، بعزم وإصرار: «افعل ما شئت ونحن معك. فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لحضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد» (9). بعد أن حصل محمد ﷺ على موافقة الفئتين، قرر السير قدماً غير خائف من تحركات قريش.

كان النبي ﷺ طيلة بعثته يستشير أصحابه ويشجعهم على الإعراب عن آرائهم ويعيرهم انتباهه الكلي، وكان النبي ﷺ قد استحدث أيضاً أسلوباً تعليمياً حقيقياً أتاح للمسلمين تطوير مواهبهم النقدية والتعبير عن مواهبهم وأن ينضجوا في وجوده، كان كثيراً ما يطرح أسئلة عن مختلف المواضيع ولا يعطي الإجابات إلا بعد أن يكون أصحابه قد أعملوا فكرهم وأعربوا عن تخمينات مختلفة، وفي بعض الأحيان كان يطلق حكماً، بطريقة حاذقة ولطيفة لا تخلو من مفارقة، يدفع المستمعين بواسطتها إلى إمعان التفكير بالموضوع، على سبيل المثال قال مرة: «من الرجل القوي الذي يتغلب على عدوه؟» تشاور الأصحاب فيما بينهم بهذا الصدد ثم سألوهم: «من هو الرجل القوي إذاً؟» أثار النبي دهشة أصحابه وقادهم إلى فهم أشد عمقاً للسؤال في إجابته: «الرجل القوي هو الذي يملك نفسه عند الغضب» (10). وفي بعض الأحيان كان يتحدث مجازياً: «ليس الغنى بالثروة التي بين أيديكم!» بعد أن فكر الأصحاب في

هذا القول، أضاف النبي ﷺ بعض التفاصيل قائلاً: «الغنى الحقيقي هو غنى النفس» (11). في بعض المناسبات كانت أقوال النبي ﷺ تبدو مخالفة للمنطق السليم أو للآداب: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!» لم يسع الأصحاب سوى التفكير بطبيعة النصرة التي يتعين عليهم تقديمها لأخ ظالم، كيف يمكن ذلك؟ فيضيف النبي ﷺ، من منطلق عكسي: «خذوا على يده وامنعوه من الظلم فتصروه بذلك!» (12).

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يلجأ إلى طرح الأسئلة أو طرح أحكام تنطوي على مفارقات أو تبدو متناقضة وذلك لتنشيط ملكاتهم النقدية وقدرتهم على تجاوز مجرد الطاعة العمياء، أو التقليد الآلي الذي يدمر العقل، هذا الأسلوب عمل على تطوير القدرة الفكرية اللازمة لكي تكون المشاورات مجدية، بل إذا كان للصحابة أن يقدموا نصيحة مفيدة، فإن عليهم أن يكونوا يقظين فكرياً وجراًء ومستقلين، حتى في وجود نبي لا بد أن تكون شخصيته ومركزه قد أثار إعجابهم.

فمن خلال تحفيز ذكائهم وإتاحة الفرص لهم كي يتكلموا، تمكن النبي ﷺ من ممارسة نوع من القيادة التي مكنت الصحابة من تعلم كيفية تأكيد أنفسهم وأخذ زمام المبادرات.

كان حباب بن المنذر رضي الله عنه مثلاً بارزاً على ذلك في هذه المدة التي نحن بصدددها، فعندما وصل إلى بدر، عسكر النبي ﷺ قرب الآبار الأولى التي وجدها، عندما رأى ابن المنذر رضي الله عنه ذلك، جاء إلى النبي ﷺ وسأله: «أرايت هذا المنزل، أم منزلاً أنزله الله لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» (13). فأكد له النبي ﷺ أن ذلك كان رأيه

الشخصي، عندئذ اقترح ابن المنذر رضي الله عنه خطة أخرى له تقضي بأن ينزلوا قرب أكبر بئر، هو الأدنى من الطريق الذي سيأتي منه العدو، ثم يتم تغوير الآبار الأخرى التي في المنطقة بحيث لا يتمكن العدو من الوصول إلى الماء، وبذلك فإن أعداء المسلمين سيجدون أنفسهم أثناء المعركة، في موقف صعب. وقد أصفى النبي صلى الله عليه وسلم بكليته للإستراتيجية التي شرحها وأقرها على الفور: فتم نقل المعسكر وتم تنفيذ خطة حباب رضي الله عنه.

هذا المثال يدل على أن الصحابة كانوا يميزون بين ما ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من وحي، فيطيعوه دون أدنى تردد، وآراء محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان، التي يمكن مناقشتها، أو حتى رفضها كلياً. فلم تكن سلطة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخص الشؤون البشرية استبدادية مطلقة وغير مقيدة، فقد كان يتيح لصحابته دوراً لا يستهان به في التشاور، وأوجدت تعاليمه، كما رأينا، الظروف التي تمكن من اكتساب تلك القدرات النقدية والإبداعية. لقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته، من نساء ورجال على السواء، الوسائل والثقة التي تمكنهم من الاستقلال ومن الجرأة في مخاطبته ومناقضته دون أن يُعد ذلك عدم احترام لمقامه، فمن خلال هذه المواقف، كان يظهر لهم احترامه العميق لذكائهم ولقلوبهم: أما هم، فقد أحبوا نبيهم، وقائدهم على هذا الاهتمام بهم وقربه منهم، وهذا الطلب بأن يستخدموا قدراتهم إلى أبعد الحدود.

معركة بدر

عندما اتضح أن القافلة قد نجت وأن حرباً واسعة النطاق توشك أن تندلع، حاول محمد صلى الله عليه وسلم ثني قريش عن اختيار الحرب، فأرسل عمر بن

الخطاب ﷺ ليقترح على قريش أن تعود وبذلك تتجنب المواجهة، وكان يوجد أيضاً بين القرشيين من يريد تجنب الحرب، بل إن عُتبة، وهو أحد زعماء مكة، عرض أن يدفع دية لحليفهم الذي قتل في الشهر الحرام. لكن ذلك لم يجد، فقد كان دعاة الحرب من القرشيين مصممين وكانوا يعرفون أن أعدادهم كانت لمصلحتهم. بل إنهم اعتبروا محاولة عمر ﷺ دلالة على الضعف، كانت تلك فرصة عظيمة لهم للقضاء على الجماعة الإسلامية والتخلص من محمد ﷺ.

من جهته، جاءت إلهامات إلى النبي ﷺ ورأى منامات، فقد أدرك أن الحرب ستندلع من هذه المواجهة مع قريش وأن نتيجتها ستكون لمصلحته. فظل يدعو الله ويشجع أصحابه على الصبر والصمود، فقال لهم: «والذي نفس محمد بيده، لا يقتل اليوم أحد، مقاتلاً يبغي الأجر، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله إلى جنته»⁽¹⁴⁾. ثم سجد سجوداً طويلاً داعياً الله أن ينجز له وعده ويحفظ أمته وينصر المسلمين، حتى دعاه أبو بكر ﷺ إلى الكف عن ذلك، حيث إنه كان يعلم أن الله لن يخذله.

كانت المعركة ستجري في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (624 م). وفي الطريق إلى بدر، ذكر النبي ﷺ المسلمين الذين كانوا يريدون أن يصوموا بأن ذلك ليس إلزامياً في حال السفر. «ليس من البر الصيام في السفر، عليكم بالاستفادة من الرخص التي أعطاكم الله إياها، فخذوها»⁽¹⁵⁾. كان يستفاد من كل ظرف من ظروف الحياة تذكرة المسلمين بتعاليم دينهم، وظل النبي ﷺ يؤكد على الرخص الممنوحة للمؤمنين، الذين يتعين عليهم التيسير في ممارسة دينهم وأن

يبشروا ولا ينفروا. «يسّروا ولا تعسروا! بشّروا ولا تنفروا!» (16). وقد تعمد النبي ﷺ شرب الماء على مرأى من الصحابة في تلك المناسبة وذلك ليكون قدوة لهم.

بدأت المعركة بثلاث مبارزات اشترك فيها حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث - رضي الله عنهم - وقد تغلب حمزة وعلي على خصميهما لكن عبيد الله أصيب بجرح خطير، وبدأ القتال وأظهر المسلمون من الثبات ما جعل قريش تنهزم سريعاً، ومع أن أعداد قريش كانت تفوق أعداد المسلمين بثلاثة أضعاف، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه هجوم المسلمين. ونزل الوحي لاحقاً يذكر بتأييد الله المتواصل وملائكته في قلب المعركة، وإنجازه وعده: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمِ أَذِلَّةٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (17). كان هذا النصر نقطة تحول: فقد نال كثيراً من هيبة قريش وسيطرتها وانتشرت أنباء هزيمتها كالنار في الهشيم في أنحاء الجزيرة.

فقد المسلمون أربعة عشر من رجالهم، بينما فقدت قريش ما ينوف عن السبعين، بمن فيهم أبو جهل الذي كان من أشد خصوم الإسلام والذي كان أكثر تلهفاً للمعركة، وكان العباس رضي الله عنه، عم النبي ﷺ الذي كان النبي ﷺ يسّر إليه في مكة، والذي شهد كافة الاستعدادات التي سبقت الهجرة) بين الأسرى القرشيين الذين كان عددهم يفوق السبعين.

في مكة، في المدينة

كانت عودة قريش إلى مكة مؤلمة، وكانت معظم العشائر قد فقدت أفراداً منها. وكان بعضهم قد بدؤوا يطالبون بالانتقام، مثل هند التي فقدت أباهما

وأخاها وعمها في المعركة، وقد أقسمت بأن تشرب من دم حمزة رضي الله عنه الذي قتل أباه وعمها، ولم يضع زعماء قريش الوقت في ردود أفعالهم، فأخذوا يقيمون التحالفات مع المدن والقبائل المجاورة من أجل قتال المسلمين والانتقام لما أصابهم من إذلال ووضع نهاية لوجود المسلمين في الجزيرة.

كان أبو لهب، الذي منعه المرض من الاشتراك في القتال، قد بقي في مكة، وقد طلب من أبي سفيان أن يخبره بما جرى وعن ظروف الهزيمة⁽¹⁸⁾. وفيما كان ذلك الأخير يسرد روايته، لم يستطع أحد الأرقاء، الذي كان جالساً بالقرب منهما، والذي كان قد كتم سر اعتناقه للإسلام، تمالك نفسه من الفرح فاكتشف أمره، فقفز أبو لهب عليه وضربه بوحشية بعد أن طرحه أرضاً، فقامت أم الفضل، زوجة العباس - رضي الله عنهما - التي كانت موجودة أيضاً والتي كانت قد دخلت سراً في الإسلام، واندفعت نحو أبي لهب وهوت عليه بضربة من عمود خيمة.

وقد أصيب جرح رأسه العميق بالتهاب في الأيام اللاحقة ثم انتشر إلى كامل جسمه ومات بعد بضعة أسابيع، كان كل من أبي لهب وزوجته يطلقان العنان لكراهيتهما للإسلام، وقد جاء في القرآن، قبل عدة سنوات، ما ينتظره هو وزوجته من مصير⁽¹⁹⁾. وخلافاً لبعض الطفافة الآخرين الذين غيروا موقفهم في خاتمة المطاف، فإن أبا لهب وامرأته لم يظهرهما أي تعاطف مع رسالة محمد صلوات الله عليه وآله. وقد أكد موت أبي لهب الذي اقترن بالإهانة والعنف، ما ورد في الوحي: فكلاهما كانا سيظلان، حتى النهاية، من الكافرين والمتمردين.

كان المسلمون قد دفنوا موتاهم وكانوا يستعدون للعودة إلى المدينة. كان معهم سبعون أسيراً، جرت مناقشة بشأن مصيرهم بين النبي صلوات الله عليه وآله وأبي

بكر وعمر — رضي الله عنهما —. كان عمر رضي الله عنه يريد أن يقتل الأسرى، وخالفه أبو بكر رضي الله عنه في ذلك، وقرر محمد صلی الله علیه و آله إبقاءهم على قيد الحياة، باستثناء أسيرين كانا شديدي القسوة على المسلمين في مكة، حيث كانوا يذلونهم ويعذبونهم حتى الموت، وكان إبقاء الأسرى يمثل وسيلة أخرى لإذلال مشركي قريش، الذين كانوا سيضطرون إلى الذهاب إلى المدينة ودفع فدية كبيرة (تعود أيضاً على المسلمين بربح كبير). غير أن الوحي نزل لاحقاً معاتباً النبي صلی الله علیه و آله على هذا الخيار، الذي كان الباعث إليه بشكل رئيس الحصول على المال⁽²⁰⁾.

وعلاوة على ذلك، كان الجنود المسلمون قد اختلفوا حول تقاسم الغنائم، وتم الإعراب عن آراء مختلفة بشأن مزايا مختلف فئات الجنود وطريقة توزيع الغنائم. كانت العادات السائدة قبل الإسلام والتي كانت كمية الغنائم التي يتم اكتسابها بعد الحرب تسهم في تحقيق الفخر والشرف للمنتصر، لا تزال عميقة الجذور. وقد أشار التنزيل القرآني إلى هذا النزاع وأوضح بأن الأنفال يجب أن تذهب إلى «الله والرسول»، مما يعني أنه كان يتعين على النبي صلی الله علیه و آله توزيع الغنائم توزيعاً عادلاً حسب أوامر القرآن، وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذا النزاع، وبذلك فقد وضعت نهاية لتلك المنازعات⁽²¹⁾. وقد واجه النبي صلی الله علیه و آله المرة تلو الأخرى مثل تلك المنازعات بين أصحابه، وفي كل مرة كان الوحي أو النبي صلی الله علیه و آله نفسه يذكرهم بأنه يتعين عليهم أن يسألوا أنفسهم عما كانت عليه نواياهم: هل كانوا يسعون وراء الثروة في هذه الدنيا أو السلام في الآخرة؟.

كانوا لا يزالون بشراً، بنقاط ضعفهم والإغراءات التي يتعرضون لها. كانوا بحاجة إلى من يذكرهم وإلى تربية روحية، وإلى الصبر.

وكما هي حال كل شخص، أكانوا قريبين من النبي ﷺ أو في أي زمن من التاريخ البشري، كانوا بحاجة إلى من يذكرهم وإلى التربية الروحية، فالتاريخ يُنبئنا بأنه لا ينبغي أن يعتبر أي شيء أو أي أحد قد بلغ مرتبة الكمال المثالي.

عندما وصلوا إلى المدينة، تم إخبار النبي ﷺ بوفاة ابنته رقية - رضي الله عنها - زوجة عثمان بن عفان ؓ. كان قد فقد حديثاً أول أصحابه، والآن جاءه نبأ رحيل ابنته وهو عائد من غزوة تكلت بالنصر، وذكره مزيج الحزن والفرح بهشاشة الحياة، ومرة أخرى، بعلاقته الأساسية بالواحد الأحد في السراء والضراء، فما من شيء يدوم، وقد تزوج عثمان ؓ لاحقاً أم كلثوم - رضي الله عنها - وهي من بنات النبي ﷺ، بينما تزوج النبي ﷺ حفصة - رضي الله عنها - ابنة عمر ؓ، والتي جاءت لتسكن في أحد بيوت النبي ﷺ قرب المسجد.

وبدأت المساومة مع أقارب الأسرى، فبعض الأقارب قدموا لدفع ما يتوجب عليهم وعادوا بمن افتدوه من أسرتهم. وتم إطلاق سراح بعض الأسرى دون فدية، بينما جرى التعامل مع أفقر الأسرى، كل واحد على حدة، حسب ظروف كل منهم. على سبيل المثال، تعهد الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة والذين لم يكن بوسعهم دفع فدية بأن يعلموا عشرة من شبان المدينة القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحهم، ومرة أخرى برهن النبي ﷺ على أهمية العلم عبر الرسالة التي أرسلها إلى أفراد أمته، فسواء في السلم أو في الحرب، فإن العلم - التعلم والقراءة والكتابة - يوفر للناس مهارات أساسية ويضفي عليهم الكرامة والسمو. فاعلم الذي كان لدى بعض الأسرى كان ثروتهم وأصبح فديتهم.

بنو قنيقاع

اقتربت الشهور التي أعقبت العودة من بدر بصعوبات على الصعيد الإقليمي، فبعد بضعة أيام من العودة من بدر، اضطر النبي ﷺ إلى قيادة قوة من مئتي رجل إلى قريتي بني سليم وبني غطفان في منطقة القُدر للقضاء على مؤامرة ودرء أي أذى، فهرب السكان، أصبح من الواضح الآن أن وضع الجماعة الإسلامية قد تغير، وكانت مدن كثيرة في المنطقة، فضلاً عن الذين لم يبرموا أي حلف، يخشون من القوة العسكرية والسياسية والرمزية التي يكتسبها محمد ﷺ في قلب الجزيرة العربية.

كان النبي ﷺ يتلقى دائماً أنباء استخباراتية عن المبادرات ومحاولات التحالف التي يقوم بها زعماء مكة من أجل إطفاء تعطشهم للثأر، وقد مكّنه منام ملهم من إحباط محاولة اغتيال من قبل عمير بن وهب، الذي بعد أن أصابته الدهشة بشأن ما كان النبي ﷺ قد عرفه عن المحاولة، دخل في الإسلام على الفور، غير أن محمداً ﷺ كان يعلم أن قريشاً ستقوم عما قريب بإجراء واسع النطاق بمساعدة كل القبائل التي استطاعوا حشدها.

بعد عودة النبي ﷺ من بدر، لاحظ أن عدداً من أهل المدينة شعروا بخيبة أمل أو بالقلق جراء نجاح المسلمين، وكان قد عرف عدداً من المنافقين الذين دخلوا في الإسلام بدافع من المصلحة الذاتية والحسابات السياسية، كما أنه كان يعلم أن بعض الذين وقعوا على اتفاقية التحالف التي تم إبرامها أول وصوله إلى المدينة لا يمكن الاعتماد عليهم وأنهم لن يترددوا في الانقلاب عليه عندما تسنح لهم الفرصة، وكان قد نزل وحي على النبي ﷺ يحذره من المنافقين: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذَرْهُمُ﴾

إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَلَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ (22). وظل النبي ﷺ إلى حين، يكتفي بمراقبة أنشطة مختلف الجماعات، ويقبل موثائق المنافقين على ظاهرها ويتقيد بصرامة بشروط الاتفاقية، إذ إن الوحي طلب منه الحرص والحكمة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (23).

كانت قبيلة بني قنيقاع اليهودية هي وحدها التي كانت تقيم داخل المدينة من بين القبائل اليهودية المقيمة في منطقة المدينة، وكانوا قد وقعوا على الميثاق، غير أن أنباء تنبه بالخطر عن الخيانة واحتمال وجود مؤامرة وصلت إلى النبي ﷺ من بين صفوفهم، للتأكد من حقيقة ما يجري، ولتجنب ترك بني قنيقاع يعتقدون بأن بوسعهم التصرف كما يحلو لهم، زارهم النبي ﷺ ودعاهم للتفكير في هزيمة قريش، فرد زعماء بني قنيقاع بصلف بأنهم إذا حاربوه، فإن النتائج لن تكون كما كانت، وأنهم سوف ينتصرون بالتأكيد، كان في الرد الذي ينطوي على التهديد تأكيد لشكوك محمد ﷺ: لقد أصبحوا معادين للمسلمين.

بعد بضعة أيام، ذهبت امرأة مسلمة كعادتها إلى سوق بني قنيقاع. وهناك تعرضت للسخرية والإهانة من قبل أحد التجار الذي ربط رداءها من ظهرها بينما كانت جالسة، فلما وقفت انكشف الجزء الأسفل من جسمها. وأراد رجل مسلم رأى ما جرى أن يتدخل: فبدأ القتال وأسفر عن موت كل من التاجر والرجل المسلم جراء إصابات كل منهما، ف بموجب الميثاق كان يتعين معالجة تلك الحالة من قبل النبي ﷺ وحلها سلمياً وضمن مبادئ العدل والشرف، ولكن بني قنيقاع خانوا العهد عبر محاولتهم التحالف مع ابن أبي سلول، وهو منافق كانوا يساومونه منذ بعض الوقت وكانوا يأملون أن يساعدهم في حشد حلفائهم في المنطقة لقتال المسلمين.

كان رد فعل النبي ﷺ سريعاً، حيث جمع جيشاً وقام بمحاصرة الحصن الذي هرب إليه بنو قتيقاع لحماية أنفسهم، كانوا يأملون أن تأتيهم مساندة خارجية من المدينة من صفوف المسلمين عبر المنافقين الذين دخلوا في الإسلام اسمياً فحسب، والذين كانوا دائماً يطمئنون بني قتيقاع بأنهم كانوا هم أيضاً يرجون القضاء على الجماعة الإسلامية. غير أنه لم يأتهم أي دعم، وبعد حصار استمر أسبوعين استسلم بنو قتيقاع.

وتذكر النبي ﷺ الوحي الذي نزل عليه من أنه ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ رغبة في الحصول على مكسب⁽²⁴⁾. كان له الخيار في قتل رجال القبيلة الذين خانوا العهد ونفي نسايتهم وأطفالهم، كما جرت العادة في الحرب بعد تحقيق النصر، وكان من شأن هذا أن يرسل رسالة صارمة إلى القبائل المجاورة بشأن ما ينتظر كل من يخون الجماعة الإسلامية أو يهاجمها، وكان قد نزل عليه وحي بهذا الصدد: ﴿ فَأَمَّا تَشَفَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾⁽²⁵⁾.

ومع ذلك فقد استقبل النبي ﷺ ابن أبي سلول - الذي كان يعرف نفاقه وتآمره السري - عندما جاء ليشفع لبني قتيقاع، ومرة أخرى، قرر عدم القضاء على أسراه لكنه أمر بمصادرة ممتلكاتهم وبأن يخرجوا من المدينة، فلبجؤوا إلى بعض القبائل الأخرى والجماعات في المنطقة، لكن ذلك لم يمنعهم من التآمر على النبي ﷺ. بل على العكس من ذلك، فإن ما لحق بهم من إذلال في حقبة قريبة العهد زاد من حقدهم: وظل عدد أعداء النبي ﷺ يزداد وحقدهم يتعمق، وكان النبي ﷺ يعرف ذلك حيث ظل يدعو أصحابه إلى الحكمة والصبر، فضلاً عن اليقظة.

الفصل العاشر

التعاليم والهزيمة

ومضت الأيام في المدينة وعلى الرغم من العلاقات المعقدة بين القبائل والحاجة إلى اليقظة الدائمة، واصل محمد ﷺ الدعوة في ضوء ما ينزل عليه من وحي، وكان يتميز دائماً بالجمع بين الإخلاص التام لمبادئه والدفع الإنساني الذي يشع دائماً من وجوده.

وكان الصحابة يتلهفون على صحبته حتى إنهم كانوا يتبادلون الأدوار في صحبته، بغية قضاء أكبر وقت ممكن معه، يستمعون إليه ويتعلمون منه، كانت محبتهم له تتسم بشدة العمق والإخلاص، وكان النبي لا يفتأ يدعوهم إلى تعميق مودتهم ومحبتهم له في الله ونور محبته الأسمى.

اللطف، والاهتمام، والحب

وقد ظل محمد ﷺ في حياته اليومية، برغم انشغاله بالهجمات والخيانات وتعطش أعدائه للثأر، يهتم بالتفاصيل الصغيرة في الحياة، وبتوقعات من حوله، ويجمع دائماً بين الصرامة وسماحة الأخوة والغفران، وكان أصحابه وزوجاته يرونه يصلي الساعات الطوال ليلاً، بعيداً عن الناس، وحده في الصلوات الخافتة والدعوات التي تغذي حواراً مع الواحد الأحد، وكانت زوجته عائشة - رضي الله عنها - تدهش منه وتعجب به: «لَمْ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فأجابها النبي ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ولم يكن يطلب

من أصحابه القيام بالعبادات والصيام والأذكار التي كان يفرضها على نفسه، بل كان على العكس يقول لهم بالاعتدال وتجنب الإفراط، وقد قال لبعض الأصحاب الذين كانوا يريدون العزوف عن حياتهم الجنسية ويصلّون الليل كله أو الصيام المتواصل (من مثل عثمان بن مظعون أو عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما)، فقال لهم: «لا تفعلوا ذلك! صوموا وأفطروا. وصلوا وارقدوا. إن لنفسكم عليكم حقاً وإن لعيونكم عليكم حقاً وإن لزوجاتكم عليكم حقاً، إن لضيوفكم عليكم حقاً»⁽²⁾. مرة قال وردد قوله ثلاث مرات: «هلك المتطعون»⁽³⁾. وفي حديث آخر: «القصد القصد تبلغوا»⁽⁴⁾.

وقد ظل يسعى إلى طمأننة ضمائر المؤمنين الذين كانوا يخافون من نقاط ضعفهم وتقصيرهم، في أحد الأيام، رأى الصحابي حنظلة الأسدي أبا بكر - رضي الله عنهما - وشكا له بأنه على يقين من أنه منافق (نافق حنظلة) لأنه كانت تتنابه حالات متناقضة: ففي حضرة النبي ﷺ كان يكاد يرى الجنة والنار، ولكن عندما يكون بعيداً عنه، فإن زوجته وأولاده وشؤون الدنيا تجعله ينسى ذلك، وقد اعترف أبو بكر ﷺ بأنه يعاني من مشاعر مماثلة، فذهب إلى النبي ﷺ ليسأله عن وضعهما الذي يبعث الوحشة والكآبة في حياتهما الروحية، وقد بسط حنظلة للنبي ﷺ طبيعة شكوكه فأجابه محمد ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصاغتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»⁽⁵⁾. إنها الطبيعة البشرية، التي تتذكر وتنسى والتي تحتاج إلى التذكر لأنها تنسى، لأن البشر ليسوا ملائكة.

وفي مناسبات أخرى، كان يفاجئهم بالقول بأن صدق الصلاة وفعل الخير والقيام بأي عمل عبادة تتجلى في قلب احتياجاتهم البشرية، في الاعتراف المتواضع ببشريتهم. «فالأمر بالمعروف صدقة والنهي عن المنكر صدقة. وفي بضع أحدكم صدقة». فسأل الأصحاب متعجبين: «يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟» فأجاب: «أرايتم إن وضعها في حرام ألا يكون عليها وزر؟ ولهذا فإنه يؤجر على الجماع المشروع»⁽⁶⁾. وهكذا فقد كان يدعوهم أولاً يحرّموا على أنفسهم أو يحتقروا دوافعهم البشرية ويعلمهم أن جوهر الأمر هو ضبط النفس، الجانب الروحي يتمثل في القبول والتحكم في الغرائز على السواء تلبية رغباتهم الطبيعية في ضوء مبادئهم هو صلاة، وليس عملاً سلبياً ولا نفاقاً.

كان النبي ﷺ يكره أن يدع أصحابه نهياً لمشاعر الذنب التي لا طائفة لها، كان لا يفتأ يقول لهم بالألا يتوقفوا عن اللجوء إلى الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، الذي يدخل الجميع في رحمته وكرمه والذي يحب القلوب الصادقة التي تدم على ذنوبها وتتوب إليه، وهذا هو المعنى العميق للتوبة المتاحة لمن يتوب بصدق إلى الله إذا أخطأ أو ارتكب هفوة أو ذنباً، الله يحب الرجوع إليه ويغفر ويظهر من الذنوب، وقد طبق النبي ﷺ نفسه ذلك في عدة مناسبات، ففي يوم جاء بدوي وبال في المسجد. فاندفع إليه الصحابة يريدون ضربه. فمنعهم النبي ﷺ وقال: «دعوه، وصبوا دلواً من الماء على بوله»⁽⁷⁾.

عن عائشة - رضي الله عنها - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «لقد هلكْتُ!» وعندما سأله النبي ﷺ عن السبب اعترف الرجل بأنه «أتى زوجته في نهار رمضان». فأجاب النبي ﷺ: «تصدق!» فأجاب الرجل: «ما

عندي ما أتصدق به!» ثم جلس قريباً من النبي ﷺ. وبعد مدة قصيرة جاء رجل يحمل طعاماً هدية لمحمد ﷺ (8). فتأذى النبي ﷺ: «أين الرجل الذي هلك؟» فأجاب الرجل الأول الذي اعترف بخطئه: «هأنذا» فقال له النبي ﷺ: «خذ هذا الطعام وتصدق به». دُهِش الرجل وقال: «إلى من هو أفقر مني؟ لا يوجد لدى أهلي ما يأكلونه!» فأجاب النبي ﷺ مبتسماً: «كلوه أنتم، إذا» (9).

هذا اللطف وهذه الكياسة كانا يمثلان جوهر تعاليمه، كان لا يفتأ يقول: «اللَّهُ رفيق يحب الرفق في كل شيء» (10). وقال أيضاً: «إنه يعطي على الرفق ما لا يعطيه على العنف أو أي شيء آخر» (11). وقال لأحد أصحابه: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» (12). وكان يدعو جميع أصحابه إلى مواصلة الجهد ليكونوا رفقاء وسِمَاح. «إذا سمعتم عن أخيك شيئاً لا ترضونه فالتمسوا له من واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجدوا أي عذر فقولوا إن له عذراً لا نعرفه» (13).

أقام عدد من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام -الذين لا مأوى لهم وفي كثير من الأحيان ليس لديهم ما يأكلونه- حول المسجد، قرب مسكن النبي ﷺ، وكانوا معدمين (عن عمد في بعض الأحيان، إذ إن بعضهم كانوا يريدون أن يعيشوا حياة الزهد خالية من الممتلكات الدنيوية)، وكان طعامهم يعتمد على صدقات المسلمين وهداياهم، وأخذ عددهم يزداد، وسرعان ما دعاهم المسلمون بعبارة «أهل الصفة» (14). وكان النبي ﷺ شديد الاهتمام بوضعهم، وكان يظهر لهم تعاطفاً متواصلاً، كان يصغي

إليهم ويجب عن أسئلتهم ويلبي احتياجاتهم، وكان من خصائص شخصه وتعاليمه، إزاء أهل الصفة، وغيرهم من جماعته، أنه عندما كان يُسأل عن مسائل تتعلق بالروح أو الإيمان أو التربية أو الشك، كان يقدم إجابات مختلفة عن الأسئلة نفسها، حيث إنه كان يأخذ في الاعتبار التركيبية النفسية للسائل وخبرته وذكاءه.

كان المؤمنون يشعرون بأنه يراهم ويحترمهم ويفهمهم ويحبهم. وقد كان يحبهم في واقع الأمر ويقول لهم ذلك.

ثم إنه كان ينصحهم بأن يتذكروا الإفصاح عن محبتهم لبعضهم. «إذا أحب شخص أخاه أو أخته فليقل له إنه يحبه» (15). وفي يوم ما أخذ بيد معاذ بن جبل وهمس: «يا معاذ، واللّه إني أحبك وأنصحك، يا معاذ، بآلا تتسى أن تقول عقب كل صلاة: اللهم، أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (16). بهذا أعطي الشاب حباً ودرساً روحياً وكان الدرس هو الذي رسخ بعمق لأنه كان محفوظاً بذلك الحب.

نصارى نجران

إن تاريخ زيارة نصارى نجران لمحمد ﷺ غير معروف على وجه التأكيد، بعض المصادر، مثل ابن هشام، يضعها قبل معركة بدر، بينما يقول آخرون إنها جرت، حسب نص يعزى إلى ابن إسحاق (وكذلك استناداً إلى بعض الأحاديث والتسلسل التاريخي لبعض آيات القرآن ذات الصلة بالحدث)، بين معركة بدر ومعركة أُحد، غير أن التاريخ الدقيق لا يسهم كثيراً في خاتمة المطاف. إن الشيء الجوهرى هو طبيعة اللقاء والغرض منه.

لقد زار النبي ﷺ وفد من أربعة عشر زعيماً دينياً من نجران لسؤاله عن الدين الجديد، وعن إيمانه، وبالطبع عن مركز عيسى عليه السلام في الإسلام⁽¹⁷⁾. كانت تعيش في الجزيرة العربية قبائل نصرانية عديدة ويبدو أن معظمهم كانوا يتبعون المذهب الأرثوذكسي، الذي كان مركزه في القسطنطينية، أجاب النبي ﷺ عن أسئلتهم، مشيراً إلى الصلة بين الدينين، حيث إن الإسلام كان استمراراً لرسالة النبي عيسى عليه السلام، لكنه رفض رفضاً باتاً عقيدة الثالوث، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى قبول الإسلام بوصفه آخر وحي السماء، وقد روى القرآن بشكل تفصيلي تلك المقابلة فضلاً عن نقاط التشابه والاختلاف بين التعاليم النصرانية والإسلامية⁽¹⁸⁾. وقد ورد في بداية السورة الثالثة (آل عمران) الإطار المرجعي للإسلام:

﴿الَمْ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ (١٩)﴾.

يؤكد الوحي الاعتراف بالكتب السماوية السابقة التي أنزلت للناس من خلال موسى وعيسى - عليهما السلام - ويضيف بأن القرآن هو جزء من الدين السماوي ذاته، ثم يفصل القرآن لاحقاً تفاصيل الدعوة الموجهة إلى النصارى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (20).

إلى جانب تأكيد وحدانية الله ورفض الثالوث، هذه الآية تشجب مركز ودور الكهنة في النصرانية، فهنا، كما في آيات أخرى أو أحاديث نبوية، تدل الإشارة إلى «الأرباب» المحتملين على أنهم الذين يضعون أنفسهم وسطاء بين الله والناس وبذلك يدعون سلطات دينية غير مشروعة أو تتطوي على الغلو.

رفض وفد نجران قبول رسالة النبي، وقبل المغادرة، أراد أفراد الوفد الصلاة داخل المسجد، وظن الصحابة الموجودون أنه يجدر بهم معارضة ذلك، لكن النبي ﷺ تدخل وقال: (دعوهم يصلوا!) (21) فصلوا في المسجد متوجهين إلى الشرق، وقبل مغادرتهم، طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل مبعوثاً يعيش بينهم ويجيب عن أسئلتهم، وإذا دعت الحاجة، يحكم بينهم في بعض شؤونهم، وتم اختيار أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد اعترف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاحقاً أنه فشل في لفت انتباه النبي ﷺ ليرسله لهذه المهمة.

عاد الوفد إلى موطنه، كان النصارى قد جاؤوا إلى المدينة وسألوا عن الرسالة واستمعوا إلى محتويات الدين الجديد، وطرحوا حججهم وصلوا داخل المسجد ذاته، ثم عادوا دون أن يتعرضوا لأي أذى وظلوا نصارى يتمتعون بكامل الحرية.

ولم ينس الصحابة الأول موقف النبي ﷺ. فقد استخلصوا منه جوهر الاحترام الذي يتطلبه الإسلام من المؤمنين، الذين دعاهم إلى أن يذهبوا إلى أبعد من التسامح وأن يتعلموا ويستمعوا ويتفهموا كرامة الآخرين، إن الأمر ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يتجلى في هذا الموقف الذي يحترم التنوع (22).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (23).

إن الاحترام الذي يتطلبه الله أكثر من التسامح (يستند إلى علاقة مساواة ومعرفة⁽²⁴⁾). الله وحده هو الذي يعلم ما في الصدور ومدى ورع كل فرد، ويذكر القرآن في موضع آخر ويعترف بصدق سعيهم المتواضع وطلبهم لله، على الرغم من أنه يستنكر ويرفض وضع الكهنة وأهل المقامات الدينية.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) (25).

تنص هذه الآية من السورة الخامسة (آخر وصية ينزل بها الوحي) على شروط العلاقة المتميزة بين المسلمين والنصارى، استناداً إلى صفتين أساسيتين: الصدق والتواضع. فدعوة النصارى، وكذلك بقية أصحاب التقاليد الروحية والدينية الآخرين للاجتماع والمشاركة والعيش معاً لما فيه منفعة الطرفين ستظل دائماً تستند إلى الشروط الثلاثة الآتية: محاولة التوصل إلى فهم الطرف الآخر، الصدق (ومن ثم الأمانة) خلال المقابلة والنقاشات، وأخيراً، تعلم التواضع بشأن اعتقاد كل طرف بأنه يملك الحقيقة، تلك هي الرسالة التي حملها النبي ﷺ في علاقته مع المؤمنين

من الأديان الأخرى، وكما يتضح فإنه لم يتردد في مناقضة المعتقدات النصرانية (مثل الثالوث أو ودور القسيسين)، لكن مواقفه كانت تستند في النهاية إلى المعرفة والصدق، والتواضع، وهي شروط الاحترام الثلاثة، وقد غادروا دون قيود واستمر الحوار مع مبعوث النبي ﷺ.

ابنة، زوجة

كانت حياة النبي ﷺ تتسم بالتواضع: كان مسكنه خالياً من الأثاث وكثيراً ما لم يكن لديه سوى بضع تمرات للأكل، ومع ذلك فقد ظل يساعد الفقراء الذين كانوا حوله، لاسيما أهل الصفّة، الذين كانوا يقطنون قريباً من مسكنه، وعندما كان يتلقى الهدايا فإنه كان يجود بها وكان يقوم على الفور بتحرير الرقيق الذين كانوا يرسلون إليه كهدايا في بعض الأحيان: فقد فعل ذلك مع الرقيق أبي رافع الذي أرسله له عمه العباس عندما عاد إلى مكة بعد أن تم تحريره، ورغم ازدياد أهمية دوره في مجتمع المدينة ومسؤولياته العديدة فقد حافظ على هذه البساطة في حياته، وفي الطريقة التي كان يسمح بها لأفراد مجتمعه الاتصال به، لم يكن يملك شيئاً، كان يسمح للنساء والأطفال والرقيق وأقرب الناس بأن يقتربوا منه ويخاطبوه. فقد كان يعيش بينهم وكأنه واحد منهم.

كانت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - قريبة جداً منه، وقد تزوجت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم النبي ﷺ، وانتقلت لتسكن قرب مسكن أبيها وكانت شديدة الاهتمام بالفقراء بمن فيهم أهل الصفّة. وعندما يكون النبي ﷺ في بيته أو بين الناس وتأتي إليه ابنته أو تدخل الغرفة، كان يقف لها ويحييها، ويظهر لها أمام الملأ الاحترام الشديد والحنان، وكان أهل

المدينة وأهل مكة يندهشون من سلوكه إزاء ابنته، التي لم تكن تحظى، في تقاليدهم، بمثل تلك المعاملة، وكان النبي ﷺ يقبل ابنته ويتحدث إليها ويسر لها ويجلسها بجانبه، دون أن يعير أي اهتمام للتعليقات أو حتى الانتقادات التي يمكن أن يثيرها سلوكه. فقد قبل حفيده الحسن، ابن فاطمة - رضي الله عنها - ذات مرة أمام جماعة من البدو الذين ذهلوا لهذا السلوك، وقد أعرب واحد منهم - الأقرع بن حابس - عن صدمته وقال: «لدي عشرة أطفال ولم أقبل أحداً منهم أبداً». فأجاب النبي ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم» (26). فمن خلال القدوة الصامته وملاحظاته، كان النبي ﷺ يعلم شعبه حسن الأخلاق واللفظ واللين واحترام الأطفال، ويبيد الاحترام والانتباه للنساء. وقد قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (27).

كانت فاطمة - رضي الله عنها - تتلقى تلك المحبة وتعاليم الإيمان والحنان من أبيها وتشرها حولها من خلال أعمالها إزاء الفقراء، على أنها في أحد الأيام تحدثت إلى زوجها بشأن ما تعانيه من مشقة: فهما مثل أبيها لا يملكان شيئاً وكانت تشعر بمشقة زائدة في إدارة حياتها اليومية وأسرتها وطفليها، فأشار عليها زوجها بأن تذهب إلى أبيها وتطلب مساعدته، فقد يعطيها أحد الأرقاء الذين أرسلوا له هدايا، فذهبت إليه، لكنها لم تجرؤ على الإفصاح عن طلبها، كان احترامها لوالدها أعمق من أن يسمح لها بذلك، وعندما عادت صامته صفر اليدين قرر علي ﷺ أن يذهب معها وأن يطلب هو نفسه المساعدة من النبي ﷺ. أصغى لهما النبي ﷺ وأخبرهما بأنه لا يستطيع عمل أي شيء لهما، وأن وضعهما أفضل بكثير من وضع أهل الصفة الذين كانوا بحاجة ماسة إلى مساعدته. فما عليهما سوى الصبر. فعادا حزينين وقد خاب أملهما: فعلى الرغم من أنها ابنة النبي ﷺ وهذا ابن عمه، فلم يكن بوسعهما طلب أي امتياز اجتماعي.

في المساء جاء النبي ﷺ إليهما. فأرادا الوقوف لاستقباله، لكنه دخل وجلس بالقرب من فراشهما. وهمس قائلاً: «هل أدلكما على شيء أفضل مما طلبتماه؟» فقبلاً عرضه، فقال لهما: «إنها كلمات علمني إياها جبريل وعليكما ترداها عشر مرات بعد كل صلاة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر» وقبل أن تأويا إلى الفراش عليكما تكرر كل من هذه العبارات ثلاثاً وثلاثين مرة⁽²⁸⁾. لقد أجاب طلب ابنته المادي وهو جالس بقرب فراش ابنته ليلاً شديد الاهتمام باحتياجاتها، بأن أسرَّ إليها شيئاً جاءه من عند الله: علّمها شيئاً روحياً وصلنا عبر العصور ويقوم به كل مسلم يعتبر أنه خاص به في قلب حياته اليومية، كانت فاطمة - رضي الله عنها - مثل زوجها، مثلاً للتقوى والكرم والمحبة، كانت تعيش في ضوء تعاليم أبيها الروحية: العيش على القليل وطلب كل شيء من الواحد الأحد وإعطاء كل شيء من نفسها للآخرين.

بعد سنوات، وفيما كانت جالسة بقرب أبيها، الذي كان في حالة احتضار، بكت بكاءً شديداً عندما همس في أذنها، إن الله دعاه إليه وأنه حان وقت ذهابه، وابتسمت ابتسامة السعادة، بعد بضع دقائق، عندما أسرَّ إليها - هذا الأسرار، المليء بالحنان كان يكشف على ما يبدو عن جوهر هذه العلاقة بين الأب وابنته - أنها ستكون أول من يلحق به من أهله.

نشأت عائشة - رضي الله عنها - زوجة النبي ﷺ، أيضاً على مثال محمد ﷺ وأحاديثه، كان كل شيء يقود إلى تعليم روحي، وقد أصبحت لاحقاً مصدراً للمعلومات عن شخصية الرسول ﷺ وموقفه في حياته الخاصة والتزاماته الاجتماعية، فقد روت كيف أن محمداً ﷺ كان يهتم

بتوقعاتها ورغباتها عندما جاءت إلى بيته في المدينة، رغم صغر سنها في ذلك الوقت، كان اللعب جزءاً من حياتهما، ولم يمتنع محمد ﷺ أبداً عن المشاركة فيه أو عن السماح لها بإشباع فضولها، كما حدث عندما زاره وفد من الحبشة، فقد قام الحبشيون بألعاب مختلفة ورقصات تقليدية في فناء دار النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقف على عتبة مسكنه، متيحاً المجال لزوجته لمشاهدة الألعاب بحرية من خلف كتفه⁽²⁹⁾. وقد تحدثت كثيراً عن الطابع الخاص لاهتمامه بها وعن تعابير حنانه وما كان يتيح لها من حرية في حياتها اليومية، وتدل محتويات الأحاديث النبوية التي روتها لاحقاً على مدى ما كان يحدثها به النبي ﷺ ويتحدث معها ويعبر لها عن حبه وحنانه، فقد كان يقوم أمامها - عبر سلوكه إزاء زوجته الذي كان قدوة - بإصلاح عادات المهاجرين والأنصار.

نزل الوحي بالآيتين المتعلقةتين بلباس النساء في السنة الثانية للهجرة تقريباً⁽³⁰⁾. كان الخمار عبارة عن قطعة من القماش تضعها النساء فوق رؤوسهن ويلقن أطرافها على ظهورهن: وقد أمر القرآن النساء المسلمات بأن يضربن بالنهايات إلى الأمام لتغطية صدورهن بحيث تتم تغطية حناجرهن، وقد أطاعت زوجات النبي ﷺ، مثل بقية النساء، ذلك الأمر. ولم يتم تحديد وضعهن بوصفهن «زوجات النبي» إلا بعد سنتين، وذلك كي لا يخاطبن الرجال إلا من وراء حجاب، وقبل نزول الآيات التي تأمر زوجات النبي ﷺ بأن يقرن في بيوتهن بعيداً عن أنظار الرجال، تصرف عائشة - رضي الله عنها - مثل بقية النساء الأخريات وكانت تظهر في الحياة العامة للمدينة. وقد أشركها النبي ﷺ وأراد أن يفهم أصحابه، من خلال الاقتداء بها، الدور الذي تقوم به النساء، ولا سيما زوجاتهم، في الحياة اليومية وفي الحياة العامة.

في يوم من الأيام دعا جار فارسي النبي ﷺ لتناول الطعام عنده، وسأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» مشيراً إلى زوجته عائشة - رضي الله عنها .

فأجاب الرجل بالنفي، إشارة منه إلى أن الدعوة كانت موجهة إليه وحده، فرفض محمد ﷺ الدعوة، ودعاه الجار ثانية بعد فترة من الوقت، وسأل النبي ﷺ ثانية: «وماذا عنها؟»، وأجاب الفارسي بالنفي، ورفض محمد ﷺ الدعوة ثانية. ودعاه الجار للمرة الثالثة، وعندما سأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» أجاب الرجل بالإيجاب، فقبل النبي ﷺ الدعوة وذهب إلى بيت جاره مع عائشة - رضي الله عنها - ⁽³¹⁾. فمن خلال اتخاذ المواقف الثابتة، كان النبي ﷺ يصلح العادات والممارسات التي كانت منتشرة لدى العرب والبدو في الجزيرة دون مهاجمة تقاليدهم.

كانت لعائشة، ولخديجة قبلها - رضي الله عنهما، بل لجميع زوجات النبي ﷺ وبناته وجود في حياته، وكن نشيطات في الحياة العامة ولم يخلطن أبداً الاحتشام بالتوازي عن المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أو حتى العسكري.

فقد منحهن النبي ﷺ وسائل الحياة والتطور والإعراب عن أنفسهن ويمارسن النقد وتجنب الحياء الزائف وكن يتحدثن في المواضيع الحرجة ذات الصلة بالمرأة وجسمها ورغباتها وآمالها، وفي سنوات لاحقة أعادت عائشة - رضي الله عنها - إلى الأذهان باحترام وإعجاب تلك الجرأة الفكرية لدى نساء الأنصار اللواتي، كن، بخلاف النساء المكيات، يجرؤن على التعبير عن أنفسهن ويسألن أسئلة مباشرة: «بوركت نساء الأنصار»

لم يمنعهم حياؤهن عن طلب العلم (بشأن دينهن) (32). وكانت هي قد تعلمت بالطريقة نفسها على يد النبي ﷺ: فقد كانت موجودةً عند نزول الوحي، وبقيت إلى جانب النبي ﷺ عند تبليغه للرسالة أو تقديمه التوصيات والنصائح، أو حين كان بمفرده يعيش دينه في معزل عن الناس، كانت تصغي وتسال وتحاول أن تفهم أسباب ومعنى تصرفات زوجها ومواقفه، ولقد بلغنا، بفضل ذاكرتها وذكائها وعقلها النقدي، ما يقدّر بألفي حديث ونيّف، وكانت دائماً تصح الروايات الصادرة عن الصحابة الآخرين.

كان ما أظهره النبي ﷺ وعائشة - رضي الله عنها - من حب لبعضهما قوياً وعميقاً، ولم تكن عائشة - رضي الله عنها - تتردد في أن تروي موقفه المتصف بالحنان والحب في حياتهما اليومية، ودفع عاطفته واهتمامه، حتى في شهر رمضان، كما أنها روت الأسئلة التي كانت تطرحها على النبي ﷺ بشأن شدة حبه لها، وعن غيرها من خديجة - رضي الله عنها - المتوفاة وطريقة النبي ﷺ في إيجاد الوسائل دائماً لطمأنتها، لقد مكن وجود عائشة - رضي الله عنها - المحبة واليقظة والذكية إلى حد كبير - من رسم صورة دقيقة وعميقة عن الرسول ﷺ.

وفي السنة الخامسة أو السادسة للهجرة كانت ستعرض لأضعف موقف في حياتهما، ففي طريق العودة من غزوة بني المصطلق، لاحظت عائشة - رضي الله عنها - أنها فقدت قلادتها فذهبت تبحث عنها، في غضون ذلك، انطلقت القافلة دون أن تنتبه إلى غياب عائشة - رضي الله عنها - التي كانت عادة تركب في هودج متوارية عن الأنظار،

فأوصلها في خاتمة المطاف رجل، هو صفوان بن المعطل، الذي كان خلف الجيش. فبدأت الإشاعات تنتشر عن علاقاتها بصفوان واتهمت في خاتمة المطاف بأنها خانت النبي ﷺ وخدعته، تأثر النبي ﷺ كثيراً، لا سيما أن بعض الصحابة كانوا يشنون حملة ضد زوجته، ويشيعون الإفك عنها، ابتعد النبي ﷺ عنها مدة شهر، لكنها ظلت صامدة وظلت تؤكد براءتها. ثم نزلت آيات لا تثبت براءتها فحسب، بل أيضاً تدين القذف وتشويه السمعة والذين يفعلون ذلك، ووضع شروط صارمة جداً بشأن الدليل الذي يجب أن يقدم من أجل الحكم على سلوك للمرأة أو للرجل فيه وضع غامض أو مريب⁽³³⁾.

هذه المحنة أزعجت عائشة - رضي الله عنها - والنبي ﷺ في أول الأمر، لكنها عززت حبهما وثقتهما في خاتمة المطاف، وعلى صعيد أعم، أدركت الجماعة الإسلامية أن المحن قد تصيب أخيارهم كما أن الوحي دان بشدة النميمة والقذف وتشويه السمعة، مذكراً المسلمين بـ «حفظ ألسنتهم» كما قال النبي لاحقاً⁽³⁴⁾. وقد استعادت عائشة - رضي الله عنها - مركزها وأصبحت مرجعاً بشأن المعرفة والعلوم الإسلامية. وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بقوله: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»⁽³⁵⁾. وظلت عائشة - رضي الله عنها - فوق الشكوك والريب، صادقة في إيمانها وحبها للنبي ﷺ، وأصبحت قدوة في ورعها وتقواها وفي التزاماتها الفكرية والاجتماعية، كانت نموذجاً رائعاً من حيث ما أظهره النبي ﷺ من حب لها: ففي غرفتها أراد النبي ﷺ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهناك جرى دفنه.

أحد

علاوة على الشؤون الخاصة وتعاليمه الروحية والاجتماعية ظل النبي ﷺ يقضاً بشأن أمن مسلمي المدينة، وكان يعرف أن قريشاً تستعد للنثار. وقد جاءه خطاب من عمه العباس - رضي الله عنه - يقول له فيه إن جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ونيف قد انطلق متجهاً إلى المدينة، ولم يكن أمام النبي ﷺ سوى أسبوع واحد لوضع إستراتيجيته وتنظيم مقاومته. فقرر القيام على الفور بعقد اجتماع تشاوري ليعرف آراء صحابته بشأن المسألة، كان عليهم أن يختاروا بين البقاء داخل المدينة وانتظار دخول العدو، كي يوقعوه بكمين، وبين الخروج من المدينة ومواجهة العدو مباشرة في سهل قريب من المدينة. كان النبي ﷺ يرى، هو والكثيرون من أصحابه، بمن في ذلك عبد الله بن أبي سلول الذي لا يوثق به، أن ينتظروا العدو داخل المدينة، غير أنه لم يؤخذ برأيه في المناقشات، لاسيما من خلال معارضة الشبان من الصحابة الذين لم يشتركوا في معركة بدر: كانوا يأملون في أن يحققوا في المعركة الوشيكة ما حققه المقاتلون في بدر من فخار.

كان رأي الأكثرية الخروج من المدينة ومواجهة العدو وجهاً لوجه، فقبل محمد ﷺ القرار وانطلق على الفور إلى منزله ليرتدي عدة الحرب، لأنه لم يكن لديهم وقت يضيعونه، وقد شعر بعض الصحابة بالذنب ورأوا أنه قد يكون من الأفضل لهم أن يطيعوا النبي ﷺ. فجاؤوا إليه فيما كان خارجاً من بيته، واقترحوا أن يعاد النظر في القرار، وأنه يتعين عليهم قبول رأيه، فرفض رفضاً قاطعاً: فقد تم اتخاذ القرار بشكل جماعي وقد ارتدى عدة الحرب ولم يكن يوجد أي احتمال في الرجوع عن القرار.

انطلقوا إلى أحد، كان جيش المسلمين مكوناً من ألف مقاتل عليه مواجهة عدو مكون من ثلاثة آلاف، وفي طريقهم إلى أحد، قرر عبد الله ابن أبي بن سلول التخلي عنهم وتبعه ثلاث مئة من رجاله، وقد انحنى ابن أبي سلول باللائمة على النبي ﷺ لأنه سمح لأشخاص صغيرو السن وليس لهم تجارب أن يؤثروا عليه، بدلاً من أن يتخذ هو القرار، الذي كان قراره هو أيضاً - بالبقاء في المدينة وانتظار العدو، كان تخليه مسألة خطيرة، حيث إنه خفض إلى سبع مئة مقاتل الجيش الإسلامي الذي لم يعد بوسعه تغيير إستراتيجيته والعودة إلى المدينة، كان نفاق ابن أبي سلول معروفاً وكان موضع شك في أنه قام بعدة خيانات: ذلك القرار، قبيل المواجهة، كان دليلاً إضافياً على ازدواجيته ونفاقه.

ومضى المسلمون قدماً، رغم أن عددهم قد انخفض وأدى إلى إضعافهم كثيراً، وفي الطريق، رأى النبي ﷺ ستة من الشبان تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وست عشرة سنة قد اختلطوا بالجيش، فقام على الفور بإرجاع أربعة منهم كانوا أصغر مما ينبغي، ووافق على إبقاء اثنين عمرهما خمس عشرة وست عشرة سنة أثبتا له على الفور أنهما أفضل في الرمي والقتال من الكثيرين من الرجال، كان قرار قبولهما في هذا الموقف صعباً لكن النبي ﷺ كان دائماً يصر على إبعاد الأطفال من مناطق المعارك، كجنود وكضحايا محتملين على السواء، وقد كرّر ذلك بشدة، كما سنرى، قبل إحدى الغزوات الأخيرة، وظلت هذه الرسالة، المتعلقة بأخلاق الحرب ثابتة في رسالته.

كان يتعين على جيش المسلمين إيجاد طريق غير ظاهر إلى أحد من شأنه أن يمكن الجيش من الاقتراب من أرض المعركة دون أن يتوقع العدو

قدومهم أو أن يكتشفهم، ومرة أخرى أولى النبي ﷺ ثقته لدليل غير مسلم استجاب لدعوته وكانت قدراته معروفة فقاد الجيش إلى مقصده. أخذ المسلمون مواقعهم وشرح النبي ﷺ إستراتيجيته القتالية لجنوده. فقد أمر الرماة بالبقاء على رأس تلة، على أن يقوم الفرسان والجنود بمهاجمة العدو مباشرة في السهل، وأمر الرماة ألا يغادروا أماكنهم في أي ظرف من الظروف، سواء أكان الجنود في الأسفل منتصرين أو منهزمين، وذلك لمنع قريش من إتيانهم من خلف التلة ومهاجمة الجنود من الخلف، كان هذا في الواقع، ما حاولت إحدى بعض مجموعات من قريش القيام به منذ أول المعركة، لكنهم قبلوا بوابل من السهام أجبرتهم على التراجع، كانت الإستراتيجية تعمل بنجاح.

بدأ القتال، وفي السهل كان الجنود المسلمون يحققون السيطرة شيئاً فشيئاً، وكانت قريش تتراجع وتتكد خسائر فادحة، بينما أظهر المهاجرون والأنصار شجاعة تدعو إلى الإعجاب، وقد برز بين هؤلاء المقاتلين امرأتان بما أظهرتاه من بأس وقوة: أم سليم، وخاصة امرأة من الأنصار اسمها نسيبة بنت كعب — رضي الله عنها — كانت قد جاءت في أول الأمر تحمل الماء وتعتني بالجرحي، ونزلت في خاتمة المطاف إلى المعركة وأخذت سيفاً وقاتلت قريشاً⁽³⁶⁾.

ولم يقم النبي ﷺ أبداً بدعوة أو نصح النساء بالقتال، ولكن عندما شاهد روح نسيبة المعنوية وبأسها في المعركة، أثنى على سلوكها ودعا الله أن يحميها وينصرها ويمنحها النجاح.

أصبح من الواضح أن المسلمين كانوا متفوقين ومنتصرين، رغم

النكسات وموت بعض الصحابة. كان حمزة رضي الله عنه، عم النبي صلى الله عليه وسلم هدفاً لثأر هند منذ الهزيمة في بدر. وقد تم تكليف وحشي، وهو حبشي من رماة الرمح، بمهمة واحدة وهي قتل حمزة رضي الله عنه، وهذا ما ركز جهده على القيام به: ففيما كان عم النبي صلى الله عليه وسلم منهمكاً في القتال، اقترب منه وحشي وقذف رمحه بدقة بالغة فأصابه وقتله على الفور. وجاءت هند لاحقاً تبحث عن جسم حمزة رضي الله عنه في ميدان المعركة وبعد أن مضت كبده وحقت بذلك ما نذرت من شرب دمه ثأراً لموت ذويها، أخذت تمثل به، فقطعت أذنيه وأنفه وعلقتها حول رقبتها⁽³⁷⁾.

ومع ذلك، أظهر سير المعركة أن النصر سيحالف المسلمين الذين ظلوا يدفعون إلى الأمام بينما كانت قريش تتراجع، تاركين خلفهم مطاياهم وحاجياتهم، رأى الرماة المتمركزين على التل مجرى الأحداث الذي أصبح لمصلحة المسلمين وأن النصر قريب، لاسيما الغنائم التي كانت ملقاة في متناول الجنود الآخرين، الذين كانوا، خلافاً لهم، يقاتلون في المقدمة. فنسوا أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة قائدهم عبد الله بن جبير: ولم يبق على التل سوى عدد قليل من الرماة، بينما اندفع نحو أربعين رجلاً منهم إلى سفح التل، وهم قانعون بأن النصر قد تحقق وأنه يحق لهم أيضاً الحصول على حصة من الغنائم، وقد لاحظ خالد بن الوليد، الخبير بالتكتيك الحربي والذي كان يقود إحدى مجموعات قريش، حركة الرماة وقرر القيام على الفور بالانقضاض حول التل ومهاجمة الجنود والمسلمين من الخلف، ونجح في شن هجوم كماشة على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأدى ذلك إلى حدوث فوضى تامة وتفرق المقاتلون المسلمون في حالة من الفوضى الكاملة، فقتل

البعض وفر البعض الآخر، بينما ظل آخرون يقاتلون دون أن يعرفوا حقاً إلى أين يوجهون ضرباتهم، وقد تعرض النبي ﷺ للهجوم وسقط عن مطيته، وكسرت إحدى أسنانه وانغرست حلقات خوذته في اللحم الدامي لخدمه. وانتشرت إشاعة بأن النبي ﷺ قد قتل، الأمر الذي زاد من حدة الفوضى بين المسلمين، ثم قام بعض الصحابة بحمله على مطيته ووفروا له الحماية بحيث مكنوه من تفادي مهاجميه، وتمكن المسلمون من الانسحاب من أرض المعركة، حيث كانت تزداد صعوبة رؤية ما كان يجري، وتجمعوا لمواجهة العدو ثانية، إذا دعت الحاجة لذلك، وبعد انتهاء القتال لم يقتل من قريش سوى اثنين وعشرين، بينما بلغ عدد القتلى سبعين بين المسلمين، الذين كان من الواضح أنهم هزموا في ساحة القتال كما هزموا رمزياً.

كانت لمخالفة الرماة للأوامر عواقب مثيرة، فقد استجاب الرماة إلى إغراء الثروة والربح وغلبت عليهم الممارسات السابقة من ماضيهم الجاهلي، فرغم أنهم تشربوا رسالة الإيمان بالله الواحد الأحد وبمبادئ العدل والعزوف عن مغريات الدنيا، إلا أنهم نسوا فجأة كل شيء عند رؤية الغنائم في المتناول، ففي تقاليدهم الوثنية كانت الانتصارات الحربية تقاس بمقدار الغنائم التي يجنيها المنتصرون، فهذا الجزء من كيانهم وثافتهم قد تغلب على تربيتهم الروحية، وكانت النتيجة أن المسلمين وقعوا في فخ إستراتيجية رجل عسكري فذ، هو خالد بن الوليد، الذي سوف يدخل في الإسلام بعد بضع سنوات ويصبح البطل الحربي للأمة الإسلامية. فتلك اللحظة في المواجهة التي جرت في أحد كانت درساً عميقاً: فالبشر لا يستطيعون أبداً التغلب التام على الثقافة والخبرات التي شكلت ماضيهم،

ولا يمكن أبداً إصدار حكم نهائي بشأن ما ستكون عليه خياراتهم النهائية. فقد وقع المسلمون فريسة لسمّة مؤسفة في عاداتهم الماضية، أما خالد بن الوليد فسوف يتحول من شأنه أن يحوكل الأحكام التي كانت قد صدرت بشأن ماضيه. «ما من شيء يدوم» هو درس في التواضع، «ويجب ألا يصدر المرء أحكاماً نهائية» هو وعد بالأمل.

نقلت قريش موتاهما وحاجياتها، وسأل أبو سفيان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مصير النبي صلى الله عليه وسلم وتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة، وعندما رجع المسلمون بدورهم إلى أرض المعركة، رأوا الجثث التي تم التمثيل بها، وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم تأثراً بالغاً لدى رؤية عمه حمزة رضي الله عنه. وفي لحظة غضب، قال إنه سوف يثار لحمزة رضي الله عنه ويمثل بثلاثين من جثث العدو في المواجهة المقبلة معه، لكن الوحي ذكره بالنظام والاعتدال والصبر: ﴿وَلَيْنَ صَبْرٌ لَّهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (38). أمر النبي صلى الله عليه وسلم باحترام أجساد الأحياء والأموات، وبعدم ممارسة التعذيب أو التمثيل أو التشجيع عليهما، وذلك باسم احترام الخلق وكرامة الإنسان (39).

هزيمة ومبدأ

عاد المسلمون إلى المدينة، متخنين بالجراح وبخيبة الأمل والأسى جراء ما أصابهم: كان عدد قتلاهم كبيراً وكانت هزيمتهم ناجمة من عصيان الأوامر بدافع الجشع وطلب الغنائم، وقد أصيب النبي صلى الله عليه وسلم بجراح وكانت قريش بالتأكيد ستستعيد كبرياءها ومركزها في الجزيرة العربية. عند الوصول إلى المدينة سارع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطلب من الذين اشتركوا في معركة أحد -

وحتى الجرحى منهم - أن يستعدوا لحملة أخرى ورفض عرض عبد الله بن أبي في أن ينضم إليهم، حيث إنه فر من الجيش قبيل المعركة، لكن النبي ﷺ لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية، فذهب إلى الحمراء، وعسكر هناك، وطلب من كل واحد من رجاله أن يعد عشر شعلات من النيران ويشعلها في الليل، هذه النيران أوحى للمشاهدين من بُعد بوجود جيش ضخم يتحرك.

قام محمد ﷺ بهذه المناورة ليؤحي إلى قريش بأنه يستعد إلى رد فوزي وأن مهاجمة المدينة ستكون محفوفة بالخطر، وأرسل مبعوثاً (وثنياً أيضاً) إلى أبي سفيان لإبلاغه بهذا الحشد الخارق للجنود المسلمين، وقد ترك ذلك أثراً كبيراً في نفس أبي سفيان، رغم أنه كان عازماً على استغلال ضعف المسلمين وتوجيه ضربة نهائية لهم في قلب المدينة، إلا أنه غير رأيه وقرر عدم مهاجمة المدينة، وانتهى الأمر هنا: غادرت حملة محمد ﷺ الحمراء بعد ثلاثة أيام وعادت الحياة إلى مجراها.

في الأيام التي تلت نزل وحي على النبي ﷺ بشأن معركة أحد، ولاسيما بشأن الخلافات المتعلقة بالخيارات الإستراتيجية وعصيان الأوامر والهزيمة، ثم بموقف النبي ﷺ. فبقي النبي ﷺ رابط الجأش ومتعاطفاً مع أصحابه الذين انساقوا وراء رغبة المغانم وعصوا أوامره، روى الوحي الحدث وأكد ما قلناه في بداية هذا الفصل، بشأن المزيج المتواصل بين احترام المبادئ وقوة شخصية النبي ﷺ ولطفه:

﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (40).

لقد بدأت سلسلة الأحداث التي أدت إلى الهزيمة بالقرار الذي تم اتخاذه خلافاً لرأي النبي ﷺ، ثم جاء، بالطبع، عصيان الأوامر من جانب الرماة، لقد أكد القرآن هنا مبدأ الشورى مهما كانت النتائج: هذا الوحي ذو أهمية حاسمة، فقد ذكر أن مبدأ المشاورة وقرار الأكثرية يجب ألا يكون موضع نقاش ويجب احترامه رغم الاحتمالات التاريخية والأخطاء البشرية في اتخاذ القرارات، لذا، فالمسلمون هم الذين «يصرفون شؤونهم بالتشاور فيما بينهم»، وهذا المبدأ يجب أن يبقى سارياً رغم أن طرق إنفاذه لا بد أن تتغير مع الزمن ومن مكان لآخر⁽⁴¹⁾.

وفيما يتعلق بعصيان الرماة للأوامر، فقد بين الوحي أن صفات النبي ﷺ الخلقية هي التي مكنته من التغلب على الموقف وإبقاء الصحابة حوله، فلم يكن يشعر بالمرارة ولا بالقسوة ولم يحكم بإدانتهم لانسياقهم وراء الجشع المنبثق عن عاداتهم الماضية، فقد خفف لطفه عنهم ألهم ومكنهم من اشتقاق عدة دروس من تلك النكسة: فقد كان الله مع قدرهم بقدر ما كانوا هم يشعرون بأنهم مسؤولون عنه، وكما أنه لا يوجد مجال للجبرية في تعاليم الوحي، فإنه لم يكن هناك مجال للتفاوض الهوائي بأن طريقهم سيكون سهلاً لمجرد أنهم يقاتلون في سبيل الله، بل على العكس، فإن الإيمان يقتضي شدة الحرص من حيث احترام المبادئ، والمزيد من المشاعر في العلاقات الإنسانية، والمزيد من الحذر بشأن خطر التواكل.

لقد كانت معركة أحد ذلك الدرس في الهشاشة، وقد ذكر النبي ﷺ الجريح، بعد المعركة، أن أي شيء قد يحدث: فقد عبر دمه عن بشريته الصارخة وأعادها إلى الأذهان.

الفصل الحادي عشر

الخدع والخيانة

أصبح الوضع صعباً بالنسبة للمسلمين في المدينة، فقد أدت هزيمة أحد إلى عواقب متعددة، لم يكن أقلها فقد هيبتهم في نظر القبائل المجاورة التي أصبحت تنظر إليهم نظرة مختلفة وتعتقد أنهم ضعاف المنعة، وأن وضعهم أصبح ضعيفاً، وتم حشد حملات عديدة ضدهم في محاولة لاستغلال ذلك الوضع، أما محمد ﷺ، الذي كان تأتية في بعض الأحيان تحذيرات بشأن هجمات مزمعة على المدينة، فكان يرسل رجاله - بجماعات مكونة من 100 إلى 150 رجلاً - إلى مختلف القبائل لتهديتهم أو منع عدوانهم، وقد حفلت السنة الرابعة بعد الهجرة (262م) بمثل تلك الصراعات المحلية الطفيفة، والتي عملت مع ذلك على تعديل (وفي بعض الأحيان تثبيت) المخالفات أو ميزان القوى في المنطقة، وكان هذا يشبه نوعاً من لعبة الشطرنج بين قريش ومسلمي المدينة، وكان الطرفان يدركان أن مواجهة واسعة النطاق لا بد قادمة، ولم يخف أهل مكة رغبتهم في استئصال الجماعة الإسلامية من الجزيرة، وظلوا - لهذا الغرض - يقيمون التحالفات مع القبائل المجاورة، وكان وضعهم يزداد صعوبة لأن الطرقات التجارية المباشرة في الشمال، المؤدية إلى بلاد الشام والعراق عن طريق الساحل، لاتزال موضع رقابة المدينة وسيطرتها، لذا فقد شعرت قريش بأنه يتعين عليهم اتخاذ إجراءات سريعة وجذرية بغية استغلال هشاشة المسلمين بعد الهزيمة وتحرير الطرقات التي كانت قوافلهم تحتاج إليها في الذهاب إلى الشمال، على السواء.

بنو النضير

أخذ الكثيرون من المسلمين أسرى في تلك السنوات حيث كانوا يقعون في الكمائن أو يتغلب عليهم أعداؤهم بكثرة عددهم، وكانوا كثيراً ما يعذبون أو يقتلون قتلاً مريعاً، وقد روت الأحاديث شجاعتهم وصبرهم وعزتهم في مواجهة الموت، وفي معظم الأحيان كانوا يطلبون -مثل حبيب- السماح لهم بأن يصلوا ركعتين قبل قتلهم، وكانوا يطيلون تلك الركعات في الدعاء إلى الله الأحد، الذي ضحوا بممتلكاتهم وحياتهم في سبيله، في أحد الأيام، جاء رجل من قبيلة بني أمير واسمه براء إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يرسل معه مجموعة من أربعين من المسلمين ليعلموا القبيلة كلها مبادئ الإسلام. وقد أعرب محمد ﷺ، الذي كانت تصله أنباء التحالفات المحلية، عن خوفه من احتمال تعرضهم لهجمات القبائل الأخرى المعادية للإسلام أو التي أبرمت تحالفاً مع قريش. فتعهد له البراء بحمايتهم من قبل بني أمير الذين كانوا يتمتعون بهيبة كبيرة والذين يعتمدون أيضاً على تحالفات عديدة، غير أنه لم يأخذ بالحسبان النزاع الداخلي ضمن عشيرة بني أمير، وقد عمل ابن أخ براء ذاته على قتل دليل مجموعة المسلمين (الذي كان يحمل رسالة من النبي ﷺ)، ثم عندما رأى أن عشيرته ستحافظ على عهد الحماية الذي قدمه عمه، كلّف عشيرتين أخريين بقتل مجموعة المسلمين كلها قرب قبر المناخ، عدا رجلين استطاعا الفرار حيث إنهما كانا قد ذهبا لإحضار الماء⁽¹⁾. وقد فضّل أحدهما أن يموت وهو يقاتل، بينما عاد الثاني، وهو عمرو بن أمية، إلى المدينة ليخبر النبي ﷺ بأن رجاله قد قتلوا، وبينما هو في طريقه صادف اثنين من بني عامر ظن أنهما مسؤولان عن الكمين فقتلتهما ثأراً للمسلمين،

وقد شعر النبي ﷺ بالحزن العميق لما جرى لرجاله، فقد كان ذلك يدل على أن الوضع يزداد خطراً وأن التحالفات والخيانات كانت تأخذ أشكالاً معقدة وخفية، كان بنو عمرو أوفياء للعهد الذي قطعه البراء ولذا فلم يكونوا هم المسؤولين عن قتل رجاله، وقرر النبي ﷺ الذي يلتزم التزاماً شديداً بعهوده، على الفور، بأن تُدفع دية الرجلين اللذين قتلتهما عمرو خطأً. فقرر الذهاب إلى يهود بني النضير يطلب منهم المشاركة في دفع دية القتيلين، إذ إن ذلك كان جزءاً من اتفاقية المساعدة المتبادلة بينهما، وكان محمد ﷺ يعرف أن بني النضير قد أصبحوا، منذ النفي الذي فرض على بني قينقاع، يشكون فيه، إن لم يكونوا معادين له وأنهم أقاموا صلوات مع قبائل معادية للمسلمين، لذا فقد كان بالغ الحذر.

فقام بزيارتهم مع أصحابه المقربين، بمن فيهم أبو بكر وعمر وعلي -رضي الله عنهم-. كان تصرف بني النضير غريباً، ولم يفصح زعمائهم، ومن بينهم حيي، عن أي خطوات عملية لدفع دين الدية. فغابوا عن الأنظار فجأة، بحجة إعداد الطعام وجمع المبلغ اللازم، وقد شعر النبي ﷺ بحدسه أن زعماء بني النضير كانوا عازمين على الشر، فتهض وغادر المكان بهدوء، وظن أصحابه أنه سيعود. وعندما لم يعد، غادروا هم أيضاً المكان وتبعوه إلى منزله، حيث أخبرهم عما شعر بحدسه وأنبأهم بأن جبريل أخبره بأن بني النضير كانوا يريدون قتله، وهو ما أكدته سلوكهم الغريب أثناء وجود الوفد المسلم. لقد جعلت خيانة بني النضير، الذين كانوا يسكنون ضمن المدينة ذاتها، من المتعذر على المسلمين وضع إستراتيجية دفاعية، كان على النبي ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة.

فأرسل محمد بن مسلمة إلى بني النضير ليخبرهم بأنهم خانوا اتفاقية المساعدة المتبادلة وأن أمامهم عشرة أيام لمغادرة المكان مع نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، وإلا فإنهم سيقتلون.

شعر بنو النضير بالحزن واستعدوا للمغادرة، لكن عبد الله بن أبي ابن سلول، المنافق، ذهب إليهم ونصحهم بعدم مغادرة المدينة، وتعهد بأن يقدم لهم مساندته الأكيدة من الداخل، وقد استمع إليه رؤساء بني النضير وأبلغوا محمداً ﷺ بأنهم لن يغادروا المدينة، كان هذا، عملياً، إعلان حرب.

قرر النبي ﷺ على الفور محاصرة الحصن الذي لجأ إليه بنو النضير. وقد دهشوا في أول الأمر من ذلك الإجراء السريع، لكنهم كانوا يأملون بأن يأتي ابن أبي أو حلفاؤهم، أي قبيلة بني قريظة اليهودية، لإنقاذهم لكنهم لم يأتوا، وبعد عشرة أيام أصبح الوضع لا يطاق بالنسبة لهم، في هذا الوقت قرر النبي ﷺ أن يقطع أطول أشجار النخيل، التي كانت ترى من الداخل، والتي كانت خارج الحصن. وكانت أشجار النخيل أثمن مورد للمدينة. في قطع محمد ﷺ لهذه الأشجار كان يحاول إقناعهم بأنه لن يبقى أي شيء ذو قيمة في المدينة، كانت تلك المرة الوحيدة التي ألتف فيها محمد ﷺ الشجر أو أي شيء آخر في الطبيعة، في الحرب أو في السلم.

كان هذا وضعاً استثنائياً لدرجة أنه نزل فيه وحي صريح: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (2). ولم يكرر النبي ﷺ أبداً القيام بأي عمل ينطوي على عدم احترام الطبيعة،

وكان يكرر دائماً، كما سنرى، بأن ذلك الاحترام يجب أن يكون تاماً، حتى في زمن الحرب، وقد أكد الوحي الذي نزلت به الآية أنفة الذكر بحد ذاته القاعدة التي وضعت استناداً إلى ذلك الاستثناء الوحيد.

أثبتت هذه الإستراتيجية نجاحاً تاماً، فقد استسلم بنو النضير المحاصرون وحاولوا التفاوض بشأن شروط نفيهم، قبل الحصار كان النبي ﷺ قد عرض أن يدعهم يرحلون مع ممتلكاتهم لكن بني النضير رفضوا. أما الآن فقد أصبحوا في موقف ضعيف، فاستناداً إلى نص تهديدات النبي ﷺ، كان المفروض أن يقتلوا، وعلى أي حال، فقد أصبح السماح لهم الآن بأخذ ممتلكاتهم غير وارد، وقد تجاهل النبي ﷺ تهديده لهم بالقتل وأمرهم بمغادرة المدينة ومعهم نساؤهم وأطفالهم فقط، غير أن زعيم بني النضير، حُيي، حاول مع ذلك التفاوض مع النبي ﷺ فسمح لهم في خاتمة المطاف بالمغادرة مع جميع حاجياتهم وممتلكاتهم التي تستطيع إبلهم حملها، وقد وجدوا ملجأ لهم في خيبر في خاتمة المطاف مع ذلك⁽³⁾. فهو لم يقتصر فقط على عدم تنفيذ تهديده، حيث إنه أحجم عن قتلهم، بل سمح لهم بأن يأخذوا كمية كبيرة من ممتلكاتهم. كان محمد ﷺ سمحاً سخياً دائماً وليناً بعد المعارك، رغم خيانات أعدائه وإنكارهم للجميل. وقد كان قد وجد بعض الأسرى الذين عفا عنهم بعد معركة بدر بين أشد أعدائه في معركة أُحُد، وسوف يحدث ما هو شبيه بذلك هذه المرة أيضاً. فبعد بضعة أشهر من السماح لبني النضير بالنجاة سوف يجد بعض زعماء القبيلة وغيرهم من أفراد القبيلة بين الأحزاب الذين كانوا سينضمون إلى قريش بعد بضعة أشهر.

تحسن وضع المسلمين جزئياً، لكن الأخطار ظلت محدقة بهم ومتعددة. فبعد أحد كان أبو سفيان قد قال لعمر رضي الله عنه وللنبي صلى الله عليه وسلم بأنهم سيتلاقون في العام القادم في بدر، وقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم التحدي. ولم يكن يريد أن يتراجع عن كلمته، لذا فقد ذهب إلى بدر في جيش من ألف وخمسمئة رجل، وانطلق أبو سفيان مع ألفين من الجنود، لكنه توقف في الطريق وعاد أدراجه، وبقي المسلمون في المكان ثمانية أيام ينتظرون قريشاً، لكنهم لم يظهروا، لقد برّ المسلمون بوعدهم وأدى هذا التقيد بوعدهم وهذه الثقة في وجه التحدي إلى طمأننتهم وتعزيز هيبتهم.

التميز والتفرد

كان النبي صلى الله عليه وسلم يكن لأحد صحابته، المدعو بأبي لبابة، احتراماً شديداً لدرجة أنه تركه مسؤولاً عن المدينة عندما انطلق إلى معركة بدر الأولى. وبعد فترة من الوقت، جاء يتييم صغير السن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو إليه أن أبا لبابة أخذ منه نخلة كانت ملكاً له منذ وقت طويل، فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وطلب تفسيراً لموقفه، أظهر الاستقصاء أن النخلة كانت ملكاً لأبي لبابة بالفعل، فحكم له بها، الأمر الذي أصاب اليتيم الذي فقد أثمن ما يملكه، بخيبة أمل شديدة، وقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم من أبي لبابة، بعد أن حكم بالعدل، أن يعطي اليتيم تلك الشجرة التي كانت تمثل له شيئاً عظيم الأهمية، رفض أبو لبابة رفضاً قاطعاً. ففد بذل جهوداً كبيرة لإثبات حق ملكيته حيث إن إمكان الاستجابة لذلك الطلب كان غير وارد بالنسبة إليه، هذا الهاجس غطى على قلبه وعلى مشاعر الرحمة، وقد ذكر الوحي

لاحقاً، على الصعيدين الفردي والجماعي، بالطابع الفريد للراقي الروحي الذي يتيح بلوغ ما هو أبعد من الشعور بالعدل، الذي يطالب بالحق، إلى تميز القلب الذي يغفر أو الذي يعطي الناس أكثر من استحقاقهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (4).

لم تكن المسألة تتعلق بالتخلي عن الحق (كان أبو لبابة محقاً في طلب الاعتراف بذلك الحق)؛ بل إنها كانت مسألة التعلم أن يتجاوز المرء ما هو حق له في بعض الأحيان، في سبيل الأسباب القلبية التي تغرس في الذهن الغفران والسماح وبذل النفس والمال تلبية لدوافع الإنسانية أو المحبة المشتركة، حزن النبي ﷺ جراء موقف أحد صحابته الذي كان يكنّ له احتراماً شديداً؛ لقد أدرك أن تعلق أبي لبابة، الذي كاد يكون تعلقاً أعمى بإحدى توصيات الإسلام، وهي العدل، قد منعه من بلوغ المستوى الأسمى لعدالة القلب: التميز، والسخاء، والبذل. في خاتمة المطاف، عرض صحابي آخر، ثابت بن دحنة رضي الله عنه - الذي شهد ما جرى، على أبي لبابة بستاناً كاملاً مقابل نخلته، وأعطاهها بعدئذ إلى اليتيم، وقد فرح النبي ﷺ بهذه النتيجة ولم يستنكر موقف أبي لبابة، فقد عهد إليه لاحقاً بمهمة أخرى، وهي إبلاغ بني قريظة بشروط استسلامهم، ونفذ أبو لبابة المهمة التي أسندت إليه لكنه لم يقاوم الإفراط في الحديث، فقد خجل من سلوكه وقام بربط نفسه في شجرة ستة أيام، آملاً أن يغفر له الله والنبي ﷺ هفوته وعدم إخلاصه، وجاء العفو وقام النبي ﷺ نفسه بفك أربطة أبي لبابة، هذه الحادثة الفردية تدل على أن التزكية الروحية لم تتحقق كلياً على الدوام، وأن الضمائر كانت تتعرض دائماً للاختبار وأن النبي ﷺ كان يقرن تعاليمه بالصرامة ولكن أيضاً بالنزعات الخيرية.

كان النبي ﷺ، منذ بعض الوقت، قد تزوج أرملة اسمها زينب من عشيرة بني أمير وكانت معروفة بسخائها ومحبتها للفقراء، وكان قد أقام صلوات من خلال ذلك الزواج مع قبيلتها التي ظلت مخصصة له رغم الضغوط الداخلية والخارجية التي كانت تمارس عليها، كانت زينب - رضي الله عنها - التي كانت تعرف بأُم المساكين، شديدة الورع وجاءت لتسكن في مسكن أقيم لها قرب المسجد، غير أنها توفيت بعد ثمانية أشهر من عرسها ودفنت بالقرب من رقية، ابنة النبي ﷺ، وبعد بضعة أشهر تزوجت أم سلمة - أرملة أبي سلمة، التي هاجرت معه إلى الحبشة - النبي ﷺ وسكنت في المقر الذي ظل شاغراً بعد زينب، كانت أم سلمة - رضي الله عنها - تقية ومقدامة وذات جمال باهر، وكان لها مركز ودور مهم في وقفها إلى جانب النبي ﷺ. وقد أقرت عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تشعر بالغيرة من أم سلمة - رضي الله عنها - بسبب جمالها ولأن النبي ﷺ كان يستمع إليها ويتأثر كثيراً بأرائها.

واصل النبي ﷺ، حسبما كانت تسمح به الظروف ورغم الصعوبات، في نشر تعاليم الإسلام وتطبيقها بنفسه. فقد انتزع أحد الصحابة مرة فرخ طائر من عشه وقامت أمه بمهاجمته فجأة دفاعاً عن وليدها، فطلب إليه النبي ﷺ إعادة الفرخ إلى العش وقال لمن كانوا حوله: «إن الله أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»⁽⁵⁾. كان يعلمهم التأمل في خلق الله وأخذ الدروس من الطبيعة التي تحيط بهم وأصغر عناصر الحياة، وقد تكررت هذه الدعوة في الآيات التي كانت تنزل عليه:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾⁽⁶⁾.

وفي آية أخرى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (7).

والطير في السماء تشهد على ذلك:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (8).

وسوف يؤكد الوحي لاحقاً أهمية القيم الروحية التي تتجلى من خلال الملاحظة والتأمل وذكر الله، وترتبط بالتذكير المتواصل بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى وفضله على قلوب البشر. «يخاطب الله العين المادية والعقل ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، ويمضي مخاطباً عين القلب والإيمان (9). هذه التعاليم كانت تشكل وتقوِّب القوة الروحية للنبي ﷺ كان يعرف مصدر قوته وضعفه، وعندما كان أعداؤه يحاولون خداعه وتدميره، وقد ذكره الله بفضله عليه وحمايته له في مواقف وضعفه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (10).

إن آيات الخلق وقدرة النبي ﷺ على التفكير في الأحداث أو تفاصيل الحياة الصغيرة وتقبل صدقة القلب التي تتمثل بكلمة طيبة (الكلمة الطيبة صدقة) (11). أو من خلال التبسم في وجه أخيه الإنسان (إن التبسم في وجه أخيك صدقة) (12)، كل هذا أعطاه القوة على المقاومة والصبر، إن

كون الإنسان دائماً مع الله الأحد، وتذكر وجوده من خلال نظره أو التفاته كونه الولي الذي يحميه بدلاً من كونه القاضي أو الناقد - هذا هو معنى الإحسان، قوة القلب والإيمان: (الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك) (13).

كان أصحابه يرون هذه الصفات فيه ويحبونه ويستمدون طاقتهم الروحية من خلال وجوده بينهم، وكان يعلمهم مواصلة تعميق هذا الحب: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وابنه وولده ونفسه التي بين جنبيه» (14). كان يعلمهم أن يواصلوا سعيهم الروحي ومحبتهم، بينما كان يذكرهم بأن تلك الصلة الحميمة تتجاوز قدرته البشرية ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ (15). كان هو القدوة والنموذج الذي كان يعيش بينهم ويمنح حبه إليهم جميعاً وإلى الفقراء وإلى المسنين، وكان يظهر الكياسة والاحترام للنساء ويهتم بالأطفال، كان جَدًّا يحمل أحفاده على ظهره أثناء الصلاة في المسجد، ويجسد القدوة والمثل بأن المرء لا يستطيع أن يذكر الله ويكون قريباً منه دون التحلي بالسخاء والاهتمام بالآخرين.

وقد أكد الوحي مكانته المتفردة في كثير من المجالات، وكان الله يطلب منه ممارسة أكثر شدة، لا سيما بشأن قيام الليل، ولم يكن لالتزاماته إزاء جبريل وإزاء الله مثيل، وعلى صعيد آخر، كان القرآن قد حدد للمؤمنين أربع زوجات لكنه ثبت تفرد النبي ﷺ في هذا الصدد. كما أن القرآن ذكر زوجاته بأنهن ﴿لَسَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (16). فمنذ ذلك الحين فرض عليهن ستر وجوههن ومخاطبة الرجال من وراء حجاب، وتم إبلاغهن بأنه لا يجوز لهن معاودة الزواج بعد وفاة النبي ﷺ. وفي ضوء الحدود

القرآنية تزوج محمد ﷺ امرأة أخرى اسمها زينب وهي مطلقة رقيق محمد ﷺ السابق زيد، الذي أصبح يعرف بابن محمد ﷺ بعد أن تبناه النبي ﷺ لكنه عاد إلى اسمه الأول، ابن حارثة، لأنه لم يكن ابن النبي ﷺ بيولوجياً. وقد جاء في القرآن تعليقاً على ذلك: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٧﴾.

الأحزاب

ذهب عدد كبير من بني النضير ليستقروا في خيبر بعد نفيهم من المدينة، وكانوا يشعرون بحقد شديد على النبي ﷺ ويتطلعون إلى ثأر سريع، وكانوا يعلمون، كغيرهم من قبائل الجزيرة، أن قريشاً كانت تعد العدة للقيام بهجوم واسع النطاق للقضاء على المسلمين ووضع حد نهائي لرسالة محمد ﷺ. وقد ذهب حُيي، زعيم بني النضير إلى مكة مع الزعماء اليهود من خيبر لإبرام تحالف مع قريش لم يترك أي مجال للشك، لابتداء من مهاجمة محمد ﷺ وجماعته والقضاء عليهم، لتحقيق ذلك، اتصلوا بقبائل أخرى لضمها إلى الحلف؛ وقد انضم إلى الحلف بنو أسد وبنو غطفان وبنو سليم، فقط بنو عامر، الذين تزوج النبي ﷺ واحدة من نسائهم، والذين أظهروا ولاء ثابتاً (باستثناء بعض الأفراد الذين خانوا العهد)، رفضوا الانضمام إلى الحلف الجديد لأنه سبق لهم أن تعاقدوا مع محمد ﷺ.

كانت القوات التي تجمعت ضخمة، وعندما سارت الجيوش إلى المدينة، بدا أن المسلمين لن يكون لهم طاقة في مواجهتهم، وكان عدد

أفراد جيش قريش وحلفائهم من الجنوب يزيد على أربعة آلاف، وُجِعَ جيش آخر، جاء من نجد في الشرق، مكون من مختلف القبائل، ما يزيد على ستة آلاف رجل، وكان من المقرر مهاجمة المدينة من جهتين، ثم يتم تطويقها بواسطة عشرة آلاف محارب: من غير المتصور أن يخرج سكانها سالمين. وعندما انطلقت الجيوش، أرسل عم الرسول ﷺ، العباس، سراً، وفداً إلى المدينة لتحذير النبي ﷺ بشأن الهجوم المتوقع، وعندما وصل الوفد إلى المدينة، كان أمام أهل المدينة أسبوع واحد أو أقل لوضع إستراتيجية للمقاومة، ولم يكن بوسعهم جمع أكثر من ثلاثة آلاف من الجند، أي أقل من ثلث قوة العدو.

تمشياً مع عادة النبي ﷺ فقد جمع أصحابه وتشااور معهم بشأن الموقف والخطة التي يتعين اعتمادها، قال بعضهم بوجوب الخروج من المدينة ومواجهة العدو، مثلما فعلوا في معركة بدر، ورأى آخرون أن فرصتهم الوحيدة تكمن في بقائهم داخل المدينة، وأنه يجب استخلاص العبر من هزيمة أحد، وكان بين الصحابة رجل فارسي اسمه سلمان (الفارسي)، قدم اقتراحاً فريداً في نوعه من عدة جوانب، لقد كان دائم البحث عن الحقيقة عن الله، وكان قد سافر إلى مكة على أمل أن يعيش بجوار النبي ﷺ. ولم تسعفه الظروف وبيع في خاتمة المطاف إلى قبيلة بني قريظة، وقد جمع النبي ﷺ والصحابة المبلغ اللازم لتحريره من الرق وكان قد أصبح واحداً من الصحابة مدة من الوقت، وقد شارك في اجتماعاتهم وتميز بتقواه وإخلاصه، فعندما نهض ليتكلم، اقترح إستراتيجية لم تكن معروفة عند العرب حتى ذلك الوقت: «يا رسول الله، كنا بفارس إذا حوصرنا

خندقنا علينا»⁽¹⁸⁾. كانت الفكرة غير متوقعة، لكن جميع الصحابة أعجبوا بها وقرروا تنفيذها، كان عليهم العمل بسرعة، حيث لم يكن لديهم سوى أسبوع واحد لحفر خندق واسع بما يكفي لمنع الجياد من القفز من فوقه.

كانت هذه المواجهة الرئيسة الثالثة مع قريش، وكانت في الواقع الإستراتيجية الثالثة التي اعتمدها المسلمون، في بدر تجمعوا حول الآبار، وفي أحد، لم يكن لإستراتيجية استخدام التل أي صلة بالأسلوب الراهن المتمثل بالانتظار وإبقاء العدو على مسافة منهم، والتي بدا أنها الوسيلة المتاحة الوحيدة لمقاومة الهجوم، وربما، إذا استمر الحصار، إعطاء الذين هم داخل المدينة فرصة للمقاومة، هذا الابتكار في الإستراتيجية العسكرية يبين الطريقة التي كان النبي ﷺ يعلم فيها أصحابه الإيمان العميق واستغلال الإبداع الفكري في كافة الظروف، فلم يترددوا في استعارة أسلوب حربي أجنبي، اقترحه عليهم رجل فارسي، وتكييفه مع وضعهم في المدينة، فقد تم التكامل بين عبقرية الشعوب وحكمة الأمم والابتكار البشري السليم في نمط تفكيرهم، دون تردد أو خوف، وكما أكد النبي ﷺ بشدة: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها هو أحق بها»⁽¹⁹⁾. كانت هذه دعوة إلى دراسة أفضل ما تمخض عنه الفكر البشري واعتماده بوصفه جزءاً من التراث الإيجابي للبشرية (المعروف بأنه للخير العام). وعلى صعيد أوسع، فقد كانت إظهار الفضول المعرفي والابتكار والإبداع في إدارة الشؤون الإنسانية، وقد ظهر هذا ليس فقط في طريقته في الحرب وإستراتيجياتها، بل أيضاً، كما رأينا، من خلال طريقته في النظر إلى عالم الأفكار والثقافة.

الخدق

بدأ العمل على الفور وشاركت المدينة برمتها، فقررُوا أين يجب حضر الخندق والأمكنة التي من شأن الصخور والتضاريس في المنطقة أن تحول دون دخول العدو حيث لا يكون الخندق ضرورياً، كانت أيام العمل طويلة لأن الصحابة كانوا يعملون منذ صلاة الفجر حتى الغروب.

وقد شارك محمد ﷺ في العمل، وكان الصحابة يسمعونهُ وهو يدعو الله في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى ينشد الأشعار وأحياناً يغني ويشتركون معه في الغناء في تلك اللحظات التي كانوا يقضونها في العمل الجماعي، كانت وسيلة لإحلال الأخوة بينهم والشعور بالانتماء، كما أنها أتاحت الفرص للتعبير الجماعي عن المشاعر والطموحات والآمال، وقد مكن النبي ﷺ من خلال الدعاء والشعر والغناء الرجال في مجتمعه - عدا عن اشتراكهم في الإيمان والصلاة - من التواصل عبر الإفصاح عن المشاعر وموسيقى القلوب التي تعبر عن الانتماء إلى تعبير مشترك عن الذات والخيال الجماعي والثقافة، لقد كانوا موحدين لا من خلال ما تلقوه من الواحد الأحد فحسب - والذي كانوا يؤمنون به - بل أيضاً في طريقتهم في التحدث عن أنفسهم، والإعراب عن مشاعرهم والتأمل في مركزهم في الكون، إن المشاركة الإيمانية، والمعاني الحميمة، لا يمكن أن تظل مفاهيم مجردة بحتة، فهي لا تستطيع المحافظة على طاقتها التي تبعث الحياة إلا إذا اقترنت بالمشاركة في الكلام والأفعال ضمن مساحة مشتركة من المرجعيات الاجتماعية والثقافية، فالإيمان بحاجة إلى ثقافة، وهكذا فعندما كان محمد ﷺ يريد توحيد طاقات أصحابه، كان يستدعي كافة مستويات وجودهم في العالم بغية ترقية وحدة

أمتة: الإيمان العميق بالواحد الأحد، الصياغة الشعرية للمشاعر، وموسيقية أغنية المشاعر، وكان يبرهن، من داخل أمتة والمشاركة في حياتهم اليومية، على أنه حين كرّس نفسه للواحد الأحد حقاً، بما يتجاوز الزمان والمكان، فإنه كان يعيش تاريخهم ويشارك في ثقافتهم: فقد كان واحداً منهم.

كان الخندق الذي أخذ يبرز مع سير العمل نجاحاً عظيماً: فسوف يتعذر على فرسان العدو عبوره في أي نقطة، وسيكون بوسع الرماة المسلمين منعهم، دون صعوبة، من القيام بأي محاولة جريئة، وقبل استقرار أهل المدينة داخلها، قاموا بجمع جميع المحاصيل في الواحة حتى يضطر العدو إلى الاعتماد على احتياطيه من الغذاء، كانت جيوش العدو تقترب، وسارع المسلمون إلى داخل المدينة، خلف الخندق، انتظاراً للعدو.

الحصار

وصلت الجيوش إلى جنوب وشرق المدينة وعسكرت هناك، وقد تملكتهم الدهشة لدى رؤية الخندق، وهو ما أفشل خطتهم في تطويق المدينة واجتياحها في هجوم مشترك من كافة الجهات، لقد كان الخندق حقاً تقنية حربية غير معروفة للعرب، لذا فقد كان على الأحزاب التفكير في خطة بديلة لهزيمة المسلمين.

بدأت المشاورات بين مختلف القبائل للاتفاق على أفضل وسيلة لتقصير مدة الحصار والاستيلاء على المدينة، ودون إمدادات غير تلك الخاصة بهم، لم تكن حرب طويلة الأمد واردة، فقرروا أن تتجمع الغالبية العظمى من القوات في الشمال بغية تحريك قوات المدينة في ذلك الجانب بينما

يحاول الآخرون اجتياز الخندق من الجنوب غير المحروس في ذلك الوقت، حيث بدا أن الوصول قرب الصخور أسهل منالاً، وكانت قبيلة بني قريظة اليهودية تعيش في تلك المنطقة وسبق لها أن وقعت اتفاق مساعدة مع محمد ﷺ، لكنها قد تشكل النقطة الضعيفة في وحدة المدينة. وقد أصر حُيي، رئيس بني النضير، على الذهاب إلى حصن بني قريظة للتحدث إلى رئيسهم، كعب بن أسد، ومحاولة إقناعه بفسخ تحالفه مع محمد ﷺ. في أول الأمر رفض كعب بن أسد استقبال حُيي، لكن ذلك الأخير أصر بشدة جعلت رئيس بني قريظة يسمح لنفسه بالرضوخ، أولاً بغية الاستماع لما يقوله، ثم خيانة العهد، هذا الانحياز كان يعني أن إستراتيجية أهل المدينة قد انهارت، إذ إن تحالف بني قريظة مع العدو كان يعني فتح ثغرة من الداخل وفتح المجال أمام العدو لدخول المدينة، مما كان سيؤدي إلى هزيمة مؤكدة وإبادة مؤكدة للمسلمين.

لم يكن جميع بنو قريظة راضين عن قرار زعيمهم، وحدث توتر ضمن المجموعة، لكن الغالبية العظمى وافقوا على الانضمام إلى قوات قريش وحلفائهم، في غضون ذلك كانت استطلاعات النبي ﷺ لتحركات قوات العدو في الشمال قد جعلته يتوقع حدوث حيلة، لذا قرر التأكد من مدى الثقة بحلفائه في الجنوب؛ لأنه كان يعلم أن بني قريظة كانوا أبعد من أن يكونوا منحازين إليه، في غضون ذلك، سمع إشاعات بأن زعماء بني قريظة قد نقضوا العهد من جانب واحد، فإذا تبين أن الإشاعات صحيحة، فإن معنويات جيش المسلمين لن تنهار فحسب، لكن فرص نجاحهم ستكون شبه معدومة، فأرسل اثنين لاستطلاع الأمر والتصرف بحكمة: فإذا كانت الإشاعات لا نصيب لها من الصحة، فإن عليهم الإعلان عن ذلك

بشكل واضح بغية طمأنة المحاربين وإعادة الشجاعة إليهم، أما إذا كانت صحيحة فقد طلب منهم أن يخبروه بشكل خفي، كانت الأخبار صحيحة، حسب رواية المستطلعين، وكان يتوجب على محمد ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة، فأرسل زيدا إلى الجهة الجنوبية مع ثلاث مئة رجل لمنع العدو من القيام بأي محاولة للعبور بمساندة بني قريظة.

أصبح تحمل الحصار يزداد صعوبة وكان على المسلمين أن يكونوا دائماً يقظين وعلى أهبة الاستعداد، وفي أحد الأيام، تعددت الهجمات وجاءت من عدة جهات حتى أن المسلمين لم يستطيعوا أداء صلاة الظهر والعصر في وقتها المحدد، ولا بعد صلاة المغرب. وقد شعر النبي ﷺ بالضييق وبدأ الحصار يؤثر على معنويات الصحابة، وقد وصف الوحي وضعهم في هاتين الآيتين:

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۚ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ (20) ۚ

كانت المحنة صعبة، وكشفت عن القبائل والأفراد الصادقين والمخلصين. فالحرب لم تكشف عن خيانة عشيرة بن قريظة فحسب، بل كشفت مرة ثانية المنافقين الذين سارعوا إلى التفكير في إعادة النظر في التزامهم أو حتى في الاستسلام، جاء في القرآن: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ (21) ۚ وأراد بعضهم العودة إلى أهلهم، وقالوا: ﴿ إِنَّا يَبُوءُ تَعَاوُدًا ۝ (22) ۚ وكان آخرون لا يريدون سوى الفرار من القتال وحماية أنفسهم، إذ إنه بدا

من الواضح لهم أن دفاع المسلمين سوف ينهار قريباً، وبدأ أن المقاومة عدة أيام بهذه الطريقة متعذرة.

غير أن الغالبية العظمى من المسلمين كانوا أوفياء للنبي ﷺ وقدوته وكانوا يشاركونه تصميمه وثباته، وقد نزل الوحي مشيراً إلى هذه الأزمة التي أظهرت قوة الإيمان وصدقه والإخلاص للواحد الأحد، وإلى الرسول القدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (23).

إن معنى الآية يتجاوز كثيراً ظروف تلك المعركة، فهي تنبئ عن دور النبي ﷺ ومركزه في حياة كل مسلم، لكنها ترسم بعداً أقوى بكثير عندما نتذكر ظروف نزولها: جماعة محاصرة، مهزوزة، غير قادرة، من المنظور والفكر البشري، أن ترى أي مهرب من الكارثة الوشيكة، وقد تضاءلت صفوفها من خلال الفرار والخيانة، وتتوحد وتلتف حول الرسول ﷺ ودينه وثقته، وقد أكد الوحي ذلك:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (24).

فيما كان الاحتياج على أشده، كان النبي ﷺ منزعاً لعدم تمكنه من أداء مختلف الصلوات في مواعيدها المحددة، هذا الوعي للنظام لم يكن يغادر الرسول ﷺ أبداً، فقد كان حريصاً جداً على عباداته اليومية، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (25). فتفويت أوقات الصلاة كان يمس قلبه ويجعله شديد الاستياء من الذين

اضطروه إلى ذلك، وقد شهد جميع الصحابة، في جميع ظروف حياته، هذا الجمع الذي يثير الدهشة بين طيبة قلبه اللانهاية وتصميمه الذي لا يلين في الشدائد وحرصه الشديد على الأوقات والمواعيد، وقد روى ابن عباس — رضي الله عنهما — لاحقاً أنه رأى النبي ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر وبين صلاتي المغرب والعشاء دونما سبب ظاهر، وأدرك الفقهاء المسلمون جواز ذلك أثناء السفر أو في وضع استثنائي، لكن السُّنة تظل في حياة النبي ﷺ سارية بشأن ضرورة المراعاة التامة للصلاة، وهي تذكر بالعلاقة المتميزة بالواحد الأحد والشعور بها، هذا ما يؤكده القرآن حين يروي مناداة الله لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (27).

حيلة

كان المسلمون في وضع حرج، لكن مع مرور الأيام وجد الأحزاب أنفسهم في وضع مختلف؛ لأنه لم يكن لديهم الكثير من الطعام وكانت الليالي شديدة البرودة، وقد حاول النبي ﷺ التفاوض بشأن تخلي عشيرتين من قبيلة غطفان عن الأحزاب فعرض عليهم ثلث محصول المدينة من التمور؛ فأجابوا مبعوثه بأنهم يريدون نصف المحصول، لكن النبي ﷺ أصر على ما عرضه عليهم فقبلوا في خاتمة المطاف، وقبل إرسال عثمان رضي الله عنه لإبرام الصفقة، استشار النبي ﷺ زعيم عشيرتي المدينة الرئيسيتين، الأوس والخزرج، بما لديهم من معرفة بالعشائر المجاورة، فسألوا إن كان عرضه وحياً أو اختياراً شخصياً، وعند سماعهم أنه مبادرة شخصية

الفرض منها حمايتهم، رفضوا شروط الاتفاق وأبلغوا الرسول ﷺ أنه بالنظر للوضع، فإن القتال هو الطريقة الوحيدة للنجاة.

في تلك اللحظة، زار النبي ﷺ نعيم بن مسعود، وهو من كبار رجال قريش ويلقى احترام جميع قبائل الجزيرة، وقد جاء ليقول للنبي ﷺ إنه اعتنق الإسلام وأنه ما من أحد يعرف ذلك حتى ذلك الوقت وأنه يضع نفسه تحت تصرف النبي ﷺ. وكان نعيم معروفاً لدى جميع الزعماء المحاصرين للمدينة ويحظى باحترامهم. وكان محمد ﷺ يعرف ذلك فقال له: «إن استطعت أن تخذل عنا الناس فافعل!». وقد سأل نعيم إذا كان من المسموح به أن يكذب، فأجابه النبي: «افعل ما بدا لك فأنت في حل، إنما الحرب خدعة!» (28).

فلجأ نعيم إلى إستراتيجية فعالة، فذهب أولاً إلى بني قريظة وحذرهم بشأن نوايا حلفائهم الجدد، فقال لهم بأنه إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون، فإن الأحزاب لن يترددوا في أن يخذلوهم وأنه سيتم تركهم إلى محمد ﷺ دون أي حماية، فنصحهم بأن يطلبوا من القبائل الأخرى بعض رجالهم كرهائن ضماناً لعدم تخليهم عن بني قريظة، فأعجبتهم الفكرة وقرروا إرسال مبعوث إلى زعماء قريش لإبلاغهم بطلبهم، ثم أسرع نعيم إلى أبي سفيان ليحذره بأن بني قريظة يخدعونه وأنهم حلفاء لمحمد ﷺ في حقيقة الأمر، فقال له: إنهم سوف يطلبون منه إرسال رجال كعربون على إخلاصه، لكنهم يريدون في حقيقة الأمر أن يسلموهم إلى محمد ﷺ للدلالة على حسن نواياهم، وعندما جاء مبعوث بني قريظة إلى أبي سفيان وأخبره بطلب الرهائن، تأكد أبو سفيان من صدق نعيم وأن بني قريظة

كانوا يخدمونه في واقع الأمر، فقام على الفور باستدعاء زعيم بني النضير وسأله عن تلك الخيانة، دُهِش حُي في أول الأمر ولم يعرف ما يقول، وظن أبو سفيان أن في ذلك اعترافاً بالخيانة.

كانت أول علامات الانقسام تظهر في معسكر الأحزاب، فقد ساد جو من عدم الثقة المتبادلة بين بعض العشائر، بينما كانت عشائر أخرى قد ضاقت ذرعاً ببعضها البعض، وقد أضعفت الأنباء تصميم المقاتلين المتحالفين مع قريش كثيراً، وعمل الإرهاق والضعف ونقص الطعام على ازدياد مناخ الإحباط سوءاً، ثم هبت ريح صرصر عاتية على السهل أقنعتهم بأنه أصبح من المتعذر التغلب على مقاومة المدينة، وكان محمد ﷺ قد بلغه حالة الروح المعنوية المتدهورة في معسكر العدو فأرسل حذيفة ليستطلع الأمر ليلاً، وعاد حذيفة يحمل أبناء طيبة عن الفوضى العارمة السائدة فيهم وأن البرد قد أصابهم بالشلل، كان الرجال يستعدون للرحيل وارتحل الكثيرون من المقاتلين، وبشر النبي ﷺ أصحابه بالأنباء الطيبة بعد صلاة الفجر، حيث أظهر ضوء النهار أن العدو قد ارتحل، استمر الحصار الذي جرى في السنة الخامسة للهجرة (627م) خمسة وعشرين يوماً وعاد الأحزاب مخذولين لم يقاتلوا ويحملون عبء هزيمة حقيقية ورمزية.

بنو قريظة

سَرَحَ النبي ﷺ رجاله وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم، فقد ارتحل العدو وُرُفِعَ الحصار، وابتهج أهل المدينة المرهقون والذين كانوا قد فقدوا الأمل وبلغوا نهاية قدرتهم على المقاومة، وفرحوا بالنتيجة، وعاد محمد ﷺ إلى

المنزل على الفور واستراح حتى صلاة الظهر، وبعد أن أدى الصلاة جاءه جبريل وأبلغه أن الله يأمره بالذهاب على الفور إلى بني قريظة الذين كادت خيانتهم تؤدي إلى إبادة جماعة المسلمين، وأن يحاصر حصنهم.

فدعا النبي ﷺ على الفور أصحابه وبقية المصلين في المسجد وطلب إليهم الاستعداد على الفور للذهاب إلى بني قريظة، وفيما كان المسلمون ينطلقون على شكل جماعات أمرهم النبي ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»⁽²⁹⁾. لم يكن هناك متسع من الوقت، ولم يتوافر للمسلمين، الذين كانوا قد تأملوا بأن يحصلوا على قسط من الراحة أخيراً، من الوقت سوى ما يكفي لجمع معداتهم وارتداء آلة الحرب، والانطلاق في إحدى الجماعات المتوجهة إلى بني قريظة. وقد ثار جدل عندما حان وقت صلاة العصر، فقد قال بعضهم، الذين كرروا أمر النبي ﷺ بحرفيته، بأنه يجب ألا يصلوا في الطريق بل عليهم الانتظار حتى يصلوا إلى بني قريظة⁽³⁰⁾. وجادل آخرون بأن قصد النبي ﷺ هو أن عليهم الإسراع إلى هناك، ولكن عند حلول وقت الصلاة فلا بد لهم من أدائها في وقتها بالطبع، وهكذا فإن بعضهم امتنع عن الصلاة التزاماً بحرفية كلمات النبي ﷺ، بينما صلى الآخرون، انطلاقاً من روح أمر النبي ﷺ. وقد سألوا النبي لاحقاً عن أي التفسيرين هو الصحيح فأقر الاثنين، هذا الموقف كان من شأنه أن يترتب عليه نتائج رئيسة لمستقبل الأمة الإسلامية، حيث إنه بعد وفاة النبي ﷺ برزت مدرستان فكريتان: أهل الحديث الذين التزموا، على غرار عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - انطلاقاً من روح الجماعة الأولى آنفة الذكر، بالمعنى الحرفي لأقوال النبي ﷺ المروية في السنة، وأهل الرأي، الذين

حاولوا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فهم القصد من الحديث، وروحه ومعناه المجازي في بعض المناسبات، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أقرّ الرأيين ولذا فقد أظهر هذا الموقف طريقتين صحيحتين ومشروعيتين في الإخلاص للرسالة.

حاصر حصن بني قريظة نحو ثلاثة آلاف رجل، ومع أن بني قريظة وجدوا أنهم سقطوا في الفخ ولا يوجد لديهم طعام كاف، إلا أنهم قاوموا مدة خمسة وعشرين يوماً، فقد كان خوفهم عظيماً من المصير الذي كان ينتظرهم بعد تلك الخيانة الخطيرة، أرسل لهم النبي صلى الله عليه وسلم أبا لبابة، وهو رجل من الأوس (سبق له أن أبرم اتفاقاً مع بني النضير وبقي عملياً قريباً من بني قريظة) — لمناقشة شروط استسلامهم، لدى رؤيته لحالة الوحشة داخل الحصن، لم يسع أبو لبابة سوى أن يلمح لبني قريظة بأن مصيرهم سيكون الموت إذا استسلموا، وقد ندم ندماً شديداً لاحقاً على موقفه الذي كان من المحتمل أن يجعل بني قريظة لا يستسلمون أو أن يبحثوا عن مخرج آخر من خلال إقامة تحالفات أخرى، على أنهم قرروا فتح أبواب حصنهم والإقرار بالهزيمة.

وضعت النساء والأطفال تحت وصاية حاخام سابق، عبد الله بن سلام، ثم قيّد السبع مئة رجل وعزلوا في أحد الحقول، وجمعت حاجاتهم وممتلكاتهم وأسلحتهم لتُنقل إلى المدينة، فقام الأوس على الفور بإرسال وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلبون منه معاملة بني قريظة بالرحمة نفسها التي أظهرها سابقاً للجماعات الأخرى التي انحازت ضده، فسأل محمد صلى الله عليه وسلم الأوس: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»⁽³¹⁾ فأجابوا بالإيجاب، لأنهم كانوا على قناعة بأن واحداً منهم لن ينسى

التحالفات السابقة، فأرسل النبي ﷺ وراء سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي كان لا يزال يعاني من جروح ويجري تمريضه في مسجد المدينة، وذهب وفد لإحضاره، كان النبي ﷺ حتى ذلك الوقت يبقي على حياة أسراه، وكما أوردنا آنفاً، فقد كان قد وجد بعض أسرى بدر الذين أبقى على حياتهم بين ألد أعدائه في معركة أحد اللاحقة، وحدث مثل ذلك مع بني النضير: فقد كان قد سمح لهم بالمغادرة مع نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، لكن كان زعيمهم، حُيي - لاحقاً - على رأس مؤامرة الأحزاب، وكان بين أسرى بني قريظة الكثيرون الذين تم نفيهم من بني النضير، وهكذا فإن رحمته لم يكن لها أي أثر على أولئك الذين استفادوا منها، الأمر الذي أرسل رسالة مشوشة في أنحاء الجزيرة: فقد أصبح الناس يقولون بأن محمداً ﷺ لا يقتل أسراه أبداً، خلافاً لعادة العرب بل وحتى عادة اليهود (32). فقد اعتبرت رحمته، التي لقيت خيانة متكررة علامة ضعف، إن لم تكن علامة جنون. ثم إن خيانة بني قريظة كانت على درجة من الخطورة بحيث إنه لو نجحت مخططاتهم، لأدت إلى إبادة المسلمين، الذين تعرضوا للخيانة من الداخل وإلى أن يسحقهم جيش يفوق عدده العشرة آلاف مقاتل.

وصل سعد بن معاذ رضي الله عنه أخيراً إلى بني قريظة، وأراد قبل كل شيء أن يلقي حكمه احترام الجميع، فخاطب زعماء مختلف الجماعات الذين تعهدوا الواحد تلو الآخر بالتقيد بالقرار الذي يصدره، ثم خاطب النبي ﷺ الذي أكد له بأنه لن يعارض الحكم الذي يصدره، فأصدر ابن معاذ حكمه بإعدام الرجال واعتبار النساء والأطفال أسرى حرب، قبل محمد ﷺ الحكم الذي تم تنفيذه خلال الأيام اللاحقة، وتم افتداء عدد من

الأسرى من قبل بني النضير وريحانة- وهي أسيرة من بني قريظة- كانت في الأصل من بني النضير وأصبحت جارية لدى النبي ﷺ. وقد اعتنقت الإسلام، لكن اختلفت الروايات عن مصيرها لاحقاً. تقول بعض المصادر بأن النبي ﷺ حررها وتزوجها بينما روت مصادر أخرى بأنه إنما تزوجها فقط. وجاء في مصادر أخرى أنها رفضت وظلت خادمتة مدة خمس سنوات، حتى وافتها المنية⁽³³⁾.

انتشرت أنباء انتصار المسلمين في أنحاء الجزيرة: وغيّرت تغييراً جذرياً الآراء وموازين القوى، فالمسلمون لم يقاوموا جيشاً بلغ أكثر من عشرة آلاف محارب فحسب بل لقد أظهروا أيضاً تصميمًا لا يلين. هذا ويُعدّ المصير الذي آل إليه رجال بني قريظة رسالة قوية لجميع القبائل المجاورة مفادها أن الخيانات والأعمال العدوانية سوف تلقى عقاباً شديداً بعد ذلك الوقت، وقد وصلت الرسالة: فمثل هذا الوضع لم يتكرر أبداً طيلة حياة النبي ﷺ.

زينب وأبو العاص

كانت زينب- رضي الله عنها - ابنة النبي ﷺ قد تزوجت أبو العاص الذي لم يعتنق الإسلام، وكانت قد بقيت معه في مكة في بادئ الأمر، إلى أن طلب منها النبي ﷺ أن تلحق به إلى المدينة مع ابنتها الصغيرة أمامة. كانت زينب- رضي الله عنها - تحب زوجها حباً جماً لكن وجهة كل منهما المختلفة في الحياة قد جعلتهما يفترقان في خاتمة المطاف، غير أن أياً منهما لم يتزوج ثانية.

بعد بضعة أشهر من معركة الخندق، أرسل النبي ﷺ سرية لاعتراض سبيل قافلة لقريش آتية من الشمال، وقد استولى زيد رضي الله عنه، الذي كان يرأس فرسان المسلمين، على بضائع القافلة وأسّر معظم رجالها، بينما استطاع آخرون الإفلات، وكان أبو العاص من بين أولئك الآخرين، وقد قرر في رحلة عودته إلى مكة أن يعرج على المدينة ويقوم بزيارة خفية لزوجته وابنته، كان هذا ضرباً من الجنون بحد ذاته، لكن رغبته في رؤية زوجته وطفله كانت أقوى من إدراكه للمخاطر التي ينطوي عليها قراره، فطرق باب زوجته ليلاً وأدخلته زينب - رضي الله عنها - إلى بيتها، فمكث عندها وعند اقتراب الفجر ذهبت زينب - رضي الله عنها - إلى المسجد لأداء الصلاة كما كانت تفعل دائماً، فدخلت المسجد ووقفت في صف النساء الأول، مباشرة خلف الرجال، وعندما أقام محمد ﷺ الصلاة، انتهزت فرصة التريث القصير لتقول بأعلى صوتها: «أيها الناس! لقد أجرت أبا العاص بن ربيع!» بعد انتهاء الصلاة عمل النبي ﷺ الذي لم يكن يدري بما كان قد جرى بين ابنته وزوجها، على أن يؤكد جمهور المصلين أنهم سمعوا إجارتها لأبي العاص، وأصرّ أن الحماية التي منحت - سواء أكانت من قبل ابنته أم من قبل أي مسلم آخر - يجب أن تحترم، ثم ذهب إلى ابنته التي أخبرته بالموقف الذي يواجهه أبو العاص، الذي أخذت كافة بضائعه خلال الغزوة التي جرت مؤخراً في الشمال، والذي أصبح الآن غارقاً في الدين لأن تلك البضائع قد ائتمنه عليها أهل مكة، واقترح محمد ﷺ على الذين كانت البضائع في حوزتهم أن يعيدوها إلى أبي العاص إذا أحبوا فاستجاب له الجميع، وقد نصح بعض الصحابة أبا العاص أن يدخل في الإسلام ويحتفظ بتلك الممتلكات لنفسه.

لكنه رفض قائلاً إن اعتناق الإسلام والشروع بخيانة ثقة الناس لن يكون عملاً لائقاً، فأخذ كافة البضائع وعاد إلى مكة وأعطى كل ذي حق حقه، ثم عاد إلى المدينة واعتنق الإسلام واجتمع شمله بزینب - رضي الله عنها - وابنتها أمانة.

وهكذا، فقد كان كرم المسلمين الأوائل واستقامتهم واضحين لجميع العيون، فكما هو حال النبي ﷺ، فإنهم لم يطلبوا شيئاً من أبي العاص: فهو لم يكن مسلماً، وكان ينتمي إلى عشيرة من أعداء المسلمين ورفض اعتناق الإسلام، لكنهم أطلقوا سراحه، وسمحوا له بحرية الاختيار والوقت اللازم لتطور مفاهيمه الروحية، بل إنه حصل في وقت حرج من علاقات العشائر ببعضها - على حماية الجماعة الإسلامية، وكانت امرأة هي التي تحدثت علناً وبقوة دفاعاً عنه، كانت زينب دائماً تلازم المسجد الذي كان مكاناً مفتوحاً للرجال والنساء على السواء، ولم يعترض أحد على ما قالته في المسجد، بين الرجال، في واقع الأمر، لم يكن من غير المألوف على الإطلاق أن تتحدث المرأة في العلن بتلك الطريقة، وفي وقت لاحق، في موقف اشتهر في تاريخ المسلمين، خاطبت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان قد أصبح خليفة للمسلمين، وأشارت إلى خطأ في رأي أصدره فاعترف بخطئه على الفور.

كانت النساء تقف في المسجد خلف صفوف الرجال حيث إن أوضاع الصلاة، في مختلف مراحلها، تقتضي وضعاً تتم فيه المحافظة على الحياء والاحتشام والاحترام، وعلاوة على ذلك، فقد وجدوا في موقف النبي ﷺ مثلاً للكماسة والاحترام: كان يطلب من الرجال البقاء في أماكنهم في

المسجد لإفساح المجال للنساء بمغادرته قبلهم دون أي مضايقة، كان تصرفه يتسم باللطف والوقار إزاء النساء اللواتي كان يصغي إليهن واللاتي اعترف بحقهن في التعبير عن أنفسهن وطرح آرائهن وحججهن، وحافظ على هذا الحق وعززَه.



الفصل الثاني عشر

حلم، سلام

لقد غير الانتصار على الأحزاب والحملة ضد بني قريظة الوضع في الجزيرة حيث تم الاعتراف بقوة النبي ﷺ وأصحابه، فالبعض، مثل الفرس والبيزنطيين كانوا يتحدثون عن محمد ﷺ بوصفه «ملك العرب القوي»، حيث إنهم وجدوا فيه قوة إقليمية مرهوبة الجانب، وكان محمد ﷺ عندما تأتته استطلاعات استخبارية بوجود خطر، لا يتردد في إرسال الحملات إلى القبائل القريبة بغية استباق أي محاولة للتمرد أو الهجوم وليوضح بذلك للعشائر المجاورة بأن مسلمي المدينة هم دائماً في حالة من اليقظة والاستعداد للدفاع عن أنفسهم.

لقد وقعت حادثة عقد عائشة - رضي الله عنها - أثناء إحدى تلك الحملات ضد بني المصطلق، في السنة السادسة للهجرة، هذه الحادثة تذكرنا، كغيرها أن الحياة والدروس تجري حسب ما تمليه إرادة الله وأن الممارسة الدينية كانت تتضح فيما كان البعد الاجتماعي للأخلاق الإسلامية يزداد عمقاً، وبقيت الصعوبات الداخلية أيضاً، لا سيما جراء أعمال بعض المنافقين الذين كانوا يحاولون استغلال أي وضع لخلق مشكلات للنبي ﷺ.

حلم

كان شهر رمضان قد أهل وأخذ النبي ﷺ، كعادته، يكشف عبادات الليل، وكان أيضاً أكثر اهتماماً بالفقراء والمعوزين، كان هذا شهر ارتقاء

روحي، كان يتلوه فيه النبي ﷺ على جبريل جميع ما نزل به الوحي، وكان يطيل فيه صلواته ويؤدي فيه صلاة التراويح⁽¹⁾. وكان هذا الشهر موسم الدعاء، حيث كان على النساء والرجال الصيام في النهار، متحررين من الخصائص التي تقترن اقتراناً مباشراً ببشريتهم: الشراب والأكل وتلبية حاجتهم الجنسية، فمن خلال سيطرة المؤمنين على حاجاتهم الطبيعية كانوا يسعون إلى الاقتراب من الصفات الرحمانية والشعور بوجود الله من خلال التفكير، كان على المسلمين أن يتجاوزوا صيام الجسد وأن «يصوموا» بألسنتهم (تجنب الكذب والفحش والتعليقات غير المحتشمة) وبقلوبهم (تجنب المشاعر أو الأفكار السلبية). هذا النظام الروحي، كما قلنا، اقترن بمتطلبات إضافية مثل العناية والرعاية اللتين يجب أن يلقاهما الفقراء في شهر رمضان، فرمضان هو شهر القرآن وشهر السخاء والعطاء والتعاضد. وكان النبي ﷺ يهيب بالمؤمنين، من نساء ورجال وأطفال بأن يتصدقوا في نهاية شهر الصيام من أجل تلبية حاجات جميع أفراد الجماعة خلال أيام الاحتفالات التي كانوا يقومون بها، فالسعي إلى التقرب من الواحد الأحد لا يمكن أن يتحقق ويكتمل إلا من خلال التقرب من الفقراء، من خلال رعايتهم وخدمتهم يتقرب المرء من الله.

وقد رأى النبي ﷺ، في ذلك الشهر، رؤيا عجيبة محيرة ومدعاة للسرور، فقد رأى في المنام أنه دخل حرم الكعبة وقد حلق شعر رأسه وأمسك بمفتاح الحرم بيده اليمنى، كانت تلك الرؤيا شديدة الوضوح وفسرها النبي ﷺ، كما كان يفعل في مثل هذه الظروف، بأنها علامة ورسالة، وفي اليوم التالي حدث الصحابة عن الرؤيا ودعاهم إلى الاستعداد للذهاب وأداء العمرة في مكة⁽²⁾. لقد شعروا بالسرور بالدهشة على حد سواء، كيف يمكنهم دخول

أرض مكة؟ وكيف ستسمح لهم قريش بذلك؟ وكيف يتسنى لهم تجنب الصراع؟ وقد طمأنتهم ثقة النبي ﷺ الواضحة: كان من المقرر أن تبدأ الرحلة في شهر ذي القعدة، وهو أحد الأشهر الحُرْم التي لم يكن العرب يتقاتلون فيها أبداً حتى ذلك الوقت، وعلاوة على ذلك، فقد ثبت أن رؤيا النبي ﷺ صادقة، لقد قادهم حتى ذلك الوقت بهدوء وثقة، فاستعدوا للرحيل.

اشترك في الرحلة بين ألف ومئتين وألف وأربع مئة من المؤمنين. كان الخطر عظيماً، لكن النبي ﷺ لم يسمح للمعتمرين بحمل الأسلحة (عدا المعدات اللازمة للصيد وغير ذلك من حاجات الرحلة)، وأخذ معه زوجته أم سلمة — رضي الله عنها — كما أخذ نسيبة وأم هانئ — رضي الله عنهما — وهما امرأتان شهدتا بيعة العقبة الأولى، فانطلقوا وفي أول مكان للتوقف قلد النبي ﷺ الجمال التي سيُضحى بها خلال العمرة. أما أهل مكة فقد سمعوا بعد فترة وجيزة أن قافلة من المسلمين متوجهة إلى مكة بقصد زيارة الكعبة، كانت زيارة الحرم المكي لعشرات السنين أهم حق مشروع لقبائل الجزيرة، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت قريش تواجه مأزقاً عويصاً يستعصي على الحل، لم يكونوا يرون كيف يمكنهم إما تبرير منعهم من الدخول (وكيف يمكنهم إجبارهم على الانصياع في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، التي كانت الحرب محظورة فيها) أو، من جهة أخرى، كيف يسمحون لعدوهم بدخول المدينة، الأمر الذي سيضيف على المسلمين هيبةً غير مقبولة لقريش، فقررت قريش إرسال خالد بن الوليد ومعه مئتا رجل لمنع المعتمرين من الاقتراب من مكة. وجاء مخبرو المسلمين لإعلامهم بذلك، وقرروا تغيير طريقهم ليتجنبوا وضعاً

من شأنه أن يفضي حتماً إلى صدام، وقد اعتمد النبي ﷺ على معرفة أحد الصحابة بالمنطقة، فسلكوا طريقاً وصلوا من خلاله إلى مكة، على عتبة الأرض الحرام، في سهل الحديبية، في تلك النقطة توقفت ناقة النبي ﷺ «القصواء» ورفضت السير، وكما كانت عليه الحال عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة قبل سبع سنوات، فقد رأى في ذلك إشارة، فعليه التوقف والتفاوض مع فريق قريش بشأن الدخول إلى مكة.

فوجئت قريش مرة ثانية كلياً من موقف النبي ﷺ الذي لم يكن ينسجم مع أي من تقاليدهم الدينية أو الثقافية أو الحربية، ففي أوج قوته، جاء إلى مكة غير مسلح، وبالتالي، فإنه في واقع الأمر عرضة للخطر، مع أنه كان من الممكن للظروف أن تمكنه من تحقيق سيطرة أكبر على أعدائه، وعلاوة على ذلك، فقد دعا الناس إلى دين جديد لكنه لم يتردد في الاعتماد على احترام قواعد التقاليد العربية في حماية نفسه من هجماتهم، وبذلك وضع قريشاً في مأزق، لأنه كان عليهم الاختيار بين احترام القواعد وفقد هيبتهم (إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة)، وقد برهن تكتيك محمد ﷺ على أنه ناجح.

المفاوضات

كانت قريش مصممة على عدم السماح للمسلمين بأداء العمرة، بسبب ما ينطوي عليه ذلك من تداعيات ولكن أيضاً -بالطبع- لأنهم لم يكونوا يعرفون نوايا محمد ﷺ الفعلية، فقرروا إرسال مبعوث من عشيرة بني خزاعة، واسمه بديل بن ورقة، الذي لم يكن على خلاف مع أي من العشائر الموجودة، ولذا فإن بإمكانه القيام بمهمة الوسيط، فذهب إلى النبي ﷺ

الذي أكد له بأنه لا ينوي شن الحرب، بل كان يريد أداء العمرة مع أصحابه ثم يعود إلى دياره، على أنه أضاف بأنه مستعد لقتال أي شخص يعارض حقهم في دخول الحرم بحرية، مثل جميع العشائر والقبائل الأخرى، ومع ذلك، فإذا أرادت قريش المزيد من الوقت للاستعداد للسماح للمعتمرين بالدخول، فإن المسلمين سينتظرون عند الحديبية إلى أن تتم قريش استعداداتها، عاد بديل إلى مكة واقترح على قريش أن تسمح للمسلمين بالدخول، لكن اقتراحه استقبل ببرود شديد، وقد رفض بشكل خاص من جانب عكرمة، ابن أبي جهل.

وقرر أحد الزعماء واسمه عروة مقابلة محمد ﷺ والتفاوض معه والقيام في الوقت نفسه بإلقاء نظرة على من معه عن كثب ومعرفة طبيعة الحملة، فذهب إلى النبي ﷺ وبدأ يتحدث معه حسب العادات السائدة بين العشائر العربية: فخاطبه متخطياً الرسميات، على قدم المساواة، وأخذ يمسك بلحيته، كما درج على ذلك زعماء القبائل. فقابله بخشونة على تصرفه المغيرة، وهو أحد المهاجرين من مكة والذي هدد بضربه إذا استمر في ذلك السلوك، وقد دهش عروة لكنه قبل مغادرته وقف لمراقبة وزيارة معسكر المؤمنين ودهش لما شاهده من احترام وتقان المؤمنين لقائدهم، محمد ﷺ. فعاد إلى قريش وقال لهم، مثل ما قال بديل قبله، بأنه من الحكمة السماح لمحمد ﷺ بالدخول، لأنه ليس لديه أي نية لمقاتلتهم. غير أن زعماء قريش رفضوا مرة أخرى.

بينما كان عروة يقوم بمهمته، جرت محاولتان للتفاوض، فقد كان هُليس، من بني الحارث، قد جاء ليكلم النبي ﷺ. وقد عرفه النبي ﷺ من على بعد، بما أنه كان قدر احترام هليس وعشيرته للمسائل الدينية

والمقدسة، فقد أمر بأن ترسل إليه الجمال التي تم تقليدها وإشعارها للتضحية لمواجهته، وعندما رأى هليس الجمال، فهم المسألة وقرر العودة على الفور، بعد أن تأكد من أن محمداً ﷺ لم يكن ينوي في واقع الأمر سوى أداء العمرة بسلام، ولم يظل النبي ﷺ نفسه ساكناً؛ فقد كان قد أرسل إلى قريش مبعوثاً اسمه خراش، لكن عكرمة رفض أن يصغي إليه وقطع ساقه ناقته وكان على وشك ضربه عندما تدخل هليس لحمايته وطلب السماح له بالعودة إلى النبي ﷺ دون أن يصاب بأذى.

وهكذا فقد فشلت أربع محاولات للمفاوضات وبدأ أن قريشاً تزداد تعنتاً، فقرر النبي ﷺ القيام بمحاولة أخيرة، فأرسل مبعوثاً يتمتع بقدر كبير من الاحترام والحماية في مكة ومن شأن مصيره أن يكون مختلفاً عن مصير خراش وتكون كلمته مسموعة، فاختر عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي له صلات وعلاقات متينة في مكة ولا يجروء أحد على التعدي عليه، فذهب عثمان رضي الله عنه ولقي استقبلاً حسناً، لكنه قبل بذات الرفض: لن تسمح قريش للنبي ﷺ بأداء العمرة، أما هو فبإمكانه إذا شاء، الطواف حول الكعبة، لكن السماح لمحمد ﷺ ورجاله بالدخول لم يكن موضع بحث، فرفض عثمان رضي الله عنه عرضهم، وقد استغرقت مهمته وقتاً أطول مما كان متوقعاً، ولم تصل أخبار عنه إلى النبي ﷺ طيلة ثلاثة أيام، وسرت إشاعة بأن عثمان رضي الله عنه قد قتل، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يحزن حزناً شديداً، إن مثل هذا العمل من جانب قريش - قتل مبعوث في شهر حرام ومقاومة حق المسلمين المشروع في زيارة الكعبة، وهو ما كان مسموحاً به لجميع القبائل - لم يعتبره المسلمون سوى إعلان جديد عن الحرب، فبعد ذلك الوقت كان عليهم أن يستعدوا للأسوأ.

بيعة الرضوان

جمع النبي ﷺ الصحابة وجلس تحت شجرة وطلب من كل المسلمين أن يبايعوه على الطاعة والإخلاص، بهذا العمل أعربوا صراحة على أنهم إلى جانب النبي ﷺ مهما كلف الأمر، كانوا قد جاؤوا لأداء العمرة، غير مسلحين، وأصبحوا يواجهون احتمالاً كبيراً بحصول قتال لم يكونوا مستعدين له، وكانت بيعتهم للنبي ﷺ تعني لهم أنهم بايعوه على عدم الفرار والمضي حتى الموت؛ لأن ميزان القوى كان ضدهم، وقد وضع النبي ﷺ نفسه يده اليسرى في يده اليمنى وقال للمؤمنين المجتمعين معه بأن ذلك يمثل مبايعة عثمان ؓ؛ لأن ذلك الأخير لم يبد أي علامة على أنه على قيد الحياة واعتبر ميتاً⁽³⁾.

على أنه ما إن انتهى الصحابة من المبايعة حتى ظهر عثمان ؓ فجأة. وقد ابتهج النبي ﷺ بعودته، فلم يكن عثمان ؓ، زوج ابنته، على قيد الحياة فحسب، لكن قريشاً لم تكن على درجة من التهور بحيث لا تحترم تقليد عدم اللجوء إلى العنف في الأشهر الحرم، وهكذا فقد بدا أن الصراع مع قريش أصبح أقل احتمالاً وقيل للنبي ﷺ إن قريشاً أرسلت مبعوثاً جديداً هو سهيل بن عمرو، لإبرام اتفاقية رسمية مع المسلمين، فقرر النبي ﷺ أن يستقبله وينظر في مقترحاته.

وكان عثمان ؓ أيضاً قد بايع النبي ﷺ. وقد فهم، كغيره، أن هذا التعبير عن الإخلاص شيء لازم في وضع ينطوي على احتمال اندلاع الحرب، على أن الظروف كانت الآن مختلفة كل الاختلاف، حيث كان محمد ﷺ يوشك أن يبدأ مفاوضات بشأن شروط السلام بين جماعته

وقريش، لقد بايعوه جميعاً وهم يتصورون أنهم يعبرون عن إخلاصهم في وضع قتالي، وهو وضع كانوا فيه أيضاً في موقف ضعيف، والآن سوف يمتحن إخلاصهم من خلال تنفيذ شروط هدنة كان موقفهم فيها موقفاً قوياً، وقد جاء وصف تلك البيعة في الوحي الذي نزل في هذا الصدد: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (4). كان المسلمون يطالبون بحقوقهم، وكانوا يحملون رسالة كانوا متأكدين من صحتها، وكانوا قد اكتسبوا هيبة عظيمة بعد المعارك التي خاضوها في الحقبة قريية العهد، لذا فإن تساهلهم كان غير وارد.

صلح الحديبية

استقبل النبي ﷺ مبعوث قريش، سهيل بن عمرو، الذي اصطحب معه رجلين آخرين، مكرز وحويطب، بدأت المفاوضات بعيداً بعض الشيء عن الصحابة، وتمت مناقشة كل بند من الاتفاقية، مناقشة كانت تقترب بالحدة في بعض الأحيان، وقد طلب النبي ﷺ من ابن عمه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كتابة ما تم الاتفاق عليه أخيراً، فبدأ علي رضي الله عنه بالطبع يكتب النص مبتدئاً بالعبارة المعتادة «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن سهيل اعترض على تلك العبارة، قائلاً إنه لا يعرف الرحمن، وأنه يجب كتابة عبارة «باسمك اللهم»، وهي العبارة الوحيدة التي يعرفها العرب جميعاً (حتى المشركين كانوا يستخدمونها في مخاطبة إلههم الرئيس). واعترض بعض الصحابة على تغيير الصيغة، لكن النبي ﷺ تدخل وقال لعلي بأن يكتب «باسمك اللهم» (5). ثم طلب منه أن يكتب: «هذا ما صالح عليه محمد، رسول الله وسهيل بن عمرو». فاعترض سهيل ثانية: «لو كنا

نعرف أنك رسول الله لما قاتلناك، اكتب: «محمد بن عبد الله»، لكن علياً عليه السلام الذي كان قد كتب الصيغة المألوفة رفض الرضوخ وقال إنه لا يستطيع كتابة ذلك. فطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يدلّه على المكان الذي كتبت فيه العبارة ومحاهها بنفسه، ثم طلب منه أن يكتب ما طلبه سهيل بن عمرو، أي «محمد بن عبد الله». فصدّم علي عليه السلام وبقية الصحابة ولم يستطيعوا فهم موقف النبي صلى الله عليه وسلم. وقد شعروا بمزيد من الانزعاج أيضاً إزاء شروط الاتفاقية، حيث إنها بدت لهم سلسلة من التنازلات غير الملائمة للمسلمين على الإطلاق، كانت المعاهدة تستند إلى أربع نقاط رئيسية: (1) عدم أداء المسلمين للعمرة في تلك السنة على أن يسمح لهم بالبقاء ثلاثة أيام في السنة المقبلة. (2) وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس وكيف بعضهم عن بعض. (3) تسري شروط الاتفاقية على الفور على أي عشيرة أو قبيلة تدخل في عهد أي من الطرفين. (4) من أتى محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه⁽⁶⁾.

وبدأ الصحابة يدركون أنه بعد توقيع اتفاقية بدت لهم أنها تنطوي على الاحتيال فإن عليهم أن يعودوا دون أن يزوروا الكعبة. وقد بلغت خيبة أمهم الذروة عندما شاهدوا وصول أبي جندل، وهو الابن الأصغر لسهيل الذي وقع اتفاقية للتو، كان أبو جندل قد اعتنق الإسلام وهرب ورجلاه لا تزالان مقيدتين بالأغلال، بعد أن كان أبوه قد سجنه منعاً له من الانضمام إلى المسلمين، فعندما رأى سهيل ابنه الهارب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الاتفاقية التي وقعها للتو تنص على أنه لا يجوز له استبقاؤه وأن عليه أن يردّه، واعترف

النبي ﷺ بذلك، وتم تسليم أبي جندل، الذي ناشد الصحابة بأن يساعده، إلى أبيه وأوصاه النبي ﷺ بالصبر، وقد ثار على هذا الوضع أخوه عبد الله، الذي كان قد أسلم من وقت طويل وكان من بين المعتمرين الذين رأوا المشهد، ولم يستطع صحابي آخر، عمر رضي الله عنه، ضبط مشاعره عندما لطم سهيل وجه ابنه بسلاسله، فاندفع إلى النبي ﷺ واحتج بشدة موجهاً إليه سلسلة من الأسئلة كانت تعبر عن خيبة أمله الشديدة، «أست رسول الله؟ ألسنا على حق؟ أليس أعداؤنا على الباطل؟ فلم نُعطى الدنية في ديننا؟»، وكان النبي ﷺ يجيب إجابات رصينة، لكن ذلك لم يكن كافياً لتهديئة عمر رضي الله عنه الذي ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وهو يستشيط غضباً طلباً لمساعدته، فأوصاه أبو بكر رضي الله عنه بأن يلزم الهدوء، حيث إنه كان يرى أن النبي ﷺ على صواب، فتمالك عمر رضي الله عنه نفسه وهدأ، مع أنه كان من الواضح أنه ظل مقتنعاً بأن الاتفاقية كانت تتطوي على الإذلال.

غادر سهيل والمبعوثان الآخران المعسكر وأخذوا معهم أبا جندل الذي انهار والدموع تملأ عينيه، وشعر المسلمون الذين رأوا المشهد ببالغ الحزن وعميق الاشمئزاز، لم يستطيعوا فهم موقف النبي ﷺ الذي علمهم الشجاعة والكرامة وها هو الآن يقبل صفقة غير عادلة، الأمر الذي جعلهم يظهرون بمظهر البائس فيما كان أحدهم يلقي معاملة مهينة ومذلة، وعندما طلب منهم النبي ﷺ أن يضخّوا بإبلهم التي قلّدت وهيئت لتكون أضحيان العمرة، لم يتمالك أحد من الصحابة الاستجابة للنبي ﷺ بسبب ما شعروا من عميق الجراح والمرارة. وكرر النبي ﷺ أمره ثلاث مرات لكن أحداً لم يستجب له، كانت تلك هي المرة الأولى التي واجه فيها عصيان أمره بهذه الطريقة الجماعية والتي تتطوي على الإصرار.

شعر النبي ﷺ بالدهشة والحزن وعاد إلى خيمته وأخبر زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - بما حدث ورفض الصحابة التضحية بالبُدن، أصغت أم سلمة - رضي الله عنها - إليه واقترحت عليه أن يتصرف بحكمة وبصمت: نصحته بالخروج وأن يقوم، دون أن يتفوّه ببنت شفة، بتضحية أضحيته، وأن يكتفي بأن يكون المثل لهم، استمع النبي ﷺ لنصيحتها التي تبين أنها كانت حسيطة، فذهب إلى أضحيته وتلا الصيغة الشعائرية وضعى بها. وعندما رأى الصحابة ذلك نهضوا الواحد تلو الآخر وقاموا بمثل ما فعل. ثم حلق النبي ﷺ رأسه وفعل مثل ذلك بعض الصحابة، بينما قام البعض بقص شعرهم أو مجرد خصلة منه.

المفاهيم الروحية وفهم معنى النصر

سرعان ما أدرك الصحابة أن أحكامهم الأولى بشأن المعاهدة كانت مخطئة كلياً وأنهم لم يقدروا النبي ﷺ حق قدره من حيث عمق روحانيته وثباته العقلي الصارم، وذكأوه البشري وعبقريته الإستراتيجية. كان يستجيب إلى الإشارات، فعندما توقفت ناقته ورفضت التحرك أدرك بحدسه أن المسلمين لن يتقدموا إلى أبعد من سهل الحديدية في تلك السنة، وقد أقنعه فشل المفاوضات الأربع الأولى وعناد قریش بوجوب تذرعه بالصبر، كان شديد الثقة بالحلم الذي رآه حيث رأى أنه يدخل المسجد الحرام وأن هذا لا بد أن يتحقق، وإن كان لا يستطيع في ذلك الوقت معرفة متى سيكون ذلك، فبيعة الرضوان التي بدت في أول الأمر أنها توحد المسلمين ضد العدو قد تحولت، كما رأينا، إلى المعاهدة على الإخلاص الذي كان يقتضي بأن يتحملوا بكرامة شروط اتفاقية سلام.

وعلاوة على ذلك، فعندما رفض سهيل صيغتي المسلمين المألوفتين اللتين تشيران إلى الله وإلى مركز محمد ﷺ بصفته رسول الله، فقد سمع النبي ﷺ وجهة نظره وتمكن، في تلك اللحظة المعينة من تحويل منظوره ورؤية الأشياء من وجهة نظر محاوره، فما قاله سهيل كان صحيحاً تماماً من وجهة نظره، كان من البدهي في الواقع أنه لو اعترفت قريش بمركزه بصفته رسول الله، لما قاتلته، لذا، فإن اتفاقية تستند إلى المساواة لا يمكن أن تنص على عنصر يمثل في الواقع الأمر اعترافاً بما كان أحد الطرفين يعتبره صحيحاً ويناقض في الوقت نفسه موقف الطرف الآخر، أما الصحابة الذين كان توقيهرهم للنبي ﷺ بالغ الشدة فلم يتمكنوا على الفور من سماع حقيقة الطرف الآخر، لكن موقف النبي ﷺ وطريقته المعقولة في نظريته إلى الاتفاقية كانت تنطوي على درس روحي وفكري. فالمسألة هي أن موقف القلب من الحقيقة - الروحانية العميقة - يجب ألا يسمح له أبداً بأن يتحول إلى مسألة عاطفية تنطوي على عى عاطفي، يجب الرجوع دائماً إلى العقل لتحليل المواقف وتلطيف ردود الفعل والمساعدة على إقامة علاقة يقظة ومتماسكة بشأن موقف الطرف الآخر، إن ما بدا على أنه تنازل غير مقبول من وجهة نظر إيمان المؤمنين كان عادلاً ومنصفاً من وجهة النظر المزدوجة لعقلانيات كل من الطرفين اللذين أبرما المعاهدة.

لم يسع محمد ﷺ إذلال قريش بغية إنقاذ شرف المسلمين وهيبتهم، أو حتى استغلال الوضع السياسي الجديد الذي انبثق عن النصر الذي أسفرت عنه معركة الخندق، فالموافقة على عدم دخول المسجد الحرام في تلك السنة أخذت بعين الاعتبار هشاشة قريش وحافظت لها على

هيبتها، وهذا أدى إلى سلام طويل الأمد، وقد كان من المقدر لذلك السلام الذي أخذ بالاعتبار المصالح العامة للمعسكرين، أن يتحول إلى مصلحة المسلمين، فالفقرات التي نصت على رد الذين يهاجرون إلى المدينة وتوفير الملاذ للمسلمين الذين يغادرون المدينة ويذهبون إلى مكة لم تؤثر إلا هامشياً على الجماعة الإسلامية، وإيمان الإنسان الذي يأتي من مكة ويرده المسلمون إلى عشيرته يجب ألا يتأثر - رغم المعاناة - من هذا النفي المفروض بالقوة، وخلافاً لظاهر الأمور، التي بدا أن حالة أبي جندل تؤيدها، فإن محمداً ﷺ لم يقدم أي تنازل يذكر بشأن هذه النقطة.

لقد مكن توكل النبي ﷺ على الله، الذي اقترن بثبات فكري صارم وذهن مرهف حاد بشكل استثنائي، من إرساء قواعد هدنة عشرة أشهر مع وعد بزيارة المسجد الحرام في العام المقبل، لكن معظم الصحابة، لاسيما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم ينظروا إلا إلى النتائج الآنية وشعروا بأن هذا ينطوي على إذلال لا يمكن أن يعتبر إلا هزيمة للمسلمين، وكما كان حال الكثيرين غيره، فقد ندم على رد فعله العنيف على النبي ﷺ، لكنه ظل على قناعة بأن الاتفاقية كانت استسلاماً لقريش. وفي طريق العودة. تم إبلاغه بأن النبي ﷺ استدعاه، كان يخشى من أن يكون النبي ﷺ قد أرسل في طلبه ليوبخه على موقفه غير اللائق، أو، الأسوأ من ذلك، ليقول له بنزول آيات مختلفة كل الاختلاف عما كان من المحتمل أن يتوقعه، وقد جاء في الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (8). ثم ذكر بيعة الرضوان:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (9). كل هذا قد جاء في ضوء رؤيا محمد ﷺ التي كانت صادقة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ

اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّءُفُ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٠﴾.

لقد تم عرض أحداث الماضي قريب العهد بطريقة مختلفة كل الاختلاف مع منظور الصحابة لها: فبيعة الرضوان للاستعداد للقتال كانت في الحقيقة تعهداً بالإخلاص للسلام وتم تصوير الهزيمة الظاهرة على أنها ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وأن الحلم الذي بدا أنه أجهض على أنه مؤكد في المستقبل ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لم تفهم الغالبية العظمى من المسلمين أو لم يروا أو لم يستطيعوا إدراك الدلائل والآمال التي أتاحها الاتفاقية؛ لذا، فإن توقيع الاتفاق كان، مرة أخرى، لحظة متميزة لتعلم دروس روحية وربما مع درس استثنائي بشأن قيمة الذكاء وصفاء الرؤية، كان الإصغاء والقدرة على تغير وجهة النظر واحترام كرامة الآخر وبعد النظر بعضاً من الصفات التي أظهرها النبي ﷺ والتي أسهمت في رسم دوره كقدوة للمسلمين.

كما كان قدوة أيضاً من منطلق آخر في حياته: عندما رفض الصحابة التضحية بالجمال، عاد إلى زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - التي أصغت إليه وواسته، فأظهرت له ثقته واقترحت عليه الحل لمشكلته. فذلك الحوار وذلك التفهم والإصغاء يعبران عن صميم جوهر موقف النبي ﷺ من زوجاته، وكما جرى قبل عدة سنوات مع خديجة - رضي الله عنها - فإنه لم يتردد أبداً في الإسرار إلى زوجاته، واستشارتهن والتحدث إليهن واعتماد آرائهن، ففي الوقت الذي كان فيه مستقبل الجماعة بأسرها

يتحدد من خلال الرؤى والتعهدات بالولاء واتفاقيات السلام، فقد عاد إلى جانب زوجته مرة كإنسان بسيط، أخبرها بحاجته إلى الحب والثقة والنصح - وهذا قدوة لجميع البشر.

احترام العهود

كان المسلمون قد رجعوا إلى المدينة وعادت الحياة اليومية إلى مجراها في جو أقل توتراً بكثير مما كان عليه الوضع سابقاً، فقد أتاح لهم الهدنة خفض حذرهم من الخارج وإعطاء المزيد من الاهتمام لشؤون الجماعة اليومية، وأخذ عدد الداخلين في الإسلام يزداد وكان يتعين مواصلة التخطيط والتنظيم لدمجهم وتعليمهم الإسلام، وقد انضمت شخصيات ذات شأن في الجزيرة إلى المئات من الناس العاديين الذين دخلوا الإسلام في المدينة أو الذين أتوا ليستقروا في المدينة، فعلى سبيل المثال، هاجر أخو عائشة - رضي الله عنها - عبد الكعبة، بعد وفاة أمه، أم رمان، التي أثرت وفاتها على أبي بكر رضي الله عنه تأثيراً عميقاً، وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسم عبد الكعبة إلى عبد الرحمن: كان قد درج على تغيير الاسم عندما يكون للاسم الأصلي معنى غير سائب أو يشير إلى موقف يعتبره الإسلام محرماً، وهكذا فقد كان معنى عبد الكعبة يتعارض مع مبدأ الإسلام المتعلق بعبادة الله وحده. وفي حالات أخرى، كان باستطاعة المسلمين الإبقاء على الاسم الأصلي، وهو ما كانت تختاره الغالبية العظمى منهم، فلم يكن المسلمون الأوائل يتصورون أبداً شيئاً مثل «الأسماء الإسلامية» التي هي من أصل عربي حصراً، بل إن ما كان يشغلهم هو العكس: كان عليهم تجنب بضعة أسماء تنطوي على معان مخالفة بوضوح للتعاليم الإسلامية، والسماح باختيار

غير مقيد لمختلف أنواع الأسماء الأخرى، من جميع اللغات والأصول، كان لديهم أسماء بالغة التنوع من أصل عربي أو فارسي أو بيزنطي، ولم يكن ذلك يشكل أي مشكلة على الإطلاق بالنسبة للنبي ﷺ ولصحابته.

خلال هذه الأشهر التي جرت فيها الإدارة والتنظيم الداخليين، واجه المسلمون حالة أخرى من تسليم الفارين، فقد جاء أبو بصير إلى المدينة من مكة وطلب من محمد ﷺ اللجوء، لكن النبي ﷺ الذي كان ملتزماً التزاماً دقيقاً بشروط الاتفاق الذي وقعه، فلم يكن في وسعه أن يسمح له بالبقاء، وعندما جاء مبعوث من قريش، يصحبه أحد الرقيق واسمه كوثر ليطلب رد أبي بصير لم يسع النبي ﷺ سوى الاستجابة للطلب. ففادروا ومعهم أبو بصير كأسير، بينما أوصى محمد ﷺ وأصحابه أبا بصير بالصبر، وفي وقت مبكر من رحلة العودة استغل أبو بصير غفلة من حراسه وقتل مبعوث قريش، ففر الرقيق فزعاً وعاد إلى المدينة وسرعان ما انضم إليه سجينه السابق، أراد محمد ﷺ أن يعيدهما ثانية إلى مكة، لكن الخوف بلغ من كوثر درجة كبيرة حتى أن النبي ﷺ لم يكن لديه حل يتيح له الوفاء بعهده غير أن يطلب من أبي بصير مغادرة المدينة (إذ إن الاتفاق كان ينص على عدم السماح له بالبقاء). على أنه لم يكن يجب عليه التأكد من عودته إلى مكة، إذ إنه لم يكن يوجد حارس يأخذه إليها، فأمره النبي ﷺ بالمغادرة طبقاً لنصوص المعاهدة وأبدى ملاحظة فيها تورية لأصحابه: «لو كان معه رجال!»⁽¹¹⁾ ولم يعد أبو بصير إلى مكة، بالطبع: واستقر به المقام في إحدى الطرق المؤدية إلى الشمال التي كان تطرقها القوافل، لاسيما قوافل قريش. وسرعان

ما انضم إليه مسلحون آخرون من الذين هربوا من مكة وسمعوا قصته، وقرروا مهاجمة القوافل التي تسلك الطرق الشمالية⁽¹²⁾. وقد ازداد عدد جماعة المسلمين وازداد عدد الهجمات وفعاليتها حتى أن قريشاً ذاتها طلبت من النبي ﷺ أن يقبل أبا بصير ورجاله وجميع المهاجرين الآتين من مكة، وهكذا فقد نجحت خطتهم واستقبلهم النبي ﷺ، بناء على رغبة قريش في تعليق مفعول تلك الفقرة من المعاهدة، وتجدر الإشارة إلى أن النبي ﷺ رفض أن يرد النساء (على سبيل المثال، أم كلثوم بنت عقبة) تحت أي ظرف من الظروف، لأن المعاهدة لم تذكر سوى الرجال: ولم تعترض قريش على ذلك.

إلى جميع الحكام

تضاعف عدد المسلمين خلال السنوات التي أعقبت المعاهدة، فخلال أشهر الهدنة قرر النبي ﷺ إرسال رسائل إلى جميع حكام الإمبراطوريات والممالك والأمم المجاورة.

وهكذا فقد استلم نجاشي الحبشة رسالة جديدة من النبي ﷺ قبل اعتناقه الإسلام ووافق على أن ينوب عن النبي ﷺ في عقد قرانه على أم حبيبة، التي، كما ورد آنفاً، تخطى عنها زوجها في الحبشة، وكتب محمد ﷺ أيضاً إلى كسرى، ملك فارس، وإلى هرقل، إمبراطور الروم، وإلى المقوقس، حاكم مصر (الذي أرسل إلى النبي ﷺ جارية قبطية، ماريّا، كهديّة)⁽¹³⁾ وإلى منذر بن سوي، ملك البحرين؛ وإلى الحارث ابن أبي شمّر الغساني، الذي كان يحكم جزءاً من الجزيرة العربية حتى سواحل بلاد الشام، كان محتوى الرسائل واحداً تقريباً: فقد

عرف النبي ﷺ عن نفسه بأنه «رسول الله» للذين أرسل لهم الرسائل وذكرهم بوحداية الله ودعاهم إلى الإسلام، وفي حال رفضهم فإنهم سيتحملون المسؤولية أمام الله لإبقاء شعبهم في ضلال.

اختلفت ردود الملوك والحكام على تلك الرسائل المختلفة: فبعضهم (مثل النجاشي ومنذر بن سوي) قبلوا الرسالة، وبعضهم الآخر (المقوقس وهرقل) أظهر الاحترام دون الرغبة في القتال أو اعتناق الإسلام، وآخرون (الحارث ابن أبي شمر الغساني، على سبيل المثال) رفضوا الرسالة وهددوا بمهاجمة المسلمين، على أن الرسالة أصبحت معروفة للجميع وأصبحت الجماعة الإسلامية مستقرة الآن في المدينة، معترفاً بها بهويتها الدينية، وتحظى بالاحترام بوصفها قوة إقليمية، واعتبر زعيمها، محمد بن عبد الله، إما نبياً كان من المقدر أن يتسع حكمه بمشيئة الله، أو كملك قوي يخشى جانبه ويتعين احترامه والخوف منه.

لقد كانت هدنة الحديبية نصراً حقيقياً وفتحاً للعالم: كان القتال قد استنفذ كل طاقة الجماعة التي كانت تسعى إلى حماية نفسها وتقاوم لتظل على قيد الحياة، أما الآن، فقد تغيرت الأحوال، وفي ذلك الجو السلمي، أصبح بإمكان النبي ﷺ أخيراً أن يبلغ مضمون رسالة الإسلام: مبدأ التوحيد الذي يحرر البشر من الانشغال المحتمل بالمصالح والسلطات المؤقتة، ليوصلهم إلى احترام التعاليم الروحية والأخلاق والقيم التي يجب أن يخلصوا لها، كانوا حبيسي الحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم، مقيدين بضرورة دفع الأخطار عن أنفسهم، فدافعوا عن حياتهم وسلامتهم لكن لم يكن لديهم سبيل التعبير عن مضمون ومعنى ما كانوا يؤمنون به، كان

السلام، الذي أصبح سائداً في كامل الجزيرة، قد غير الوضع: أخذت تزداد أعداد العشائر التي أصبحت الآن قادرة على استيعاب رسالة الإسلام، فقد دخل فيه بعضهم وأظهر آخرون احتراماً له دون الدخول فيه؛ وقاومه آخرون ولكن مع وعي تام، وليس لمجرد علاقات السيطرة والثروة والسلطة.

خيبر

على أنه ظل حصن أخير يمثل تهديداً خطيراً لأمن الجماعة الإسلامية بعد توقيع معاهدة الحديبية، كان هذا الحصن يتمثل في مدينة خيبر التي استقبلت الكثيرين من المهاجرين على إثر انتصارات المسلمين السابقة. كانت خيبر قوة إقليمية يخشاها الجميع وبدأ أن مهاجمتها غير موضوع بحث لأن حصونها وأسلحتها وثرواتها أرقى بكثير مما يمكن لأعدائها، بمن فيهم المدينة، أن يأملوا في قتالها والتغلب عليها، وكان زعماء خيبر الذين استرشدوا بنصائح أفراد بني قنيقاع وبني النضير وبني قريظة، يكون العداء لوجود محمد ﷺ في المنطقة ولم يتركوا مناسبة لإظهار ذلك وإلحاق الأذى بمصالح جماعته أو لفرادى جماعته كلما سنحت لهم الفرصة.

قرر النبي ﷺ إعداد حملة ضد خيبر، لكنه كان مصمماً على السرية حتى اللحظة الأخيرة، كي لا ينتبه العدو، وفي حين أنه كان بإمكان خيبر الاعتماد فقط على أربعة عشر ألفاً من الرجال، إلا أن محمد ﷺ قرر الذهاب إلى هناك بجيش مؤلف من ألف وأربع مئة فقط (مع أنه بإمكانه حشد عدد أكبر من ذلك). وعند اقترابه من المدينة ليلاً، دعا إليه دليلاً كان يعرف المنطقة معرفة جيدة وعسكر بين اثنين من الحصون: بهذه الطريقة استطاع قطع الاتصال بين أهل خيبر وحلفائها من غطفان،

وعند طلوع الفجر دهش سكان الحصنين وساد الخوف فوراً بين صفوفهم، واستمر الحصار عدة أيام، كان محمد ﷺ ورجاله يجمعون خلالها المعلومات التي تمكنهم من وضع أفضل خطة لإجبار العدو على الاستسلام، وقرروا مهاجمة القلاع الواحدة بعد الأخرى، ابتداءً بالأكثر انكشافاً والأكثر هشاشة، وقد نجحت الطريقة نجاحاً كبيراً، ولم يمض وقت طويل حتى سقطت القلعة الأولى، وجرت مناقشة شروط الاستسلام لكل حصن على حده، ولكن كان يطلب من المهزومين في معظم الحالات ترك ممتلكاتهم والرحيل مع نساءهم وأطفالهم.

وقاوم الحصن الرئيس الأخير قرابة أربعة عشر يوماً لكنه استسلم في آخر الأمر، إذ إن حصار المسلمين كان خانقاً ولم يترك أي أمل بالانتصار، ثم استسلم الحصنان الباقيان وجرت المفاوضات بشأن شروط استسلامهما. ووافق النبي ﷺ على السماح للسكان بالبقاء والاهتمام بمزارعهم وبساتينهم، على أن يدفعوا للمسلمين ضريبة دورية عن منتجاتها، فبعد الانتصار على كافة الحصون، استطاع النبي ﷺ أن يجيّد آخر عدو رئيس له في المنطقة.

كان من بين الأسرى صفية ابنة حُيٍّ (كان حُيٍّ هو المسؤول عن خيانة بني قريظة). لم تكن صفية مثل أبيها على الإطلاق وكانت تحاول فهم تعاليم النبي ﷺ. كانت تقية ولم تكن تشعر بالعداء نحوه مثل أهلها، وكان النبي ﷺ قد سمع عن هذه المرأة وروحانياتها، ولم تتردد في أن تخبره عن رؤيتها التي قرنت مصيرها بمصير المدينة، وقد أصغى إليها

النبي ﷺ ثم خيرها، بين أن تبقى على يهوديتها وتعود إلى أهلها أو أن تدخل في الإسلام وتتزوجه، فقالت: «أختار الله ورسوله!» وتم الاحتفال بالعرس بعد مدة وجيزة.

كانت تلك السنة السابعة للهجرة (628م) مرحلة جديدة، فقد ساد السلام الآن في المنطقة ولم يعد المسلمون يخشون الهجمات من الشمال. وقد مكنت الاتفاقيات التي نظمت علاقات القبائل والعشائر، أو التجارة بصفة عامة، المسلمين من الاستقرار بأقصى درجة من الأمان. وكان لتعدد زواج النبي ﷺ علاقة بذلك الوضع: فقد كانت بعض زوجاته من عشائر أصبحت في واقع الأمر، أقارب للنبي ﷺ ولذا فقد عدوا أنفسهم حلفاء طبيعيين له، ومن ثمَّ بدأ أن الجماعة الإسلامية ذاتها أصبحت منيعة مرهوية الجانب، ففي خلال ثمان سنوات، لم تستقر في مدينة جديدة، المدينة فحسب، بل ضمنت لنفسها مركزاً لا يوازيه مركز فضلاً عن الهيبة الإقليمية.



الفصل الثالث عشر

العودة إلى الوطن

رحبت الجماعة الإسلامية في المدينة بالنساء والرجال الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة وعاشوا هناك مدة خمس عشرة سنة تقريباً، كان من بينهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه (الذي عاد وقد تزوج أسماء بنت عميس وأصبح أباً لثلاثة أطفال). وعادت أيضاً أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تم عقد قرانها وناب فيه النجاشي عن محمد صلوات الله عليه، واستقر بها المقام في بيتها قرب المسجد، واستمرت الحياة اليومية وظل عدد المسلمين يزداد ازدياداً مطرداً، الأمر الذي دفع النبي صلوات الله عليه لزيادة مناسبات التثقيف بالدين وأن يعهد إلى أخلص صحابته بهذه المهمة.

وكانت الأعمال القتالية تندلع هنا وهناك، وظل محمد صلوات الله عليه يرسل جماعات صغيرة لتسوية الأمور، لكن كانت الحاجة تدعو في بعض الأحيان إلى قتال قبائل بقيت مصممة على تحدي سيطرة المدينة.

أسامة بن زيد رضي الله عنه

وكان محمد صلوات الله عليه قد أرسل حملة إلى قبائل بدوية شمالية، لاسيما قبيلة بني مرة التي ظلت تهاجم المزارعين اليهود الذين كانوا يعملون في واحة فدك، التي كانت خاضعة لسلطة النبي صلوات الله عليه. وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة وقتل جميع

أفراد الحملة الثلاثين، وقرر النبي ﷺ إرسال جماعة أخرى تضم مثلي رجل، بمن فيهم أسامة بن زيد رضي الله عنه، الذي كان عمره سبعة عشر عاماً فقط⁽¹⁾.

كانت المعركة صعبة حيث إن عدداً من القبائل قد انضموا إلى بعضهم على أمل إلحاق الهزيمة بالمقاتلين المسلمين والاستيلاء على واحة فدك وثرواتها، غير أن الوضع انقلب لمصلحة المسلمين، وقد سخر أحد أفراد قبيلة بني مرة من أسامة رضي الله عنه وصغر سنه، ولم يستطع أسامة رضي الله عنه لجم حدة غضبه فقرر خوض القتال على الفور ضد الرجل الذي استهان به، وبما أن موقف البدوي كان ضعيفاً فقد فضل الفرار على مقاتلة أسامة رضي الله عنه. وقد دفع الغضب أسامة رضي الله عنه إلى ملاحقته متجاهلاً أمر قائد الحملة بأن يبقى الجميع معاً في جميع الأوقات، وقد استطاع أسامة رضي الله عنه اللحاق بعده وألقى به أرضاً وجرحه، فصرخ البدوي: «أشهد أن لا إله إلا الله!» لكن أسامة تجاهل هذا وقلته، وعندما عاد إلى المعسكر وروى القصة استنكر قائد الجماعة وبقيّة الجنود سلوكه، وأدرك أسامة رضي الله عنه فداحة خطئه وعزل نفسه إلى حين عودتهم إلى المدينة.

ذهب أسامة رضي الله عنه على الفور لرؤية النبي ﷺ الذي رحب به بحرارة شديدة في أول الأمر. على أنه عندما أخبره أسامة رضي الله عنه عن المبارزة، أعرب النبي ﷺ عن استنكاره الشديد وسأله: «أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟» فأجاب أسامة أن البدوي لم يتفوه بالشهادة إلا ليتجنب القتل على يد أسامة، فقال له النبي ﷺ: «أو شققت عن صدره لتعرف إن كان صادقاً أو كاذباً؟» أصيب أسامة رضي الله عنه بالجزع وخشي ألا تغفر خطيئته.

على أن النبي ﷺ سامحه، بعد أن لقنه درساً عن الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المرء مع الناس وأسرار قلوبهم، في الحرب أو السلم.

كانت شهادة البدوي تقتضي ألا يتعرض للقتل على يد أسامة ﷺ، فإذا كان صادقاً، كان من البدهي أنه يجب على أسامة ﷺ الإبقاء على حياته، وإن لم يكن صادقاً، فإن قوله كان عبارة عن أنه ينشد السلام والرحمة، في مثل هذه الحالة، كان الوحي قد أهاب بالمسلمين بأن يتذرعوا بالفطنة وضبط النفس وأن ينشدوا السلام.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ (2).

فالبدوي عندما رأى الموت طلب السلام لكن أسامة الذي أعماه تصميمه على الدفاع عن شرفه في هذه الدنيا (حيث إنه تعرض للسخرية) عاد إلى الممارسات القبلية التي كان يجب فهمه للإسلام أن يهذبها، فمهما كانت نظرتة إلى النوايا الكامنة وراء نطق عدوه بالشهادة، فما من شيء يمكن أن يبرر تصرفه أو موقفه، وقد عاهد أسامة ﷺ نفسه ألا يطلق العنان لنفسه بتلك الطريقة وأن يتصرف بعد ذلك بفطنة واحترام، وسوف نرى أن النبي ﷺ سوف يعهد إليه بعد ثلاث سنوات - عند اقتراب انتقاله من هذه الدنيا - بالوصايا والدروس التي تشكل أخلاق الحرب الإسلامية.

إن ما في القلوب يتجاوز معرفة البشر، وقد كان النبي ﷺ نفسه مثلاً في الحرص والتواضع عندما كان الأمر يتعلق بالحكم على الأفراد الذين كان صدقهم ونواياهم موضع شك، وكان يعرف حق المعرفة أنه يوجد الكثيرون من المنافقين حوله، لكنه لم يتخذ أي إجراء إزاءهم، فقد ظل حذراً وفي بعض الأحيان محتسباً، لكنه كان يتجنب إصدار أي حكم نهائي، وأوضح مثال على ذلك كان عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كذب عدة مرات، ثم انشق عن المسلمين قبل معركة أحد وبقي يحافظ على علاقاته مع أعداء الجماعة الإسلامية، لكن النبي ﷺ لم يتخذ أي إجراء انتقامي بحقه هو وأصدقائه، سوى أنه كان يستبعده من الأوضاع الحساسة أو الحملات، بل إنه صلى عليه عندما توفي بعد مدة قصيرة من عودته من غزوة تبوك، على الرغم من احتجاج عمر الشديد.

وعلاوة على ذلك فقد نهاه الوحي عن الصلاة على المنافقين المشهورين، برداء السمعة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (3).

ومع أن هذه الآية التي تبدو صارمة وواضحة بشأن الموقف الذي يتعين اتخاذه من المنافقين عند موتهم، إلا أنه يعبر بخلاف ذلك عن رسالة صارمة بشأن طريقة التعامل معهم في شؤون الحياة اليومية وحتى آخر لحظات حياتهم، فما من شيء يبرر إصدار حكم نهائي على نفاقهم طيلة حياتهم، وتجلى السلوك المناسب في المثال الذي ضربه النبي ﷺ الذي لم يسمح لنفسه بإصدار حكم عن أي منافق طيلة حياة ذلك

المنافق، إذ إن كل شيء يظل ممكناً حتى آخر النهاية فيما يتعلق بتحول القلب وصدقه، وقد نهى الله عن الصلاة عليهم فقط بعد موته، حين لم يعد بالإمكان حدوث العكس وأصبح من الواضح أنهم عاشوا وماتوا في النفاق والخيانة والأكاذيب (4).

ماريا

استمر النبي ﷺ في حياته الخاصة التي كانت تفيض منه أن يولي اهتماماً خاصاً لزوجاته، حيث إنه كانت تحدث في بعض الأحيان توترات حادة ومزعجة بين النساء أو مع أسر كل منهن. أما هو فقد ظل يسترضي الجميع ولا يجب إزعاج أي من زوجاته. وقد روت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان موجوداً دائماً ومنحرفاً في حياته المنزلية وأنه كان يراعي زوجاته ويساعدهن في عملهن المنزلي وكان «يخيط نعله ويرقع ثوبه» ولا يتوقف إلا حين يسمع الأذان ويذهب إلى المسجد (5). وكان في جميع الأحوال، حتى في شهر رمضان، لطيفاً ورقيقاً وودوداً بشكل خاص، وتؤكد روايات عديدة عن عائشة - رضي الله عنها - بشكل خاص، هذا الجانب من شخصيته الذي كانت زوجاته يقدرنه فيه ويُشَدْنَ به.

لقد نجم عن الحياة في المدينة، حيث كانت النساء أكثر وجوداً أو حيوية مما كانت عليه الحال في مكة، والوضع الاقتصادي الذي تحسن، عدة تغييرات في سلوك زوجات النبي ﷺ. وهذا أزعج عمر رضي الله عنه الذي كانت زوجته لا تتردد في مراجعته، خلافاً لعادات نساء مكة، وعندما عاتب عمر رضي الله عنه زوجته، أجابت بأن ابنتهما حفصة - رضي الله عنها - ذاتها، كانت تقوم بنفس الطريقة بمراجعة النبي ﷺ، زوجها، الذي كان يقبل ذلك وأن

على عمر رضي الله عنه أن يقبل مواقف مماثلة، وقد ذُهل عمر رضي الله عنه وانطلق إلى ابنته ليسألها فأكدت له أنها لم تكن هي وبقية الزوجات يترددن في التعبير عن آرائهن ومجادلة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهن كنّ يراجعنه بكل حرية وأنه يقبل هذا الوضع، فذهب عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لينصحه بإصلاح أوضاع حياته الخاصة على الفور، فأصغى النبي صلى الله عليه وسلم إليه وابتسم لكنه لم يفعل شيئاً.

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عود زوجاته على اهتمامه بهن والحوار معهن، كان يصغي إلى نصيحتهن وظل طيلة حياته محافظاً على موقف الاحترام الذي كان يظهره لخديجة رضي الله عنها. وكان باستطاعة زوجاته التفريق بين دوره بصفته نبياً وحياته بصفته زوجاً وإنساناً، بل إن عائشة - رضي الله عنها - كانت قد غضبت من موقف النبي صلى الله عليه وسلم وشكوكه بعد حادثة الإفك، وعندما قالت لها أمها أن تشكر النبي صلى الله عليه وسلم على ما جاء به الوحي من تبرئتها رفضت أن تشكره وقالت إنها ستشكر الله لا النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان قد شك بها. ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يطلب أبداً بأن يعامل بأي طريقة خاصة، وكان يحاول أن يلبي طلبات زوجاته العديدة، ومع الوقت، تغير الوضع، إذ إن الانتصارات التي تم إحرازها وكثرة الأنفال قد جلبت شيئاً من البحبوحة إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت زوجاته قد بدأن يطلبن المزيد، حيث بدا لهن أن ذلك تعويض عادل عن القيود الموضوعة عليهن بشأن مظهرهن وحركاتهن جراء مركزهن.

وقد تسارعت الأحداث بسبب مجيء الجارية ماريّا التي أهداها المقوقس للنبي صلى الله عليه وسلم (6). كانت ماريّا خارقة الجمال، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من زيارته لها، فأثار ذلك غيرة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تتردد عائشة

وحفصة - رضي الله عنهما - في انتقاد ماريّا وموقف النبي ﷺ عندما كانا تتحدثان مع بعضهما في غيابه، في أول الأمر قرر النبي ﷺ نقل مسكن ماريّا بعيداً إذ إن تلك التهجّمات كانت تؤلمها، وبعد فترات من الوقت، مع ازدياد الوضع سوءاً، وعد بأن يفترق عنها، لكن الوحي أثناه عن ذلك القرار الذي أجبر النبي ﷺ نفسه على اتخاذه، طلب من زوجاته الاختيار بين البقاء معه أو الطلاق⁽⁷⁾. هذا الوضع المتأزم أصاب الزوجات والكثير من الصحابة بالجزع، بمن فيهم عمر رضي الله عنه، حيث إن النبي ﷺ اعتزلهن، ورفض رؤيتهن مدة شهر تقريباً، إلى أن مارسن الاختيار، مثلما أمر الوحي، فقد اخترن كلهن «الله ورسوله»، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عندما سأله النبي ﷺ (حين تلا الآيات التي نزلت عليه بشأن زوجاته ومستقبله)⁽⁸⁾.

لقد كانت ماريّا الجارية اختباراً لزوجات النبي ﷺ، ففي الحياة الخاصة، كما ذكرنا، كان بإمكانهن التفريق بين مركز محمد ﷺ بصفته نبياً وكونه يظل بشراً يمكن توجيه النصيح إليه ويمكنهن مراجعته بل حتى مجادلته، لكن لم يكن بوسعهن محاولة استخدام مركزه بصفته نبياً في الحياة العامة للحصول على حقوق أو معاملة خاصة من الجماعة، كما أن الوحي ذكرهن بأن كونهن زوجات لنبي أو لرجل تقي لا يؤهلن لأن يزعمن بأنهن حصلن على صفات الإيمان وأن يعتبرن ضمناً أنهن مصطفيات: فزوجتا نوح ولوط كانتا من الضائعين بينما نجت امرأة فرعون لتقواها، رغم أنها كانت تعيش مع رجل متكبر جبار لا يعترف بوجود الله⁽⁹⁾. ففي كل زوجين تكون مسؤولية وخيارات وسلوك كل زوج هو الذي يحدد مصيره

أو مصيرها. بهذا الصدد لم يكن لزوجات النبي ﷺ الادعاء بأي امتياز وكان عليهن الاتصاف بالتواضع، وقد اشتدت فتنة الزوجات بعد أن أصبحت ماريّا أمّاً للصبي الوحيد الذي ولد للنبي ﷺ بعد القاسم وعبد الله (ابني خديجة - رضي الله عنها - اللذين توفيا في سن مبكرة). وقد سمى النبي ﷺ ابنه إبراهيم، على اسم النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أهل ماريّا الأقباط يعتبرونه أبا التوحيد.

العمرة

انقضى عام على معاهدة الحديبية، وحن الوقت للاستعداد لزيارة مكة حسب نص المعاهدة، وبناء عليه فقد انطلق ألفان من المسلمين مع النبي لأداء العمرة⁽¹⁰⁾. وكان بينهم رجل فقير كان قد وصل من مكة بعيد عودة المسلمين من خيبر وأقام مع أهل الصفة، كان فقيراً رقيق الحال وسماه النبي «أبا هريرة»، لأنه كان شديد الحب للقطط، كان أبو هريرة هذا قد دخل في الإسلام في وقت متأخر نوعاً ما وأصبح واحداً من أكثر رواة أحاديث النبي ﷺ موثوقية واحتراماً.

انطلق المعتمرون إلى مكة وتوقفوا عند حدود الأرض الحرام لينتظروا خروج قريش من المنطقة والسماح للمسلمين بأداء شعائرهم بحرية وكان المسلمون يرتدون ثياب الإحرام ودخلوا مكة حينما كان القرشيون يراقبونهم من التلال المحيطة، وطاف محمد ﷺ بالكعبة سبع مرات ثم قام بالسعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة، ثم قام بذبح جمل كأضحية وحلق شعر رأسه، وبذلك أتم شعائر العمرة وتلاه بقية المعتمرين. وقد

أراد دخول الكعبة ذاتها، لكن قريشاً لم توافق انطلاقاً من أن ذلك لم يكن جزءاً من اتفاقهم، ولم يخالفهم النبي ﷺ في ذلك، وبقي طيلة مدة إقامته ضمن بيت الله، حيث كان بلال ؓ يؤذن للصلاة خمس مرات كل يوم بصوته الندي القوي، وقد أعجب الكثيرون من قريش المتمركزين في التلال مما رأوه من المسلمين، كما أعربوا عن ذلك لاحقاً، جراء ممارسات المسلمين الدينية البسيطة والمهيبة وسلوكهم.

في هذا الوقت أشهر عم النبي ﷺ، العباس ؓ، إسلامه وعرض على النبي ﷺ الزواج من ميمونة، أخت زوجته التي كان زوجها قد توفي وقبل النبي ﷺ العرض، وكان يرغب في أن يحتفل بزواجه في مكة، لكن قريشاً رفضت بشدة: فقد انتهت الليالي الثلاث، وكان على المعتمرين مغادرة مكة حسب نصوص المعاهدة الموقعة في السنة المنصرمة، فأذن النبي ﷺ: ومنع الصحابة من أن يتفوهوا بأي شيء غير ملائم عن قريش، وغادر مكة إلى المدينة على الفور، وقد أنشأ النبي ﷺ أيضاً، من خلال زواجه من ميمونة علاقة مصاهرة مع أشد خصومه المخزوميين الذين أصبح بينه وبينهم صلة قرابة منذ ذلك الحين.

بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة وعودة الحياة اليومية إلى مجراها، سمع بوصول غير متوقع لثلاثة رجال كانوا قد التقوا في الطريق ووصلوا معاً لمقابلته، فقد جاء عثمان ابن طلحة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص للدخول في الإسلام، ومبايعة النبي ﷺ الذي كانوا قد قاتلوه قتالاً شديداً طيلة سنوات عديدة، وقد سر النبي ﷺ كثيراً بذلك، كما سر جميع الصحابة، الذين كانوا يعرفون مزايا الرجال الثلاثة: فقد كان التزامهم

صادقاً ودون تحفظ ولم يخيب المستقبل ظنهم فيهم، حيث إنه كان حافلاً بما حققوه من نجاح، لقد كان دخولهم في الإسلام، مثل دخول أبي هريرة قبل وقت قصير، ينطوي على دروس عديدة فلم يطو النسيان ماضي أشد أعداء الإسلام بمجرد شهادتهم بواحدانية الله فحسب، لكن ما احتاجه هؤلاء الرجال لاتباع طريق التوحيد لم ينبئ بشيء عن إخلاصهم ومزاياهم المعنوية ومركزهم المقبل داخل جماعة المؤمنين. فبعد أن كانوا معادين للنبي ﷺ ورسالته طيلة ما يقرب من عشرين سنة، طرأ عليهم تحول عميق، وأصبحوا خلال السنتين الأخيرتين من حياة النبي ﷺ، مثلاً للصحابة ولجميع المسلمين عبر القرون من حيث الإيمان ونكران الذات والاستقامة، وهكذا فإن الإيمان - من حيث عمقه وقدرته على تحويل القلوب - لا يقاس استناداً إلى الزمن أو المنطق فصدقه وعمقه يشهدان بطبيعته، ولهذا فإن بوسع شخص حديث العهد في الإسلام أن يبلغ درجة من الاستنارة الداخلية أعمق وأكمل مما يمكن أن يبلغه شخص آخر بعد سنوات من الممارسة الدينية، والعكس صحيح أيضاً وهذا يقتضي من الناس، مرة ثانية، الامتناع عن إصدار الأحكام بشأن قلوب الآخرين.

مؤتة

بعد بضعة أشهر قرر النبي ﷺ إرسال مبعوثين إلى الشمال، للتأكد من ثبات التحالفات القائمة وقدرة المسلمين على السفر إلى بلاد الشام من أجل تجارتهم، فتم إرسال خمسة عشر رجلاً لكن أربعة عشر منهم قتلوا؛ وفي الوقت نفسه، قُتل مبعوث آخر، كان قد أُرسل إلى بصرى

أوقفه زعيم قبيلة غسان وقتله، كان من الواضح أن الخطر من بلاد الشام أخذ في الازدياد وكان لا بد من اتخاذ إجراءات بشأن جرائم قتل المبعوثين المسلمين، فقرر النبي ﷺ إرسال جيش من ثلاثة آلاف رجل، تحت إمرة الرقيق السابق زيد بن حارثة ﷺ - الأمر الذي أثار دهشة شديدة لدى الصحابة، وأضاف أنه في حال قتل زيد ﷺ، يتولى القيادة جعفر ﷺ، الذي كان قد عاد حديثاً من الحبشة، إذا قتل جعفر ﷺ فيحل مكانه عبد الله بن رواحة ﷺ.

سار الجيش وعند وصولهم إلى قرب بلاد الشام، سمعوا بأن أكثرية من القبائل العربية قد تجمعت واستطاعت الحصول على دعم من جنود الإمبراطورية البيزنطية، بحيث أصبح عددهم أكثر من مئة ألف مقاتل. على أن عدد المسلمين كان مجرد ثلاثة آلاف رجل ولم يكن لديهم أي أمل في النصر، لذا عقد اجتماع لتقرير ما إذا كان عليهم أن يعودوا إلى المدينة وإرسال مبعوث لطلب التعزيزات أو مجرد خوض القتال على الرغم من الاختلاف الكبير بين الجيشين، فانطلاقاً من ثقة وحماس بعض الصحابة (بمن في ذلك بوجه خاص عبد الله بن رواحة ﷺ، الذي تحدث وهم في الطريق بأنه شعر بأنه سوف يستشهد)، قرروا المضي حسب الخطط السابقة وألا يخبروا النبي ﷺ بشيء، فوصلوا قرب الأعداء، وأمضوا بعض الوقت في مراقبتهم، ثم قاموا فجأة بتحويل سيرهم باتجاه مؤتة؛ فتبعهم الجنود العرب والبيزنطيون، ظناً منهم بأنهم كانوا ينسحبون. وعند بلوغ مؤتة، حيث كانت التضاريس أكثر ملاءمة، أمر زيد ﷺ الجنود بشن هجوم مفاجئ، للوهلة الأولى أوقعت تلك الإستراتيجية البلبلة بين صفوف

الأعداء لبعض الوقت، لكنها لم تكن كافية لترجيح كفة الميزان لمصلحة المسلمين الذين كانوا أقل عدداً بكثير من الأعداء، وقد قتل زيد عليه السلام، وتلاه جعفر عليه السلام ثم عبد الله عليه السلام وسادت الفوضى بين جنود المسلمين إلى أن تولى خالد بن الوليد عليه السلام القيادة حيث جمع الرجال لحمايتهم من هجوم جديد، كانوا قد فقدوا ثمانية رجال فقط، لكنهم اضطروا للتراجع وكانت هذه هزيمة واضحة. لكن خالد بن الوليد عليه السلام استطاع تجنب مجابهة كان من الممكن أن تنتهي بمذبحة (11).

عند هذه النقطة، تعرض الصحابة الذين كانوا قد بقوا في المدينة إلى تجربة في غاية الغرابة، كانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى منامات ورؤى كانت تتحقق في معظم الأحيان، كانوا يعرفون أنه ملهم وقد تبعوه فيما كان الوحي يتنزل عليه تبعاً، لذا فقد اعتادوا على رؤية الأبعاد الغريبة وفوق الواقعية من حياته بينهم، ففي أحد الأيام، جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليهم، ورغم أنه لم يأتهم مبعوث من الشمال ولم يتلقوا أي معلومات عن الحملة، فقد أخذ يصف لهم المعركة، وكأنه كان موجوداً بين المقاتلين، فأخبرهم والدموع في عينيه وهو يشعر بالألم الشديد عن موت زيد وجعفر وعبد الله - رضي الله عنهم، وأشاد بمأثرة خالد وسماه «سيف الإسلام»، لكنه لم يستطع إخفاء حزنه العميق عند ذكرى الموتى الذين كانوا أعزاء جداً عليه، فذهب إلى أسماء - رضي الله عنها - زوجة جعفر عليه السلام وأطفالها ليلفهم النبأ ويعزيهم، وبدأ يبكي قبل أن يتمكن من الكلام، وانفجرت أسماء - رضي الله عنها - بالبكاء عندما سمعت بموت زوجها، ثم ذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أم أيمن وأسامة

وأخبرهم بموت زيد عليه السلام والدموع تملأ عينيه: فقد كان يحبه مثل ابنه، وكانت أسرته عزيزة عليه بشكل خاص.

وبعد مغادرته لمسكنهم خرجت صغرى بنات زيد من بيتها واندفعت إلى ذراعي النبي عليه السلام الذي حاول تعزيتها والدموع تنهمر من عينيه وهو يجهش بالبكاء، وقد دهش أحد الصحابة، سعد بن عباد عليه السلام الذي تصادف مروره بهم، من هذا المشهد ولاسيما من دموع النبي عليه السلام وسأله عن ذلك. فأجاب النبي عليه السلام بأن ذلك كان «شوق الحبيب لمن يحبه»⁽¹²⁾. وكان النبي عليه السلام قد علم أصحابه أن يعبروا عن حبهم وحنانهم، وفي تلك اللحظة في مواجهة فراق الموت النهائي، أعطاهم درساً بشأن الضعف البشري وسمو الدموع التي تعبر عن الحب وألم المحبين.

عاد الصحابة من مؤتة بقيادة خالد عليه السلام وأكدوا رؤية النبي عليه السلام: فقد كانت الأحداث مثل ما رواها. فقد قتل الصحابة وهم يقاتلون. كانت هذه الرؤى وتلك المعرفة علامات أخرى تشهد بصدق نبوة محمد عليه السلام. كان متفرداً ويتصرف بمفرده ولم يكن ذكاؤه ومزايه تشبه ما لدى الآخرين، ومع ذلك فقد ظل متواضعاً وشديد التأثر وكان يبكي، مثلهم.

ظل الوضع صعباً في الشمال، ومن المؤكد أن القبائل العربية ظنوا أن بإمكانهم استخدام هزيمة مؤتة لمصلحتهم، وبلغ محمد عليه السلام أنباء عن قيام بعض القبائل بالاستعداد لشن هجوم واسع النطاق على المدينة. فقرر حشد ثلاثمائة رجل بقيادة عمرو بن العاص عليه السلام، الذين تربطه ببعض القبائل الشمالية صلة قرابة، وطلب منه النبي عليه السلام أن يدرس

الوضع ويعلمه عن حقيقة الأمور، كما أمره بأن يقيم تحالفات مع أكبر عدد ممكن من العشائر، ثم أرسل له مئتي رجل آخرين لأنه بدا أن المقاومة كانت أقوى مما كان متوقعاً، غير أنها لم تكن هكذا، واستطاعت قوى المسلمين الدخول إلى أرض بلاد الشام وتعزيز التحالفات السابقة وإقامة تحالفات جديدة، الأمر الذي أتاح تأمين الجبهة التي كانت غير مأمونة حتى ذلك الوقت.

خرق العهد

كما أوردنا سابقاً، لم يكن ميثاق الحديبية ينطبق على جماعة المدينة وقريش فحسب، بل أيضاً على جميع حلفائهما، كانت خزاعة من حلفاء محمد ﷺ وقد تعرضت إحدى عشائريهم، بنو كعب، إلى هجوم غادر في إحدى الليالي من قبل بني بكر، حلفاء قريش، الذين قتلوا أحد رجالهم. وأرسل بنو كعب على الفور مبعوثاً إلى النبي ﷺ ليعلمه بتلك الخيانة. كانت خرقاً للعهد وقرر النبي ﷺ ألا يدع الجريمة تذهب دون عقاب: كان يجب عليه مساعدة حلفائه من خزاعة.

أما قريش، فقد أدركوا خطورة الموقف وقرروا إرسال مبعوث يمثل أكثر رجالهم نفوذاً لإقناع المسلمين بعدم الرد على تلك الحادثة الفردية. على أن قريشاً كانت قد دأبت منذ توقيع المعاهدة على التعدي على شروط المعاهدة وقيودها، ولم يكونوا يترددون في حث العشائر الأخرى على مهاجمة الجماعة الإسلامية لإضعافها أو حتى ليقوموا بمهاجمتها، غير أن الأمور تجاوزت الحدود هذه المرة، وهذا ما دفع أبا سفيان نفسه إلى الذهاب إلى المدينة للتباحث مع النبي ﷺ. لكن النبي ﷺ كان مقتضياً

ومترفعاً، وحاول أبو سفيان أول الأمر حث ابنته أم حبيبة - رضي الله عنها زوجة الرسول ﷺ، لمساندته، ثم علياً رضي الله عنه، لكنه لم يجد سبيلاً للتفاوض. ولزم النبي ﷺ الصمت وكذلك فعل صحابته، ولم يعرف أبو سفيان كيف يفسر الوضع.

في الأسابيع التي تبعت ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يستعدوا للقيام بحملة، ولم يفصح لهم عن هدفها، ولم يعرف ما سيجري سوى قلة من الصحاب المقربين، وطلب منهم النبي ﷺ أن ينشروا عدة إشاعات متناقضة، فقد طلب منهم أن يقولوا بأن الجيش سوف يسير إلى بلاد الشام، أو نحو ثقيف أو ضد هوازن، وذلك بغية نشر الحيرة عبر الجزيرة برمتها.

على أنه بعد انتهاء النبي ﷺ من الدعاء في المسجد، جاءته رؤيا تخبره بأن امرأة سوف تفشي السرية حيث إنها تنقل رسالة إلى قريش تحذرهم من الهجوم الوشيك، وقد عمل على اعتراض سبيل المرأة وهي في طريقها إلى مكة وسلمت الرسالة إلى مبعوثي محمد ﷺ. وقرر محمد ﷺ أن يسامح الخائن الذي كتب الرسالة واسمه حاطب على الرغم من رغبة عمر رضي الله عنه بأن ينفذ فيه حكم بالإعدام، وظل حاطب، الذي كان تصرفه بدوافع عائلية، حراً طليقاً، وظل محمد ﷺ يركز على الاستعداد للحرب، وأرسل المبعوثين إلى كافة العشائر الحليفة ليستعدوا للانضمام إلى المسلمين في حملة لم يكونوا يعرفون مقصدها على وجه التحديد.

انطلقت الحملة في شهر رمضان، وفي بادئ الأمر ترك النبي ﷺ للمسلمين حرية الاختيار في أن يصوموا أو لا، أما هو فقد صام حتى وصلوا

إلى مر الزهران حيث عسكروا وهناك طلب من المسلمين التوقف عن الصيام؛ لأنهم سوف يحتاجون إلى كامل طاقتهم، وفي الطريق طلب من أحد المسلمين أن يحمي مجموعة من الجراء رآها على جانب الطريق كي لا يطأها جيش المسلمين، مبيناً بذلك احترامه لحياة كل كائن، ومع أنه من المحتمل أن يبدو إنقاذ بضعة كلاب مسألة تافهة للمسلمين في ذلك الوقت بالذات، إلا أنه كان حريصاً على حماية الجراء من طيش الجنود.

كان معسكر مر الزهران يقع على مفترق طرق، فمن المحتمل أن يكون مقصدهم إلى نجد في الشرق، أو الطائف أو مكة، وقد سمع العباس رضي الله عنه الذي كان قد غادر مكة ليستقر في المدينة، بتحركات المسلمين وانضم إليهم، وعندما أقيم المعسكر، طلب النبي صلى الله عليه وسلم من كل جندي أن يوقد ناراً وذلك للتأثير على معنويات العدو: فأوقد المسلمون عشرة آلاف من النيران ليوحوا بوجود جيش كبير؛ لأنه كان من المفروض أن تلبى كل نار احتياجات خمسة إلى عشرة من الجنود، وقررت قريش، فضلاً عن القبائل الأخرى التي كانت تخشى أن تتعرض لهجوم، إرسال مبعوثين ليستطلعوا نوايا النبي صلى الله عليه وسلم.

ومرة أخرى كان أبو سفيان هو الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش، ومعه مبعوثان آخران هما حكيم وبديل لإقناعه بعدم مهاجمة مكة، وقد تحدثوا مدة طويلة لكنهم فهموا في خاتمة المطاف أن تصميم النبي صلى الله عليه وسلم كان ثابتاً، كما أنهم شاهدوا الصحابة وسلوكهم وجو الصفاء الذي كان سائداً في المعسكر، فقرر حكيم وبديل دخول الإسلام وصرح أبو سفيان بأنه يقبل الجزء الأول من الشهادة: («أشهد أن لا إله إلا الله») لكن لديه

بعض الشكوك بشأن مركز النبي ﷺ؛ فقد كان بحاجة إلى بعض الوقت قبل النطق بالجزء الثاني من الشهادة «أنّ محمداً رسول الله»⁽¹³⁾. وقد أمضى الليلة في المعسكر، وبعد صلاة الفجر، بعد أن شاهد صلوات المسلمين وتفانيهم وسلوكهم إزاء النبي ﷺ، قرر، بناء على نصيحة العباس، أن ينطق بالشهادة كاملة، كان النبي ﷺ يعرف أن هذا التغير لا يزال هشاً وطلب من العباس رضي الله عنه أن يصحب أبا سفيان إلى حافة الوادي كي يرى الجيش الإسلامي وهو يمر به، وهذا أنتج الأثر المرغوب، حيث إنه ترك أثراً عميقاً في نفس أبي سفيان، وقبل ذلك كان العباس رضي الله عنه قد همس في أذن النبي ﷺ مذكراً إياه بأن أبا سفيان يحب أن يكون له ميزة تشرّفه وألا ينسى ذلك، ولم يغب عن بال محمد ﷺ العالم بنفسية الرجال، تلك النصيحة وأعلن بأن كل شخص في مكة يدخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن دخل حرم الكعبة فهو آمن ومن بقي في بيته فهو آمن، أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة قبل وصول الجيش إليها ونصح الجميع (رغم هزء زوجته به التي وصمته بالجنون والجبن، وهزء زعماء آخرين مثل عكرمة ابن أبي جهل والذي وجه إليه الإهانات) بالاستسلام وعدم مقاومة جيش محمد ﷺ غير العادي في ضخامته.

وهكذا فقد حول محمد ﷺ أبا سفيان إلى حليف، لا لأن أبا سفيان دخل في الإسلام فحسب، بل أيضاً لأن النبي ﷺ أخذ بالاعتبار طبعه وشخصيته، فأبو سفيان شهد بوحدانية الله في أول الأمر لكنه وجد من الصعب إيلاء مركز خاص لرجل قاتله واعتبره ندأً له، وكان محمد ﷺ قد فهم ذلك ولم يستعجله، بل أعطاه الوقت لي شاهد ويفهم بنفسه، وحتى

بعد اعتناق أبي سفيان الإسلام، كان النبي ﷺ يدرك أنه كان لا يزال لديه ميل للقوة والمجد وأخذ هذا في الاعتبار حين جعله يشاهد قوة جيش المسلمين وأولاه دوراً خاصاً في الحل المحتمل للصراع، ومع أن محمداً ﷺ كان يصر على المبادئ العامة، إلا أنه كان يستطيع أخذ بعض المزايا في الاعتبار، فقد كانت رسالته إصلاح المزايا من خلال المبادئ، لكنه لم يهمل أبداً الطباع والطموحات والجوانب الخاصة التي تكون شخصية كل فرد. فرسالته تصر على المساواة للجميع، فضلاً عن سيكولوجية الاختلافات وفردية كل شخص في مجال الإيمان.

العودة

يروى معظم الرواة أن محمداً ﷺ دخل مكة في العشرين أو الواحد والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة (630م)، كان محمد ﷺ قد قسم جيشه إلى فرق أحاطت بمكة وأطبقت عليها كلها في المركز. وتمركز بعض جماعات من قريش عند التلال بقيادة سهيل وعكرمة وصفوان، ولكن بعد المواجهات الأولى، أدرکوا ألا جدوى من المقاومة، فلجأ سهيل إلى داره ولاذ عكرمة وصفوان بالفرار، وقد أمر النبي ﷺ بعدم القتال في ذلك اليوم الذي سماه «يوم الرحمة» (14).

قبل حوالي ثماني سنوات، كان محمد ﷺ قد غادر مكة سراً، ولكن بكرامة مرفوع الرأس، وقد عاد الآن إلى مكة في ضوء النهار، منتصراً، لكنه هذه المرة أحنى رأسه وهو على مطيته شكرًا للواحد الأحد وهو يتلو الآيات من سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ (3).

لقد دخل مكة بكل تواضع وطلب إظهار منتهى الرقة للأعداء السابقين للمسلمين، فاغتسل وصلى ثماني ركعات قبل أن يستريح لبضع ساعات، بعدئذ ركب ناقته القصواء وذهب إلى الكعبة وطاف حولها سبع مرات، ثم أشار بقضيب كان بيده على الأصنام فوقعت الأصنام وهو يردد الآية ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (16). وأمر بإحضار مفاتيح الكعبة وطلب طمس ما فيها من صور وذلك لتكريس بيت الله لعبادة الواحد الأحد الذي لا يمكن تصويره بأي حال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (17).

كانت عملية التدمير التي قام بها النبي ﷺ، من حيث الظاهر، النقيض التام لكل ما درج على فعله منذ مغادرة المكان المقدس لعبادة الله الواحد الأحد، على أن هذه العملية كانت، على صعيد الرسالة الروحية، من ذات الجوهر التوحيدي، إذ إنه بتحطيم الأوثان التي كانت داخل الكعبة وبجوارها كان يحطم ما كان، عبر القرون، قد شوّه عبادة الواحد المتعال، بهذه العملية حول محمد ﷺ الكعبة إلى مسجد حقيقي، لا يعبد فيه بعدئذ سوى الواحد الأحد.

أخذ القرشيون يخرجون من بيوتهم تدريجياً ليتجمعوا داخل الحرم.

وبعد تحطيم الأوثان تلا النبي ﷺ عليهم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» (18). ثم التفت إلى قريش وحدثهم عن قواعد الإسلام وتلا هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (19).

بعدئذ سألهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» (20) فأجابوا «أخ كريم وابن أخ كريم» فمن المؤكد أنه سيعاملهم بالإحسان (21). هنا تلا النبي ﷺ الآية الواردة في سورة يوسف عندما اجتمع شمله مع إخوته، الذين كانوا يريدون قتله: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (22). ثم قال «اذهبوا فأنتم الطلقاء» (23). لقد صفح النبي ﷺ عن جميع النساء والرجال الذين أتوا إليه أو إلى أحد الصحابة. وقد صفح أيضاً عن وحشي بن حرب، الذي قتل حمزة ؓ، لكن النبي ﷺ طلب منه أن لا يريه وجهه في المستقبل، ودخل الكثيرون من قريش في الإسلام عند الصفا أمام عمر ؓ. فقبل بضع سنوات وصم القرشيون النبي ﷺ بالكذب في هذه البقعة نفسها، وعندما جاء عكرمة بن أبي جهل إلى النبي ﷺ حذر النبي ﷺ أصحابه قائلاً: «لقد جاءكم عكرمة بن أبي جهل، مؤمناً. فلا تسبوا أباه، لأن سب الأموات يؤذي الأحياء ولا يصل إلى الأموات». وهكذا فقد ذكَّروهم لا بالعفو فحسب، بل أيضاً بأن يتذكروا بأنه لا يجوز اعتبار أحد مسؤولاً عن أخطاء شخص آخر، حتى ولو كان أباه، وهو المعنى الذي تضمنته الآية القرآنية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (24). فالحكمة مطلوبة مثل نبل النفس.

أقام النبي ﷺ في مكة أسبوعين وأخذت الأمور تستقر، وقد أرسل بعثات إلى الذين أعلنوا قبولهم للإسلام الذي أبطل كل عبادة للأوثان. وقد تم تكليف خالد بن الوليد ﷺ بمثل هذه المهمة لدى بني جذيمة الذين استسلموا في خاتمة المطاف، لكن خالداً ﷺ قرر -مخالفاً لرأي عبد الرحمن بن عوف ﷺ- إعدام أفراد الأسرة الذين كان يكنّ لهم استياءً شديداً، فبعد إعدام بعضهم توقف بناء على إصرار عبد الرحمن الذي أوضح له بأن الباعث لسلوكه كانت دوافع غير الإيمان بالله والعدل، وقد غضب النبي ﷺ غضباً شديداً عند سماعه بما فعله خالد وقرر دفع دية جميع القتلى وظل يردد بصوت عال. «اللهم إني أتبرأ إليك مما فعله خالد بن الوليد» (25).

كان طريق تهذيب قلوب وضائير مسلمي المدينة ومكة لايزال طويلاً. فقد ظلت العادات المتأصلة والمشاعر المتجذرة تبرز إلى السطح وتتجلى على شكل سلوكيات مخالفة لتعاليم الإسلام، وعلاوة على ذلك، فقد اقتضى دخول المكيين الجماعي في الإسلام جهوداً إضافية في مجال التربية الإسلامية، وقد طلب النبي ﷺ من معاذ بن جبل ﷺ أن يعطي الأولوية لذلك: كان ينبغي تربية وتعليم الداخلين حديثاً في الإسلام مبادئ دينهم الجديد، من المفارقة أن الوحدة في الضراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت، كانت أسهل تحقيقاً من الوحدة في الإيمان والمحبة والاحترام التي كان لابد بعد الآن من إرساء قواعدها حيث إنه لم يعد يوجد أعداء رئيسون في المنطقة.

عاد النبي ﷺ إلى المكان الذي انطلقت منه رسالته، لقد تعرض للاضطهاد ثم النفي ثم الحرب وها هو يعود إلى الأهل سلمياً، تحيط به هالة الانتصار، لقد كانت هذه، أكثر من الطريق المادي للحياة، الرحلة الافتتاحية لقلب وضمير يمر عبر مراحل من الجهاد الأعظم الذي ينقل الناس من التوتر الطبيعي للانفعالات إلى سلام التربية الروحية، لقد عاد مختلفاً من حيث عمق جهوده وصبره، ولكن مع ذلك هو نفسه في إخلاصه للرسالة، عندما غادر مكة دعا الله الواحد الأحد وهو واثق من أنه لا بد أن يعود يوماً ما إلى الوطن ليصلي عند عتبة باب الله. وهكذا فقد غادر مكة إنساناً يقوم برحلة حياته وكله قناعة بأنه لا بد أن يعود يوماً ما إلى الأهل، إلى المركز، القريب من قلبه ويعود إلى مصدر الحياة، إلى نبض الحياة في كنف الله.



الفصل الرابع عشر

في الوطن، هناك

عاد النبي ﷺ إلى مكة منتصراً وقد أثار عفوه الذي أظهره حتى إلى ألد خصومه، ومع أن الكثيرين قد أهانوه وقاتلوه بل حتى قتلوا أفراداً من أسرته وأصحابه الحميمين، فقد قابلهم بالعفو ونسيان الماضي والحماية، وقد ذكر القرآن أولئك ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (1). كما سبق أن أعلن الوحي بأنه عندما ينتصر هؤلاء الناس فإنهم سيظلون ملتزمين بكرامتهم الإنسانية وسلوكهم، فوصفهم ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (2).

وكان الرسول ﷺ القدوة الحية لهذا النبل، فهو لم يكن يميل إلى الانتقام أو الثروة أو السلطة، فقد دخل مكة محنياً رأسه لله وذهب ليصلي في الكعبة ويسجد في المسجد الحرام، وحطم الأصنام في عملية تذكر بما فعله إبراهيم عليه السلام، ونطق بعدة أدعية يعبر فيها عن ثقته بالله الواحد الأحد وشكره له، ثم قام أخيراً بإرساء قواعد السلام في مدينة مكة.

حنين

كان محمد ﷺ يدرك بأنه لا يزال عليه مواجهة عدد من الأخطار التي تتهدد الجماعة الإسلامية، فلم تكن جميع القبائل قد اعترفت

بسلطة النبي ﷺ، وقد رأى بعضهم أنه آن الأوان للإطاحة به، وقد راجت إشاعات بأن قبائل هوازن وحلفاءهم قد حشدوا أكثر من عشرين ألف رجل في شرق مكة وأنهم يستعدون لمهاجمة المسلمين، وقد أرسل النبي ﷺ مستطلعين فعادوا مؤكدين تلك الإشاعات، فكان ينبغي على المسلمين تهيئة أنفسهم على وجه السرعة، فتم حشد جميع المسلمين الذين كانوا قد أتوا من المدينة وانضم إليهم ألفاً من قريش⁽³⁾. وهكذا انطلق محمد ﷺ ومعه جيش مؤلف من اثني عشر ألف من الرجال وهو أكبر عدد قاده في حياته. وقد أعرب بعض الصحابة، مثل أبي بكر رضي الله عنه، عن الثقة بالنفس نظراً لأعدادهم، الأمر الذي استاء منه النبي ﷺ⁽⁴⁾.

كان يقود جيش هوازن محارب شاب اسمه مالك بن عوف النضري، الذي كان قد كون لنفسه سمعة راسخة في الجزيرة العربية، وكان قد أمر جنوده باصطحاب نسائهم وأطفالهم ليؤثروا على العدو بعددهم ويثيروا حماس الجنود، فذهب إلى وادي حنين الذي لا بد للمسلمين الآتين من مكة أن يعبروه وقام في جنح الليل بتوزيع عدد كبير من جنوده ليتمركزوا في الوهاد على جنبي الوادي.

هؤلاء الرجال كانوا لا يرون من الوادي، ونشر بقية الجيش مقابل الممر الضيق بحيث كانوا يواجهون المسلمين القادمين من أسفل الوادي وبالتالي فقد تعمد وضعهم في أماكن حيث يمكن للمسلمين رؤيتهم فيها، كان المسلمون يتقدمون في ضوء الصباح الباكر، عندما أمر مالك فجأة رجاله المختبئين في الوهاد بمهاجمة جيش النبي ﷺ من جناحي الجيش، كانت المفاجأة تامة، ولم يتمكن خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي كان يتقدم الجيش،

من صد الهجوم: فقد أدى هذا الهجوم إلى هزيمة عامة وحاول المحاربون المسلمون حماية أنفسهم والتراجع بحالة من الفوضى التامة، وقد شاهد النبي ﷺ، الذي كان على مسافة في الخلف في فضاء أكثر انفتاحاً، ما كان يحدث؛ فقام على الفور بجمع صحابته الأقربين وأخذ ينادي المسلمين بمساعدة العباس ﷺ، الذي كان له صوت جهوري أعلى من صوت النبي ﷺ. كان الاثنان يصرخان: «يا أصحاب الشجرة» ليدذكروا المقاتلين بولائهم لما بايعوا النبي ﷺ عليه عندما جرى توقيع معاهدة الحديبية، وقد أدرك هؤلاء ما كان يجري واستجابوا لنداء النبي ﷺ مرددين: «لييك! لييك!» وتتابع أعداد الذين جاءوا للانضمام إليه وأعادوا تنظيم أنفسهم بغية شن هجوم معاكس.

وطلب النبي ﷺ بعض الحجارة: وكما فعل في معركة بدر، رماها نحو هوازن ودعا الله: «اللهم: أنجز لي وعذك». ثم أخذ المسلمون يتوجهون نحو العدو بحماسة ملتهبة أثارت الدهشة لدى جميع جنود مالك الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم المعاكس المفاجئ على هذا النطاق الواسع. وكان بين المسلمين امرأة اسمها أم سليم الرميصة، شاركت في القتال مع زوجها الذي أظهر تصميماً شاركه فيه الجميع⁽⁶⁾. لقد جاء الآن دور أعداء المسلمين في الاضطرار إلى الانسحاب ثم الفرار وملاحقة المسلمين لهم، ولجأ مالك أخيراً إلى الطائف لدى بني ثقيف، بينما توارى الآخرون في الجبال، لقد فقدوا الكثيرين من الرجال وتكبدا هزيمة مريرة بعد أن دارت عليهم الدوائر، وقد ذكر الوحي المؤمنين لاحقاً بالجانب الواقعي والعاطفي والروحي المختلف في ذلك القتال:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾ (٥٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾.

ومع أن عدد الذين قتلوا كان كبيراً إلا أن النصر كان حاسماً و كلياً وكانت الغنائم التي جمعها المسلمون ضخمة، فبالنسبة للاستسلام وضع النبي ﷺ النساء والأطفال في مكان واحد وأمر بحراستهم وإطعامهم بأفضل ما يكون، ثم أمر بحراسة المطايا والغنائم دون توزيعها على الفور، ولم يتمهل بل أمر رجاله بالسير إلى الطائف، التي التجأ إليها مالك، وبدأ أن الطائف أقل قدرة على المقاومة في المنطقة، غير أن بني ثقيف كانوا مجهزين جيداً بالعدة والطعام والأسلحة، فقام جيش المسلمين بمحاصرة القلعة، لكن سرعات ما اتضح بأنه لن يتمكن من إجبارهم على الخروج بهذه الوسيلة، فبعد أسبوعين قرر المسلمون الرحيل والعودة إلى الجعرانة، حيث تم احتجاز أسرى حنين والغنائم.

أسلاب الحرب

كان قد تم وضع النساء والأطفال الذين تم أسرهم في مكان مغلق فسيح، بمنأى عن الشمس وكان يقدم لهم الطعام الملائم إلى أن عاد محمد ﷺ، وعندما رجع ورأى أن معظم الأسرى يلبسون ثياباً رثة أمر بأن يؤخذ مال من الغنائم لشراء ثياب جديدة من السوق لكل أسير. ثم قرر

توزيع الأسلاب لكنه لم يتصرف بالأسرى الذين أصبحوا أسرى حرب، إذ إنه كان يعتقد بأن هوازن سترسل بالتأكيد وفداً يطلبهم.

بدأ بتوزيع الغنائم ولدهشة الأنصار فإنه أعطى القرشيين، لاسيما أبا سفيان وحكيم (ابن أخ خديجة - رضي الله عنها - الذي دخل للتو في الإسلام)، جزءاً مهماً من الغنائم، وفعل ذلك أيضاً مع صفوان وسهل اللذين قاتلا في حنين لكنهما ظلا مترددين في دخول الإسلام، وقد نزل الوحي يأمر النبي بإبقاء جزء من الغنائم لـ «المؤلفة قلوبهم». ولم يكن ذلك وسيلة لإغراء الناس باعتناق الإسلام بل كان الغرض منه أن يقوي، من خلال عطايا مادية، إيماناً عبر عن نفسه نوعاً ما لكنه ظل هشاً⁽⁸⁾. كان النبي ﷺ يعرف أن شعور صفوان وسهيل كان رقيقاً تجاه الإيمان وأنهما قاتلا بشجاعة مع المسلمين، لذا فقد أعطاهما كميات كبيرة من الغنائم ولم يطلب منهم الدخول في الإسلام. فموقف العفو الذي أظهره عند احتلال مكة، ثم ما بدر منه من شجاعة وثبات أثناء القتال، ثم ما أظهره من سخاء بعد المعركة - كل ذلك أقتعهما بأنه نبي حقاً، أما بالنسبة لأبي سفيان، فقد كان النبي ﷺ يعرف، كما رأينا، مدى أهمية المركز الاجتماعي والمكانة بالنسبة له، فثبت محمد ﷺ مركزه، أما حكيم، فإنه أعرب عن بعض التفاخر عندما أُعطي حصته من الغنائم: كانت حصة ضخمة، وبدا أنه فرح بالكسب المادي أكثر من أي شيء آخر، وقد أضاف محمد ﷺ إلى هذا العطاء درساً روحياً أساساً، مذكراً حكيماً بمقاومة التفاخر بامتلاك الثروة مضيئاً «اليد العليا خير من اليد السفلى»⁽⁹⁾.

فقد ذكره بذلك أن الذين ينفقون بسخاء ويهتمون بالفقراء ، ويعطون من أنفسهم ومن ممتلكاتهم ، لهم مركز روحي أرقى بكثير من الذين يأخذون ويُستعطون ، كما نصحه بأن يعطي بعض مقتنياته لأسرته وجميع الذين يعيّلهم ، كما أعطاه درساً آخر بأن يأخذ بطريقة أكثر كرامة ليعطي بمزيد من التواضع .

مضت سبعة أيام منذ استسلام العدو ولم يأت أحد من هوازن لطلب إعادة نسائهم وأطفالهم لهم ، فظن محمد ﷺ أنهم لن يأتوا فقرّر توزيع الأسرى بين مسلمي قريش (الذين حصلوا أيضاً على حصة أكبر) والأنصار ، ولم يكد ينتهي من التوزيع حتى وصل وفد هوازن ، فأوضح النبي ﷺ لهم أنه انتظر مجيئهم ولكن بما أنهم لم يأتوا فقد وزع الأسرى . وقال إنه سوف يشفع لهم ويطلب من المسلمين إرجاع أسراهم إذا أرادوا . وبعد بعض التردد ، تخلى جميع المقاتلين عن أسراهم إلى وفد هوازن . وقبل مغادرتهم ، سأل النبي ﷺ عن مالك ، رئيسهم ، فقيل له إنه لجأ إلى بني ثقيف ، فحملهم رسالة له : إذا جاءه مالك مسلماً ، فإنه سيعيد له أسرته وكافة ممتلكاته فضلاً عن مئة من الإبل⁽¹⁰⁾ . وقد حدث كل شيء وكأن النبي ﷺ قد اطلع على قلب مالك عندما واجهه في حنين ، إذ إنه حين سمع مالك بعرض النبي ﷺ لاذ بالفرار من قلعة الطائف ليلاً ، وجاء إلى محمد ﷺ ، وقام على الفور بالنطق بالشهادة . ولم يكن قد مضى عليه وقت طويل منذ دخوله في الإسلام عندما أظهر له النبي ﷺ ثقة لا تصدق وضعها فيه حيث عهد إليه بقيادة جميع أفراد هوازن الذين دخلوا في الإسلام وأمرهم بالذهاب إلى الطائف وإنهاء مقاومة بني ثقيف ،

فانطلق أفراد هوازن على الفور. لقد أصبح مالك، الذي كاد، قبل أقل من شهر، يتسبب في القضاء على جيش محمد ﷺ، الآن مسلماً يقود حملة إسلامية تهدف إلى الإطاحة بحلفائه السابقين، لقد كانت الثقة التي أولاها له النبي ﷺ لا تصدق، لكن الأيام والسنوات اللاحقة أكدت حدس النبي ﷺ: فلم يقم مالك بتنفيذ مهمته بنجاح فحسب، بل بقي مخلصاً ومتقانياً في التزامه بالإسلام.

كان الأنصار يشاهدون ما قام به النبي ﷺ وقد تملكتهم الدهشة، حيث إنه في نهاية الأمر كانت جميع كافة الغنائم تقريباً قد وُزعت على قريش. وأخذ بعضهم يفصح عن خيبة الأمل أو حتى الاستنكار، حيث بدا لهم أن محمدًا ﷺ يفضل قومه، رغم كل ما فعله أهل المدينة له عندما كان بحاجة إليهم، وعندما جاء إليه سعد بن عبادَةَ ﷺ مندوباً عن الأنصار وأعرب عن شكواهم، أصغى إليه النبي ﷺ ثم طلب منه أن يجمع جميع مسلمي المدينة ليتحدث إليهم⁽¹¹⁾. تحدث إليهم عن ديون كل منهم تجاه الآخر، فقال لهم إنهم مدينون له بالهداية وأنه مدين لهم بما قدموه له من حماية من الاضطهاد، وقال إنه لم ينس أياً من ذلك، وطلب منهم ألا ينزعجوا من الطريقة التي وزع بها الغنائم لأنها، على أي حال، وسيلة يتألف بها قلوب بعض الناس، ليس إلا، فمحبته لهم لا تقاس بالتأكيد بكمية الأسلاب التي حصلوا عليها، لقد أدى بهم حبهم للمكاسب الدنيوية إلى نسيان معنى الحب الحقيقي لله وفي الله، وهو الحب الذي يتجاوز مكاسب وحياة هذه الدنيا، فالتناس من قريش كانوا سيذهبون بالشاة والبعير بينما سيذهب الأنصار بالنبي ﷺ، الذي قرر أن يقيم في المدينة، المدينة التي اختار الإقامة فيها، وأضاف يقول:

«لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار» (12).
أثار كلامه مشاعر الأنصار حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبيكون، لأنهم أدركوا كم كانوا على خطأ في تفسير موقف النبي ﷺ وعلامات ولائه. لقد كان وجوده معهم علامةً على حبه لهم، في حين أن الغنائم التي وزعها كانت مجرد دليل على أنه كان يعرف أن بعض القلوب كانت لاتزال متعلقة بأوهام هذه الدنيا.

ثم قرر مغادرة الجعرانة لأداء العمرة قبل العودة إلى المدينة، كان قد جاء إلى تلك المدينة لاجئاً، لكنه يشعر الآن أنها على الرغم من أن ثقافتها وعاداتها كانت مختلفة جداً عن ثقافة وعادات مكة، حيث سبق له أن عاش فيها أكثر من نصف قرن قبل اضطراره لمغادرتها، لقد استقر به المقام في بيئته الجديدة من خلال مراعاة عادات السكان وتقاليدهم وتركيبتهم النفسية وآمالهم ثم دمج الكثير من هذه الأبعاد دمجاً متكاملأً في شخصيته، لقد أحب الأنصار حباً عميقاً روحياً تجاوز القبيلة والعشيرة أو الروابط الثقافية.

عندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة وأخذ يواصل تعاليمه أخذته الدهشة لرؤية الشاعر كعب بن زهير الذي كان في السابق يسخر موهبته الشعرية للهزاء به وتسفيه قوله بأنه رسول الله، وكان كعب منذ بعض الوقت يقيم مع أحد معارفه في المدينة ويراقب حياة المسلمين اليومية، وكان يعرف أن حياته قد تكون معرضة للخطر، إذ إنه إذا تعرف عليه بعض الصحابة فإنهم لن يترددوا في قتله، وقد سمع أن النبي ﷺ يعفون عن الذين يأتون إليه، بصرف النظر عما كان عليه ماضيهم أو سلوكهم، ففي أحد الأيام، وبعد صلاة الفجر، ذهب إلى النبي ﷺ وسأله إن كان من الممكن أن

يعفو عن كعب بن زهير إذا جاء إليه، فأجاب النبي ﷺ بالإيجاب، فذكر كعب اسمه عندئذ، فاندفع أحد الأنصار ليقته لكن النبي ﷺ أوقفه وقال له إن كعباً جاء تائباً ولم يعد مثل ما كان عليه سابقاً. ثم قام الشاعر وألقى على النبي ﷺ بعض أبيات تعبر عن احترامه وحبه للنبي ﷺ ويطلب فيها العفو، تأثر النبي ﷺ تأثراً عميقاً، وعندما انتهى كعب من إلقاء شعره، ألقى النبي ﷺ عليه عباة ليعبر لا عن أنه صفح عنه فحسب بل أيضاً عن ثنائه على شاعريته المتميزة، وقد كان لمحمد ﷺ ذوق جمالي متميز وكان يحب الفصاحة وموسيقى الكلام، كانت الأبيات الشعرية التي تعبر عن الجمال وتنقل عمق المشاعر والروحانية، وتؤكد على حقيقة الإله الواحد الأحد فضلاً عن محبة الكائنات، كل هذا كان جزءاً من عالمه الطبيعي وأعمق خلفية ثقافية له، كان ذلك الفن وتلك الروحانية في الكلام طيلة حياته وسيلة للتعبير عن أعماق الذات على أمل الارتقاء بشكل طبيعي إلى الله.

تبوك

عندما ولدت ماريّا - رضي الله عنها - إبراهيم، أعرب النبي ﷺ عن فرحة كبيرة لدى سماع أنباء ولادة الطفل، وقد أולם بهذه المناسبة ثم أودع الطفل لدى مرضعته في شمال المدينة، كما كانت عليه العادة في المدينة، وفي هذا الوقت كان النبي ﷺ يقوم بزيارات مطردة لابنه. وأصبحت الحياة في المدينة أكثر سلاماً بكثير، مع أنه كان لابد من تنظيم بضع حملات في المنطقة، لاسيما بغية العمل على عدم احتفاظ القبائل التي دخلت حديثاً في الإسلام بالأصنام، وعدم القيام بمحاولات للتوفيق

بين عبادة الأصنام والإسلام، وهو ما كان النبي ﷺ يحاربه دائماً، لاسيما، كما رأينا، حيث إن الوحي أمره بأن يقول لخصومه وللذين ينكرون حقيقة الإسلام: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦). كان لأنبياء انتصار البيزنطيين على الفرس بعد بضعة أشهر أثر مهم على المسلمين، إذ أن الوحي قد تنبأ بانتصارهم قبل بضع سنوات من الحدث، وقد جاء في سورة الروم ذكر الهزيمة (التي حدثت قبل مغادرة المسلمين لمكة) التي سيليها انتصار البيزنطيين في بضع سنين (14).

﴿عَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (15).

فالأحداث لم تثبت الوحي القرآني فحسب، بل إن أنبياء أفول قوة الفرس كانت تبشر باتفاقات محتملة مع النصارى في الشمال، ولم يكن المسلمون ليكتشفوا ذلك إلا بعد بضعة أسابيع، وفي الوقت الراهن، كانت الأنباء الواردة من الشمال تثير القلق الشديد، فكل شيء كان يوحي بأن جيوش هرقل البيزنطية قد تحالفت مع القبائل العربية وأنهم كانوا يستعدون معاً لشن هجوم واسع النطاق على محمد ﷺ، «إمبراطور العرب الجديد». كان لابد من رد فعل فوري من جانب المسلمين، وكانت الأمور والحملة على درجة كبيرة من الخطورة حيث إن النبي ﷺ أخبر جميع الصحابة، وللمرة الأولى، بمقصده، فقد كان عليهم التوجه إلى الشمال لشن حرب وقائية استباقاً لتقدم جيوش العدو وإذا دعت الضرورة لمفاجأتهم في

أرضهم. لم يكن فصل السنة ملائماً وكان على الجيش مواجهة حر شديد إلى أن يصل إلى الشمال، كانت التعبئة عامة وطلب النبي ﷺ من الصحابة الإسهام بكل ما يستطيعون لتغطية تكلفة الحملة، قدم عمر رضي الله عنه نصف ماله وفهم درساً في نكران الذات من أبي بكر رضي الله عنه الذي وضع كل ما يملكه تحت تصرف النبي ﷺ. وقدم عثمان رضي الله عنه مطايا لنصف الجيش، وتمت مصادرة كافة الجمال والخيول في المنطقة، لكن كل ذلك لم يكن يكفي لسد حاجات جميع الجنود فاضطر النبي ﷺ إلى رفض طلبات بعض الصحابة في الاشتراك في الحملة، فبكى بعضهم حيث إنهم كانوا يعرفون مدى أهمية الحملة. كان جيش العدو على درجة من القوة المتوقعة حيث إن مستقبل الجماعة كان في خطر، انطلق الجيش في نهاية السنة 630 (الشهر التاسع للهجرة) وبلغ عدده ثلاثين ألفاً من المقاتلين بقيادة النبي ﷺ. وقد طلب من علي رضي الله عنه البقاء في المدينة مع أسرته، فسخر المنافقون منه، فلم يستطع تحمل ذلك وسرعان ما لحق بالجيش في أول توقف له، غير أن النبي ﷺ أعاده وطلب منه أن يكون مثلاً كان هارون لأخيه موسى - عليهما السلام - الوصي على شعبه أثناء غيابه.

كان الحر شديداً، كما هو متوقع، وكان السير إلى الشمال صعباً. وقد فضل أربعة من صحابة النبي ﷺ المخلصين البقاء في المدينة، لما يعرفونه من صعوبة الرحلة، وشعر أحدهم - أبو خيثمة رضي الله عنه - بندم شديد وبعد نحو عشرة أيام قرر اللحاق بالحملة. فوصل عندما كان الجيش قد عسكر في تبوك، وقد سر النبي ﷺ كثيراً لوصوله حيث إنه شعر بالحزن لتخلف الصحابة الأربعة، وهو ما لا يمكن أن يفسر إلا بالجبن أو بالخيانة، وقد

صفح النبي ﷺ عن أبي خيثمة رضي الله عنه عندما اعترف بدمه وبالحاجة الملحة التي شعر بها للالتحاق بالجيش، لكن هذا لم يكن حال المؤمنين الثلاثة الآخرين، الذين كان من بينهم كعب بن مالك. فقد فضلوا البقاء في المدينة لإدارة أعمالهم فيها⁽¹⁶⁾.

بقي جيش المسلمين في تبوك عشرين يوماً، لكن اتضح تدريجياً أن إشاعات الهجمات من الشمال لم يكن لها أساس من الصحة، فلم يكن يوجد أي قبيلة تستعد للحرب، ولم يوجد أي علامة على وجود البيزنطيين في المنطقة، ومع أن الحملة كانت شاقة جداً إلا أنها لم تكن من دون فائدة، فالأعداد الكبيرة من جيش المسلمين كان لها وقع كبير في جميع أنحاء الجزيرة، وأجبرت القبائل الشمالية على إدراك مدى قدرة النبي ﷺ على حشد الجنود ومدى حركية قواته التي لا تصدق، وتمكن النبي ﷺ، وهو في تبوك، من إقامة تحالفات مع قبيلة نصرانيته وأخرى يهودية: حيث احتفظت كل قبيلة بدينها مع قبول دفع الجزية مقابل حماية الجماعة الإسلامية لهما من الهجوم، وهكذا فقد فهم أن الجزية هي ضريبة عسكرية جماعية تدفعها قبائل لم يكن يجب عليها مشاركة المسلمين في أعمالهم الحربية، ولكن مقابل ذلك كان يجب على سلطة المسلمين ضمان الدفاع عنهم وحمايتهم وبقائهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك⁽¹⁷⁾. من تبوك أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه ليتوغل في الشمال لمحاصرة قلعة نصرانية وإقامة تحالف مماثل بغية تأمين الطريق المؤدية إلى العراق وسوريا، وقد تكللت كافة هذه العمليات بالنجاح وعاد النبي ﷺ إلى المدينة مع جيش المسلمين.

عند وصوله أخبر بوفاة ابنته أم كلثوم - رضي الله عنها - فشعر بحزن عميق وكذلك فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي فقد زوجة للمرة الثانية (كان قد تزوج اثنتين من بنات النبي صلى الله عليه وسلم). أما بالنسبة للصحابة الثلاثة فقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم منهم الابتعاد عنه وأمر ألا يكلمهم أحد من الصحابة إلى أن يقضي الله أمره فيهم، ومر خمسون يوماً قبل نزول وحي بالعفو عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨).

عندما سمع كعب النبا سأل النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان وجهه يطفح بالفرح، إن كان العفو جاء من عنده أو من عند الله، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه نزل به الوحي، واستقبل النبا بالفرح جميع الصحابة الذين كان عليهم مقاطعة إخوانهم الثلاثة، كما أن الوحي انطوى على درس عميق، إذ إنه بين مدى الأنانية في تفضيل إدارة الشؤون الشخصية بدلاً من الالتزام، بالجسد والروح والمال، بالدفاع عن الجماعة الإسلامية الروحية، وقد انطوى هذا الدرس على بعد آخر وهو أن التزام الضعيف الرعدي - الذي يكاد يكون خيانة - يمكن أن ينال الصفح عندما تعود القلوب بصدق إلى الواحد الأحد.

الوفود

أطلق على السنة التاسعة للهجرة اسم «عام الوفود»؛ فقد أصبحت الجماعة الإسلامية الآن تتمتع بالقوة والسلطة بحيث إنه جاءت وفود من كافة أنحاء الجزيرة لإقامة تحالفات أو توقيع موثائق⁽²⁰⁾. كان أول وفد

قدم إلى النبي ﷺ هو وفد بني ثقيف، حيث إن مالكا كان قد ضرب عليها حصاراً شديداً حال دون إبرام أي تحالفات مع القبائل المجاورة (التي اعتنق معظمها الإسلام على أي حال أو وقعوا ميثاقاً مع محمد ﷺ)، وأعلن الوفد عن الرغبة في الدخول في الإسلام، لكنهم كانوا يريدون التفاوض بشأن بعض بنود بشأن دينهم وممارستهم: كانوا يريدون الاحتفاظ بصنم اللات والإعفاء من الصلاة، فرفض النبي ﷺ المساومة بشأن هاتين النقطتين، كما كان يفعل كلما سئل بهذا الشأن، إذ إن قبول الإسلام يعني عبادة الله الواحد الأحد وحده والصلاة له وفق المعايير التي جاء بها الوحي وأقرتها السنة، وفي نهاية المطاف قبلوا شروط الاتفاقية.

وجاءت أيضاً وفود أخرى من قبائل نصرانية ويهودية إلى النبي ﷺ ولم يجبرهم على الدخول في الإسلام، فكما فعل مع القبيلتين في الشمال، أبرم معهم حلف مساعدة: فهم يدفعون الجزية ويقوم محمد ﷺ وجيشه بحمايتهم والدفاع عنهم، وهكذا، فقد اتضحت الرسالة في أنحاء الجزيرة: فالقبائل التي تقبل الإسلام يجب أن تتخلى عن أي فكرة تتعلق بالتوفيق بين دينهم والإسلام؛ ذلك لأن النبي ﷺ لا يتفاوض بشأن أسس الدين. وما إن يتم النطق بالشهادة حتى يتعين تدمير الأصنام وتنفيذ أركان الإسلام من صلاة وصيام ودفع زكاة وحج، وعندما كانت القبائل تريد الاحتفاظ بتقاليدها، كانوا يبرمون اتفاقاً يتضمن بنوداً واضحة مماثلة: دفع الجزية مقابل الحماية، وكان النبي ﷺ يدع العشائر وزعماءها يختارون بحرية هذين البديلين، وهو ما فعله الكثيرون منهم في الأشهر التي أعقبت العودة من تبوك.

كان موعد الحج يقترب وطلب محمد ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه أن يحج بالناس إلى مكة⁽²¹⁾. فانطلقوا خلال الأسابيع اللاحقة. وفيما كانوا في الطريق نزل على النبي ﷺ وحي مهم بشأن مكة ولاسيما الشعائر قرب الكعبة، فأرسل علياً رضي الله عنه ليلحق بالحجيج وينقل إليهم رسالة الوحي التي وردت في الآيات الأولى من السورة رقم 9 (السورة الوحيدة في القرآن التي لا تبدأ بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)⁽²²⁾. أولاً، أعلنت الآيات بأوضح العبارة أن الطقوس التي كانت تمارس سابقاً حول الكعبة (حيث كان بعض الحجاج يطوفون وهم عراة) لم تعد مقبولة وأن عبدة الأصنام أمامهم أربعة أشهر للاختيار بشأن مستقبلهم - إما أن يتوقفوا عن ممارسة طقوسهم قرب الكعبة، أو يغادروا المنطقة كلياً، أو يدخلوا في الإسلام. بعد هذه المهلة سوف يقاتلهم المسلمون، عدا أولئك الذين أبرموا حلفاً (تُحترم بنوده بالطبع) أو طالبوا صراحةً بالحماية (التي تمنح لهم).

كانت الرسالة حاسمة وقررت أن الكعبة، المسجد الحرام، أصبحت مخصصة حصرياً لعبادة الواحد الأحد، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يمكنهم دخولها⁽²³⁾. جاء في الآيات ما يأتي: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾⁽²⁴⁾. وقد فهم معظم المسلمين، ومعظم العلماء بعدهم، أن هذا الحظر ينطبق فقط على الحدود المقدسة في مكة، لا على المساجد الأخرى التي يمكن أن يدخلها النساء والرجال من غير المسلمين⁽⁵⁾ إن ما نصت عليه الرسالة هو الإرساء الواضح لقواعد عبادة الواحد الأحد، أي التوحيد، بوصفه العبادة الممكنة الوحيدة في المركز، قرب بيت الله، الذي يتوجه إليه المسلمون من جميع أنحاء العالم.

إبراهيم

في السنة العاشرة مرض إبراهيم الصغير - الذي كان عمره سنة ونصف تقريباً - مرضاً شديداً، ففي ذات الوقت الذي كان يتم فيه إرساء قواعد دين الواحد الأحد في جميع أنحاء الجزيرة حيث كانت المحن تتناقص بشكل ثابت وعدد الذين يدخلون الإسلام في ازدياد متواصل، رأى النبي ﷺ ابنه الوحيد يغادر الحياة ويغادره، كان يزوره كل يوم ويقضي الساعات بجانبه. وعندما لفظ الطفل أنفاسه الأخيرة، أخذه النبي ﷺ بين ذراعيه وضمه إلى صدره والدموع تهمر من عينيه، تعبيراً عن حزنه العميق، وقد دُهِش عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو من صحابته المخلصين، لهذا البكاء لأنه كان يظن أن النبي ﷺ كان قد منع من هذا التعبير عن الحزن، لم يستطع النبي ﷺ أن يتكلم، في أول الأمر، ثم أوضح له بأن الحظر يتناول مظاهر الحزن المبالغ فيها، على شكل العويل أو السلوك الهستيري، ولكن ليس التعبير الطبيعي عن الحزن والألم، ثم عبر عن حزنه بكلمات أصبحت، في الواقع، درساً روحياً، حيث أعلن بأن دموعه كانت «علامات تدل على الحنان والرحمة». وأضاف ملاحظة انبعثت من خبرته، ولكنها تنطبق على الحياة اليومية لكل مسلم، «من لا يرحم لا يُرحم»⁽²⁶⁾. ففي لحظات الحياة الصعبة فإن الرقة والرفافة والرحمة والتعبير عن التعاطف التي يقدمونها لبعضهم تقربهم من الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، فمن خلالها يصبح الله قريباً من قلب المؤمن ويعطي المؤمن ما أعطاه لأخ أو أخت في الإنسانية، قد تأثر النبي ﷺ كثيراً ولم يتردد في إظهار حزنه والتعبير عنه، فأضاف: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب»⁽²⁷⁾. لقد امتحنه ربه ثانية في إنسانيته ورسالته، لقد فقد كثيراً من أحبابه - أصحابه وزوجته

خديجة - رضي الله عنها - وثلاثاً من بناته وثلاثة من أبنائه⁽²⁸⁾. لقد كانت حياته تخالطها الدموع لكنه ظل رقيقاً في قلبه وثابتاً في رسالته. كانت هذه الكيمياء من الرقة والثبات هي التي رضي عنها الأقرب إلينا من حل الوريد، ففي ذلك الوقت، في السنة العاشرة للهجرة، بدا العالم أنه ينفث على رسالة محمد، وبدا أن مصير محمد ﷺ الإنساني قد يختزل في ذلك القبر الصغير الذي ووري فيه جسد إبراهيم، الذي صلى عليه، لقد كان النبي ﷺ واحداً من المصطفين، وظل النبي ﷺ بشراً.

بعد بضع ساعات من عودته من المقبرة حدث كسوف للشمس، وقد سارع المسلمون إلى قرن الكسوف بموت طفل النبي ﷺ واعتبروا ذلك معجزة، نوعاً من الرسالة من الله إلى نبيه، لكن محمداً ﷺ وضع حداً لكافة تلك التفسيرات وقال مشدداً: «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد أو حياته»⁽²⁹⁾. وهكذا فقد ذكر محمد ﷺ أصحابه بحقيقة الأشياء وعدم ارتكاب أخطاء وتجنب الوقوع في الخرافات. لقد كان هذا، لهم وله، درساً روحياً في التعقل والتواضع: كان على البشر، ومن بينهم النبي ﷺ أن يتعلموا كيف يفارقون أحبتهم ويرونهم يرحلون، بصمت وبتعقل في جو من عدم المبالاة لنظام الأشياء. إن اختبار الإيمان والبشرية الذي جعل النبي ﷺ يذرف الدموع كان على وجه التحديد يتكون من التعلم، في قلب أبدية الخلق والأطوار اللامتناهية، كيفية إيجاد القوة في مواجهة محدودية ما هو إنساني والفراق المفاجئ والموت، إن أية وجود الواحد الأحد عند وفاة شخص ما لا تكمن في حدوث أي معجزة بل في دوام النظام الطبيعي، في أبدية خلقه الذي يتجلى هنا وهناك في مرور المخلوقات، الذين يأتون ويرحلون.

الصفح والصدق

في اللحظة التي كان فيها إنجاز رسالته قد وصل بوضوح إلى مرحلته الأخيرة ظل النبي ﷺ يظهر نبيل روحه التي أدهشت وجذبت أعداءه السابقين سواء أكانوا أفراداً أم عشائر كاملة، الذين أتوه الآن بأعداد غفيرة، ومع أنه ظل منفتحاً إلا أنه كان يعلم بأن عليه أن يلزم جانب الحذر من بعض الأفراد أو الجماعات، لقد تعلم الحذر والحيطة من خلال تجربته مع بني غنم بن عوف، ومن الوحي الذي جاء بعد ذلك، فقد كان بنو غنم قد طلبوا منه، قبل مغادرته إلى تبوك، أن يدشن لهم مسجداً كانوا يريدون إقامته في قباء⁽³⁰⁾. وكان قد انشغل بالإعداد لحملة تبوك وقرر أن يذهب إلى قباء بعد عودته من تبوك، وعرف لاحقاً أن المشروع كان عبارة عن حيلة دبرها أحد المنافقين المعروف باسم أبي أمير، وأكد الوحي له هواجسه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِلْزَامًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَأَنقَمَ فِيهِ أَبَدًا⁽³¹⁾. كان أبو أمير يريد بناء مسجد بغية جذب المؤمنين من مسجد آخر في المنطقة، لمجرد إشاعة الفرقة وممارسة نفوذه، فمن خلال التظاهر بالإيمان والإخلاص، حاول بعض الأفراد الحصول على الامتيازات والسلطة ولم يترددوا في محاولة استخدام النبي ﷺ من أجل تحقيق هذا الهدف، مثل هذه الأوضاع كانت تحدث بشكل أكثر تواتراً مع نمو الجماعة.

وبالرغم من ذلك، ظل محمد ﷺ قريباً جداً من الناس وعلى استعداد دائم لاستقبال النساء والرجال الذين كانوا يريدون تعلم الإسلام أو الذين

كانوا يبحثون عن الحقيقة، لقد صفح كثيراً عن أولئك الذين وقفوا ضده في مواقف الصراع أو الحرب، وكان الآن يظهر الكثير من الصبر والمحبة العميقة لأولئك الذين كانوا يجاهدون، في وقت السلم، ضد أنفسهم وقلوبهم لبلوغ ضالتهم الروحية وإيجاد الطريق الذي يمكن أن يقودهم إلى الواحد الأحد، فقد كان يشاهدهم ويحبب عن أسئلتهم ويرافق تقدمهم، سواء أكان سريعاً، متردداً أم في بعض الأحيان متمرداً أيضاً. لدى عودته من حنين، قال النبي ﷺ: «لقد رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وقد سأل أحد الصحابة: «ما الجهاد الأكبر، يا رسول الله؟». فأجاب: «مجاهدة النفس»⁽³²⁾. فبالنسبة للمسلمين، كما هي الحال لجميع البشر، الجهاد الداخل هو الأصعب والأكثر نبلاً والذي يفيض أكبر معرفة للنفس والصفح وبالطبع، الصدق مع النفس، لقد أظهرت الحياة اليومية وجهادها الأكبر للمسلمين الآن أنه من أصعب الأمور العيش في سبيل الله، في نور وشفافية وانسجام ومتطلبات روحية وصبر وسلام.

كان النبي ﷺ يطلب ممن حوله من غير المقتنعين بصدق رسالته، أن ينظروا في آيات الخلق وأن يبحثوا عن المغزى في الوقت الذي يجاهرون فيه أهوام الذات وغرورها، لقد علم المسلمون - الذين آمنوا بوجود الواحد الأحد - مواصلة جهادهم الداخلي والتواضع وإدراك مدى هشاشتهم، والسعي إلى أن يستمدوا الغذاء الروحي من ذكر الله، وكما ورد في القرآن، أن يدعو الله بأن يثبت قلوبهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾⁽³³⁾. كان الرسول ﷺ يصلي ويدعو الله قائلاً: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»⁽³⁴⁾. وهكذا، في وقت السلم كان بعض الناس يبحثون عن الحقيقة وبعضهم الآخر يبحثون عن الإخلاص، في الوقت الذي كانوا جميعاً يعانون

من شكل جديد من الجهاد الداخلي الذي يتطلب الجهد والصبر وضمير حي على الدوام، وفي الوقت الذي يبدو فيه أن إمكانية التثبيت النهائي للدين الأخير قريب المنال، طُلب من كل منهم أن يعود إلى عالمه الداخلي لينشد النور أو المغفرة، ليجد السلام ورحمة الذي يتوب دائماً على الذين يأتون إليه ويعودون إليه، وقد ذُكر الوحي النبوي ﷺ بأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٢٥).

تلك الآيات عبرت عن الحاجة إلى العودة إلى الواحد الأحد حتى عندما بدا أن الناس قد أدركوا أخيراً صدق الرسالة، وبما أن ذلك كان بداية الجهاد الدائم ضد المظاهر، فقد كان على النبي ﷺ، مرة أخرى، أن يتصدى إلى توترات متناقضة، وهي الطريقة الوحيدة لتجاوز الذات والسمو إلى الله، وفيما كانت الأفواج تأتيه من كل مكان، فقد طُلب منه العودة إلى عزلة القلب ومواصلة حوار مع الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، وفيما كان النصر يأتيه في هذه الدنيا، فقد فهم أن عليه الاستعداد للرحيل، لترك حياته، والعودة ليكون قريباً من الواحد الأحد، وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لاحقاً أن نزول تلك السورة كان إعلاناً عن نهاية رسالة النبي ﷺ، وفي الواقع، عن رحيله الوشيك.

حجة الوداع

في شهر رمضان من تلك السنة العاشرة تلقى النبي ﷺ علامة أخرى من الله، وأخبر ابنته فاطمة عنها: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب» (36). بقي

أحد أركان الإسلام الذي لم يقم به النبي ﷺ واقترب الوقت للاستعداد له، وانتشر الخبر على نطاق واسع بأن النبي ﷺ سيرأس الحج القادم إلى مكة، وفي الأسابيع اللاحقة انطلق على رأس ثلاثين ألفاً من حجاج المدينة، الذين انضم إليهم ثلاثة أضعاف عددهم من جميع أنحاء الجزيرة.

في مكة قام النبي ﷺ بمختلف شعائر الحج وأوضح للصحابة الذين كانوا برفقته أنهم كانوا يحيون عبادة التوحيد الخالص لأبيهم إبراهيم عليه السلام. كان الحج، كما كانت عليه حياة النبي ﷺ كلها، عودة إلى المنبع، إلى الأصل: عودة إلى الله، الواحد الأحد، على خطوات النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أول من بنى الكعبة، بيت الله، لعبادة الواحد الأحد، كان الصحابة يراقبون كل حركة يقوم بها النبي ﷺ، الذي كان يقوم، في واقع الأمر، بإرساء قواعد شعائر الحج على وجه الدقة، فقد قال لهم: «خذوا عني مناسككم»⁽³⁷⁾. وفي اليوم التاسع من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة، خاطب النبي 144 ألفاً من الحجاج على جبل الرحمة⁽³⁸⁾. تحدث في مقاطع قصيرة وكان رجال حوله يرددون كلماته كي يسمع كل من كان في الوادي كلامه⁽³⁹⁾.

كان محتوى الرسالة قوياً وعاطفياً، بدأ النبي ﷺ بالقول بأنه لا يدري إن كان سيلقاهم «في هذا المكان بعد عامهم هذا»⁽⁴⁰⁾. ثم ذكرهم بقدسية أرواحهم وشرفهم ومالهم، وأوضح بأن عهد الجاهلية قد ولى وممارساته وصراعاته ومنافساته التي تقوم على أساس القوة والكسب. ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون متحدين بالإيمان والأخوة والمحبة، التي تحولهم إلى شهداء لرسالة الإسلام. ويجب ألا يقبلوا في أي ظرف أن يكونوا «ظالمين أو مظلومين»⁽⁴¹⁾، ويجب أن يعلموا أن الناس متساوون أمام الله والتواضع

اللازم لأنه «كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»⁽⁴²⁾. وذكر النبي ﷺ كافة المسلمين بحسن معاملة زوجاتهم وأضاف: «اتقوا الله في النساء»⁽⁴³⁾. وأضاف، كأنما يدل على الطريق وأوضاعه لجميع المؤمنين الموجودين معه ولجميع الذين سيتبعون تعاليمه عبر العصور: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً: كتاب الله وسنة رسوله»⁽⁴⁴⁾. وبعد كل وصية كان يقول: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد!» وفي نهاية الخطبة، كان الحجاج يجيبون: «شهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة». وأنهى النبي ﷺ خطبته بالقول: «اللهم فاشهد... وليبلغ الحاضر منكم الغائب».

كان النبي ﷺ حقاً شاهداً أمام الجماعة الروحية المسلمة، وفي تواصل معهم في قلب الحج - الذي يقتضي هو ذاته البساطة ووحدة البشر أمام خالقهم - أعاد الرسول ﷺ إلى الأذهان النقطة الأساسية في رسالة الواحد الأحد: المساواة المطلقة للبشر أمام الله، بصرف النظر عن العرق والطبقة الاجتماعية أو الجنس، إذ إن الشيء الوحيد الذي يميزهم يكمن فيما يفعلون بأنفسهم، بذكائهم وصفاتهم والأهم من ذلك شيء، بقلوبهم. فمن أي مكان يأتون، سواء أكانوا عرباً أم لا، وبصرف النظر عن لونهم أكان أسود أو أبيض أو أي لون آخر، ومهما كان عليه مركزهم الاجتماعي، أكانوا أغنياء أم فقراء، أكانوا رجالاً أم نساءً، فإن البشر يتميزون بما يولوه لقلوبهم من اهتمام، وتربيتهم الروحية، السيطرة على الأنماط وازدهار الإيمان والكرامة والطيبة ونبيل الروح وعلى سبيل التماسك، الالتزام بين إخوانهم في البشرية لمبادئهم، فأمام آلاف الحجاج من كافة الأصول، الرقيق ورؤساء القبائل، النساء والرجال، شهد النبي ﷺ أنه أدى مهمته

في ضوء رسالة الواحد الأحد، وشهد جميع المؤمنين بصوت واحد أنهم
استلموا الرسالة وفهموا معناها ومحتوياتها.

بعد بضع ساعات، نزل وحي مفاجئ على النبي ﷺ تضمن الآية التي
تؤكد أن مهمته قاربت نهايتها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾⁽⁴⁵⁾. كانت آخر مرحلة من مراحل
النبوة قد قاربت على الانتهاء وعاد الرسول ﷺ إلى المكان الذي اختاره،
بيته الذي يتجاوز هذه الحياة، بالقرب من الواحد الأحد.



الفصل الخامس عشر

تسديد الديون

انتهت الاحتفالات التي جرت في الحج، وقد أتم النبي ﷺ كافة الشعائر وأراد العودة إلى المدينة، فانطلق الحجاج الذين قدموا معه، ووصلوا أخيراً إلى المدينة وعادت الحياة إلى مجراها، وقد عرف الكثير من المسلمين وتعلموا مبادئ الإسلام والقرآن، فضلاً عن عناصر الممارسات الدينية بقواعدها وشروطها، وقد حُصِّلَت الزكاة وفق المعايير التي حددها حديثاً الوحي وممارسة النبي ⁽¹⁾. وهكذا نُظِّمَت جميع شعائر أركان الإسلام الخمسة، بما في ذلك الحج، الذي تم القيام به للتو، وتلقت الجماعة الإسلامية المعلومات اللازمة لتعيش الإسلام في الحياة اليومية وتواجه مسائل جديدة تنشأ في المستقبل.

سأل النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي عينه قاضياً في بيئته الجديدة في اليمن: «بِمَ تحكم؟» فأجاب معاذ: «بكتاب الله» ثم سألته النبي ﷺ: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» فقال معاذ: «سوف أحكم بسنة رسول الله». وسأل محمد ﷺ ثانية: «فإن لم تجد في سنة رسول الله؟» فأجاب معاذ بثقة: «لن أدخر جهداً في أن أجتهد». رضي النبي ﷺ عن هذه الإجابة وقال: «الحمد لله الذي هدى رسول الله لما يرضي الله ورسوله» ⁽²⁾.

لقد تضمن هذا التدرج في إجابات معاذ بن جبل رضي الله عنه جوهر تعاليم النبي وقدم للجماعة الإسلامية سبل اتباعه والإخلاص له عبر العصور: كتاب الله - القرآن - وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم (التي يشار إليها في مجموعها بكلمة «السنة» - هما المرجعان الرئيسان، وعند مواجهة وضع جديد، فإن على المسؤولين عن تلك التعاليم ممارسة ذكائهم النقدي والمنطق وإبداعهم الشرعي لإيجاد إجابات جديدة تحافظ على المبادئ الإسلامية وتناسب الوضع الجديد، أما أسس العقيدة والعبادة فهي لا تخضع للتغير، لا هي ولا المبادئ الأساسية للأخلاق، لكن تنفيذ تلك المبادئ الأخلاقية والاستجابة للأوضاع الجديدة التي كانت المصادر القرآنية، والسنة غامضة أو صامتة بشأنها كانت تحتاج إلى إجابات متكيفة مع الظروف الخاصة، وقد فهم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقد أعطاهم المعرفة والثقة اللازمين للمضي قدماً والانتباه للعالم وتقلباته، وهم واثقون بأنه أصبح لديهم السبل الروحية والفكرية ليظلوا استناداً إليها مخلصين لرسالة خالقهم.

حملة وطبيعة

بعد بضعة أشهر من عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، في السنة الحادية عشرة، للهجرة، قرر النبي صلى الله عليه وسلم إرسال حملة إلى الشمال، قرب مؤتة وفلسطين، حيث قتل جعفر وعبد الله وزيد قبل بضع سنوات. وقد دهش الجميع عندما ولى القيادة لأسامة الشاب، ابن زيد - رضي الله عنهما - الذي لم يكن عمره يزيد عن العشرين، مع أن هذا الجيش البالغ عدد أفرادها ثلاثة آلاف جندي كان فيه عمر رضي الله عنه وغيره من كبار الصحابة⁽³⁾. هذا الاختيار أثار الكثير من النقد، لكن النبي صلى الله عليه وسلم تصدى له سريعاً ووضع

نهاية لجميع الحجج حين قال: «لئن قلت في إمارة أسامة لقد قلت في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق بالإمارة مثلاً كان أبوه خليقاً بها قبله» (4). في الماضي، اعترض بعض المسلمين على اختيار زيد لأنهم كانوا لا يزالون يعتبرونه عبداً، رغم أنه حرٌّ، والآن اعترض بعضهم على ابنه، ربما بسبب أبيه، ولكن على الأغلب بسبب صغر سنه، فمن خلال اختيار النبي ﷺ لأسامة فإنه قد أفهمهم بأنه لا المنبت الاجتماعي ولا عمر الإنسان يحولان دون ممارسته لسلطته وقوته إذا كانت تتوافر فيه المؤهلات الروحية والفكرية والأخلاقية، فلا بد من أن يتذرع المرء بالحصافة وحسن الإدراك عبر إتاحة المساواة الحقيقية للفرص لأكثر الأفراد فقراً في المجتمع والثقة بالشباب بحيث يتمكن الجميع من التعبير عن مهاراتهم ومواهبهم، وعلى صعيد أعم، فإن هذا كان درساً رائعاً في التواضع، موجهاً للصحابة الأكبر سناً، فقد كان عليهم خوض غمار الجهاد الأكبر المتمثل بإطاعة رجل كان من الممكن أن يكون بعمر أبنائهم، ويتذكرون بذلك أن عمرهم محدود، كما هو الحال بالنسبة لأي إنسان، فبهذا الاختيار لأسامة، علمهم النبي ﷺ أن الزمن يعمل على تآكل طاقة الإنسان وأنه يجب على المرء أن يتحلى بحكمة كافية تجعله يتعلم كيف يتحلى ويفوض بالسلطة لمن هم أصغر منه سناً ويتمتعون بقوة كافية تمكنهم من الإبداع والبناء..

وهكذا بعد أن أوصى النبي ﷺ أسامة، طلب منه أن ينطلق على الفور، غير أن مرض النبي ﷺ المفاجئ أدى إلى تأخير الرحيل وظل الجيش ينتظر قرب المدينة طيلة الأيام التي كان وضع النبي ﷺ فيها موضع ترقب، ولكن بعد بضعة أسابيع، وبناء على رغبة النبي ﷺ، فقد

طلب أبو بكر رضي الله عنه من أسامة الانطلاق في الحملة، وقد ذكره بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم بشأن أخلاق الحرب، حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان دائماً يؤكد على المبادئ التي يتعين على المسلمين مراعاتها في تعاملهم مع الأعداء، أمره أبو بكر ⁽⁵⁾ «لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له» ⁽⁶⁾. هذه التعاليم كانت مبادئ أساسية وتم إبلاغها إلى أسامة في ضوء ما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قاله في مختلف المناسبات بشأن الحرب واحترام الطبيعة أو كيفية معاملة الحيوانات، ففي بضع جمل أوجز أبو بكر رضي الله عنه جوهر تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد.

فقبل بضع سنوات، بعد نهاية معركة حُنين، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد مرّ بجماعة من الناس واقفين حول امرأة ملقاة على الأرض وسمع أن خالد ابن الوليد رضي الله عنه (الذي كان قد دخل حديثاً في الإسلام) قد قتلها، فغضب غضباً شديداً وطلب إبلاغ خالد بأن: «رسول الله يحرم قتل الأطفال والنساء والرقيق» ⁽⁷⁾. كما أنه أنحى عليه باللائمة حين قتل رجالاً كانوا قد استسلموا بعد إحدى المعارك، ففي كلتا الحالتين كانت الرسالة هي ذاتها: يجب قتال جنود الأعداء فقط، والإبقاء على جميع الذين لم يشتركوا مباشرة في الصراع المسلح أو لم يعودوا يستطيعون التسبب بأي أذى، لقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم بوضوح قبل إرسال حملة مؤتة: «لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الأطفال ولا أصحاب الصوامع» ⁽⁸⁾. فلم تكن الحرب مرغوبة أبداً،

ولكن عندما كان المسلمون ملزمين بخوضها دفاعاً عن أنفسهم أو لأن بقاءهم كان في خطر، فإنه كان عليهم الاقتصار بصراحة على ما كان لازماً من أجل مقاتلة قوات العدو المسلحين أو المصممين على القتال، فإذا جنحوا للسلم أو استسلموا، يجب وقف الحرب حسب أوامر القرآن: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (9).

لقد رأينا أن النبي ﷺ استثنى في ذلك حين قطع أشجار النخل خلال حصار بني النضير هذا الاستثناء، الذي ورد في القرآن، أثبت قاعدة احترام الطبيعة، لاسيما في وقت الحرب، إن الخلق مليء بالآيات التي تدل على كرم الخالق، لذا فهو مكان مقدس: فاحترامه هو بمنزلة الصدقة أو الدعاء، فحماية النخل والأشجار المثمرة والنباتات الأخرى في وقت الحرب هو نتيجة لتعاليم أعم صادرة عن النبي ﷺ لجميع المسلمين، في أحد الأيام مر النبي ﷺ بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، الذي كان يتوضأ، فقال له النبي ﷺ: «لم هذا الإسراف؟ يا سعد؟»، فسأله سعد: «هل يوجد إسراف حتى عند الوضوء؟»، فأجاب النبي ﷺ: «نعم، حتى عندما تستخدم ماء نهر جار» (10). فالماء عنصر أساس في جميع التعاليم المتعلقة بالممارسات الشعائرية، إذ إنه يمثل تطهير الجسد والقلب من الأشياء الخارجية المادية، والأشياء الروحية الداخلية (11). لكن النبي ﷺ علم سعداً وصحابته الآخرين ألا يعتبروا أبداً الماء، أو أي عنصراً آخر في الطبيعة، مجرد وسيلة لتزكيتهم الروحية، بل على العكس، فإن احترام الطبيعة والاعتدال في استخدامها هو في حد ذاته، يُعد عملاً وارتقاء روحياً، وهدفاً في سعيهم لمرضاة الخالق.

يدل إصرار النبي ﷺ على عدم الإسراف في أي مورد طبيعي، «حتى لو كنت على نهر جارٍ» يدل على أنه وضع احترام الطبيعة على مستوى مبدأ أساس يجب أن ينظم السلوك مهما كان عليه الوضع، وبصرف النظر عن العواقب، وهذا ليس علم تبيؤ (إيكولوجيا) منبعثاً من توقع حدوث كوارث (تنشأ عن أعمال البشر) بل هو نوع من «إيكولوجيا المصدر» التي تختبر علاقة الناس بالطبيعة على أساس صخرة أخلاقية مقترنة بفهم أعمق الدروس الروحية⁽¹²⁾. يجب أن تستند علاقة المؤمن بالطبيعة إلى التأمل والاحترام. قال النبي ﷺ مرة: «إذا قامت الساعة وفي يدي أحدكم فسيلة فليغرسها»⁽¹³⁾. وهكذا، فإن ضمير المؤمن يجب أن يستند حتى النهاية، إلى هذه العلاقة الحميمة مع الطبيعة، إلى الحد الذي يجب أن تكون عليه آخر أعماله مقترنة بتجديد الحياة ودوراتها.

وهذا الدرس نفسه كان يتجلى طيلة حياة النبي ﷺ فيما يتعلق بالحيوانات، لقد رأينا أنه عندما كان متوجهاً إلى مكة مع جيشه فإنه طلب نقل جراء ملقاة على الطريق لحمايتها، إن كون النبي ﷺ أصر على الرفق بالحيوانات حتى في حالة الحرب هو -مرة أخرى- نتيجة مباشرة لدروسه الأساسية في هذا الصدد، كان محمد ﷺ يحب القطط بشكل خاص، لكنه بشكل أعم كان دائماً يشعر الصحابة بضرورة احترام جميع أنواع الحيوانات، مرة أخبرهم بالقصة التالية: «كان رجل يسير في الطريق في حر شديد، فرأى بئراً ونزل فيه ليطفئ عطشه، وعندما صعد من البئر، رأى كلباً يلهث من العطش فقال لنفسه: «هذا الكلب عطشان مثلي». فعاد ونزل في البئر ثانية وملاً حذاءه بالماء وصعد من البئر وقد أمسكه بين أسنانه وأعطاه إلى الكلب ليشرب فكافأه الله على ذلك وغفر

له خطايا»، ثم سئل النبي: «يا رسول الله، أفنؤجر لرفقنا بالحيوانات؟» وأجاب النبي ﷺ: «في كل كبد رطب صدقة»⁽¹⁴⁾. وفي مناسبة أخرى، قال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض»⁽¹⁵⁾. من خلال هذه الأحاديث ومن خلال هذه القدوة أن الرفق بالحيوانات جزء من التعاليم الإسلامية الأساسية، وقد استفاد من كل مناسبة للتأكيد على ذلك البعد.

وهكذا فيما يتعلق بالتضحية بالحيوانات من أجل لحمها فإن النبي ﷺ لم يقتصر على أمر المسلمين بمراعاة هذه الشعيرة وقول: «بسم الله، والله أكبر»، والتي تمكن من التضحية بالحيوان بغية أكله، فقد كان يأمرهم بمعاملة الحيوان بأحسن طريقة وتقادي أي تسبب بألم لا ضرورة له للحيوان، في أحد الأيام طرح أحد الأشخاص حيوانه أرضاً وأخذ يسن سكينه أمام الحيوان، فانبرى إليه النبي ﷺ وقال: «أتريد أن تذبحه مرتين، لم لم تقم بسن سكينك قبل أن تطرحه أرضاً؟»⁽¹⁶⁾.

كان محمد ﷺ يطلب من الناس أن يتقنوا عملهم، فبالنسبة لمن يضحي بالحيوانات كان هذا يتجلى بوضوح في احترام حياتهم وكرامتهم ككائنات حية ولا يقتلوا إلا عند الضرورة وتجنّبهم أي ألم غير لازم⁽¹⁷⁾. إن التكبيرة التي تقتن بالتضحية يجب أن تفهم بأنها الجملة التي تؤكد في واقع الأمر أن الحيوان كان يعامل أثناء حياته وفق تعاليم الله ورسوله، وقد هدد النبي: «من قتل عصفوراً أو حيواناً أكبر دون احترام حقه في الوجود سيحاسبه الله عليه يوم القيامة»⁽¹⁸⁾. وهكذا فقد علم محمد ﷺ وجوب احترام حق الحيوان وعدم التسبب له بالألم، ووجوب إطعامه

ما يحتاج إليه، وأن يعامل معاملة حسنة وأن هذا ليس موضع مساومة لا بل هو جزء من واجبات البشر ويجب أن يفهم بأنه واحد من شروط ارتقائهم الروحي.

المرض

بعد بضعة أسابيع من شهر رمضان من السنة الحادية عشرة للهجرة، ذهب النبي ﷺ إلى أحد حيث جرت المعركة الثانية بين المسلمين وقريش وأدى صلاة الوداع على الرجال الذين قتلوا هناك، ثم عاد إلى مسجد المدينة وجلس على المنبر وخاطب المؤمنين⁽¹⁹⁾. قال أولاً: «إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيد». ثم نصحهم واختتم كلامه بالقول: «لست أخشى عليكم أن تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»⁽²⁰⁾. هذه الكلمات أوضحت بأنه كان يشعر بأن عليه أن يستعد لمغادرة هذه الحياة، وفي الوقت نفسه أعرب عن خوفه من مستقبل جماعته الروحية: قال بأن الإيمان لن يفارقهم، لكن العالم وأوهامه من شأنه أن يأسرهم ومن سوء الحظ أن الاثنين كلاهما سيوجدان عندهم، كان النبي ﷺ في واقع الأمر يعبر عن خوف بدا وأنه نبوءة: فسوف يظلون يؤدون الصلاة لكنهم سينقسمون في سعيهم إلى الأمجاد والثروة والسلطة، أو ولاءاتهم المختلفة، الأمر الذي سيجعلهم ينسون الأخوة التي كانت توحدهم.

في الليلة التي تلت ذلك اليوم، ذهب النبي ﷺ إلى البقيع، في المدينة، ليسلم على سكانه وكان يمزج دعواته بهذه الكلمات: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون». وفي طريق عودته شعر النبي ﷺ بألم شديد في رأسه لم يغادره طيلة أسبوعين تقريباً وجعله يلزم الفراش في الأيام الأخيرة من حياته⁽²¹⁾.

في أول الأمر ظل يصلي بالناس الصلوات الخمس، رغم ألم الرأس وحمى كانت تسبب له ألماً شديداً، ومع مرور الأيام ازداد المرض سوءاً واضطر النبي ﷺ إلى الرقود أوقاتاً أطول فأطول، كان في ذلك الوقت يقيم مع زوجته ميمونة - رضي الله عنها - (حيث كانت زوجاته يتناوبن في استقباله وظل يسأل عن الزوجة التي سيزورها في اليوم التالي، ثم اليوم الذي بعده. وقد فهمت ميمونة أنه كان يريد الذهاب إلى بيت عائشة - رضي الله عنها - فتحدثت إلى بقية الزوجات عن ذلك فقررن انتقال النبي ﷺ على الفور إلى حجرتها، وكان قد أصبح يشعر بضعف شديد بحيث اضطر العباس وعلي - رضي الله عنهما - لمساعدته للوصول إلى هناك.

كان قد مضى عليه بضعة أيام عند عائشة - رضي الله عنها - عندما ازدادت شدة الحمى، فجأة أصبح رأسه يؤلمه بشدة أكبر وفقد وعيه، وعندما عاد إلى وعيه، طلب أن يصب على وجهه سبع قرب من الماء، وبعد بضع ساعات شعر بتحسن قليل وقرر أن يذهب إلى المسجد وقد ربط حول رأسه رباطاً، فجلس على المنبر وخاطب الصحابة الحاضرين وتحدث إليهم عن القبور وأصر على أنه يجب عليهم ألا يحولوا قبره إلى مكان عبادة: «لا تتخذوا قبوري مسجداً»⁽²²⁾. لقد كان رسول الله ﷺ، لكنه ظل إنساناً؛ وكان يعرف مدى حب صحابته له فحذرهم من ارتكاب الأخطاء التي ارتكبها الذين كانوا قبلهم والذين نسبوا إلى أنبيائهم ومرشديهم صفات خارقة بلغت بهم حد العبادة⁽²³⁾. فالله وحده هو الجدير بالعبادة.

ولإتمام هذه التذكرة ببشريته، نهض النبي ﷺ وسأل إن كان مديناً لأصحابه بأي شيء، فوقف رجل وذكّر النبي ﷺ بأن له عليه دين بمبلغ

ثلاثة دراهم: فأمر النبي ﷺ بدفع المبلغ له على الفور، كان النبي ﷺ، استناداً إلى أوامر الوحي، لا يصلي على قبر أحد من المؤمنين إلا إذا تم الوفاء بكافة ديونه، وكان يعرف إنه حتى إذا ضحى الإنسان بحياته في سبيل الله، فإن الدين يظل عيناً عليه لا يغفره الله له. فيجب أن يموت دون أن يكون لأحد عليه أي دين وأن لا يحمل معه أي ذنب لم يغفر ولا جرح لم يتعافى ولا أمانة لم تؤدي ولا رسالة لم تسمع.

وجلس النبي ﷺ على المنبر ثانية وقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»⁽²⁴⁾. عند سماع أبي بكر رضي الله عنه لهذه الكلمات انفجر باكياً حيث كان أول من فهم، من عميق حبه للنبي ﷺ أن محمداً ﷺ كان يتكلم عن نفسه وعن رحيله الوشيك. فهو النبي ﷺ من روعه، وبينما كان يواصل خطابه للمصلين، خاطب مباشرة قلب أبي بكر رضي الله عنه معترفاً على رؤوس الأشهاد، بما هو مدين به من محبته أبي بكر رضي الله عنه العميقة والقوية: «إن أمن الناس علي في صحبته وماله هو أبو بكر. ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته»⁽²⁵⁾. كان تواصلهما علنياً، لكنه كان في الواقع فريداً وشخصياً وسرياً، فعبرت دموع أبي بكر رضي الله عنه عن حبه وسددت الدين. لقد أحب، وفي تلك اللحظة بالذات، فهم.

الرحيل

عاد النبي ﷺ وأوى إلى حجرة عائشة — رضي الله عنها — وقال للصحابة الذين زاروه لاحقاً بأنه يرغب في أن يتم تدوين آخر توصياته. فأعرب عمر رضي الله عنه عن تحفظاته بسبب حالة النبي ﷺ، بينما أيد آخرون

الفكرة ورفعوا أصواتهم عند النبي ﷺ الذي طلب منهم الانسحاب لأنه لم يكن يستطيع سماعهم وهم يتجادلون، وعلى أي حال لم يلبّ طلبه، مع أنه أعرب عن بضع توصيات أخرى شفويّاً بشأن الإيمان والممارسة وصيانة الكعبة، ثم أراد الذهاب إلى المسجد، لكن ألمه كان من الشدة عندما حاول النهوض حتى أنه أغمى عليه، وبعد صحوته حاول النهوض لكنه أغمى عليه ثانية، وبعد صحوته الثانية أعاد السؤال ذاته وقيل له إن المسلمين لا يزالون ينتظرونه، فقال لعائشة - رضي الله عنها - بأن يصلي الناس وأن يؤمهم أبو بكر ﷺ.

وطلب منها ذلك في الأيام اللاحقة أيضاً، ولكن كان كلما فعل ذلك، كانت عائشة - رضي الله عنها - تطلب بأن يعفي والدها من أن يؤم المصلين، لقد أكدت أنه رفيق الإحساس وأنه كان يبكي عند تلاوة القرآن، وفي كل مرة كانت عائشة - رضي الله عنها - تعترض فيها كانت تحصل على الجواب القاطع ذاته: ليؤم أبو بكر ﷺ الصلاة، كان وراء رقة إحساس أبي بكر ﷺ ودموعه سر، وظل النبي ﷺ جازماً في اختياره، وبعد يومين، بعد أن شعر بقليل من التحسن تمكن من الذهاب إلى المسجد فيما كان المسلمون يصلون صلاة الظهر خلف أبي بكر ﷺ. وقد أراد أبو بكر ﷺ أن يتراجع ويترك المكان للنبي ﷺ، لكن النبي ﷺ منعه من ذلك واكتفى بالجلوس إلى يساره، وأمّ النبي ﷺ بقية الصلاة فيما كان أبو بكر ﷺ يردد، بصوت مرتفع، العبارات التي تقترن بمختلف حركات الصلاة.

كانت هذه آخر مرة يظهر فيها النبي ﷺ في المسجد، وفي اليوم التالي عمل على أن يؤزّع كل ما يملكه حتى آخر درهم فضلاً عن درعه واستمر

في تقديم النصائح، وكرر مراراً وتكراراً بوجوب حسن معاملة الرقيق والفقراء ورقيق الحال، وفي صباح اليوم الثاني، وهو يوم اثنين، وعند صلاة الظهر، رفع النبي ﷺ ستارة في حجرة عائشة - رضي الله عنها - مما مكنه من مشاهدة المسلمين في المسجد، وشوهدت ابتسامه على وجهه، وقد دُهِش المسلمون من هذه البادرة وظنوا أن النبي ﷺ سينضم إليهم، لكن الستارة نزلت ولم يعد النبي ﷺ إلى الظهور. وفي الساعات التي أعقبت ذلك، جاءت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - لزيارته وتقوّهت بعبارة تتم عن شدة حزنها بشأن شدة ألم النبي ﷺ. هنا قال لها النبي ﷺ: «بعد هذا اليوم سوف ينتهي ألم أبيك». ثم همس في أذنها، كما رأينا سابقاً، بأنها سوف تلحق به عما قريب وهذا ما جعلها تضحك من خلال دموعها. وأخذ الألم يشتد بالنبي ﷺ أكثر فأكثر، ولم يعد النبي ﷺ قادراً على الكلام.

ثم جاءت عائشة - رضي الله عنها - إلى جوار النبي ﷺ وقربت منه ووضعته رأسه على صدرها وأخذت تمر بيدها عليه لتخفيف ألمه. ودخل عبد الرحمن رضي الله عنه، أخو عائشة - رضي الله عنها - إلى الغرفة وبيده سواك وهو مثل فرشاة الأسنان وقد كان يستخدمه المسلمون لتنظيف أسنانهم. فنظر إليه النبي ﷺ بطريقة فهمت منها عائشة - رضي الله عنها - أنه يريد، فقامت بتليينه بضمها وأعطته للنبي ﷺ، الذي قام بفرك أسنانه بقوة مدهشة نظراً لضعفه العام، وهكذا فإن الاهتمام بالنواحي الصحية قد صاحب رسول الله حتى آخر لحظات حياته، لأنه كان يعرف مدى أهمية المحافظة على لياقة الجسم والصحة، ففي حياة الإنسان، إن

لذلك الجسم حقوقاً على الكائن والضمير الذي من الله عليه به، فعلى الإنسان أن يلبي احتياجاته للرفق واللفظ والاهتمام الجنسي، كما يجب عليه المحافظة على لياقته وإحاطته بالشروط الصحية السليمة وحمايته بعناية من كل ما يمكن أن يؤثر على توازنه أو يسبب له المرض، إن الأوضاع والمتطلبات الصحية والاستجابة لاحتياجات الجسم هما بعدان وشرطان للرفق الروحي، وهكذا، ففي اللحظات الأخيرة من حياة النبي ﷺ، حصل على الرقة وفرك أسنانه بقوة؛ مع أن آثار هذا الاهتمام الأخير بالجسد لن يراها أحد على الأرض، فإن الله كان يعلم النية الكامنة وراء تلك الحركة. كان النبي ﷺ قد صرح مرة بأن أحد الأسئلة التي سيسأل عنها المؤمنون يوم القيامة هو عما فعلوه بأجسامهم⁽²⁷⁾. وخلافاً لجميع أوهام الممتلكات الشخصية، فإن الجسد هو من حيث الأساس أمانة مؤقتة في عنق كل كائن بشري، وهنا، أيضاً، لا بد للمرء من أن يفى بدينه قبل المغادرة.

أغلق النبي ﷺ عينيه، كانت عائشة - رضي الله عنها - تضمه إليها وسمعتة يهمس: «الفردوس، مع الرفيق الأعلى...» ثم تلا نهاية الآية: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾⁽²⁸⁾. ثم كر ثلاث مرات: «مع الرفيق الأعلى»⁽²⁹⁾، وفجأة سقطت ذراعه وثقل رأسه وفهمت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قد لفظ أنفاسه الأخيرة، لقد رحل إلى ربه ومؤدبه وخليله الذي استدعاه إليه ليجد أخيراً السلام الأسمى، الذي يتجاوز عالم البشر الذين أرسل إليهم لتبليغ خاتمة الرسالات من أرحم الراحمين، ومنذ ذلك اليوم، لم تتوقف جماعة المؤمنين الروحية، في جميع أنحاء العالم وعبر العصور، عن الصلاة والسلام على النبي وعن

التلاوة بكل قلوبهم ومحبتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (30).

الضراغ

انتشر نبأ وفاة النبي ﷺ في أنحاء المدينة وسبب حزناً لا مثيل له، فقد ظهر على الوجوه الفزع والدموع والنشيج وفي بعض الأحيان كان الصراخ يعبر عن شدة الألم، وقد كان النبي ﷺ قد قال بأنه لا بد من التعبير عن الحزن، ولكن دون مبالغة ودون هستيريا وبضبط نفس ووقار، وخيم صمت ثقيل تقطعه التتهديدات والنشيج قرب منزل النبي ﷺ. وفجأة قطع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الصمت وصاح بقوة، كما رأينا، بأن النبي ﷺ لم يمِث وأنه سيعود، مثلما عاد موسى عليه السلام، بعد أربعين يوماً، لقد بلغ حبه درجة كبيرة وكان شعوره بالفراغ شديد العمق حيث إنه لم يستطع أن يتصور ما سيكون عليه المستقبل في غياب الرجل الذي كان يرشدهم ويصاحبهم، والذي كان حبه واهتمامه موضع آيات قرآنية ذاتها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (31). لقد سيطرت عاطفة عمر رضي الله عنه على كيانه، هنا، وصل أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ وجلس بقرب فراشه ورفع الغطاء الذي وضع فوق جسم النبي ﷺ ووجهه، أخذت الدموع تتهمر من عينيه وتسيل على وجهه عندما أدرك أنه غادرهم، فخرج وحاول إسكات عمر رضي الله عنه الذي كان لا يزال في حالة صدمة عاطفية ويرفض أن يهدئ من روعه، فابتعد عنه أبو بكر رضي الله عنه وخاطب المتجمهرين وتفوه بتلك الكلمات الممتلئة

حكمة وقد أوردناها في المقدمة، والتي تضمنت خلاصة جوهر العقيدة الإسلامية: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»⁽³²⁾. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾⁽³³⁾. وعندما سمع عمر هذه الآية انهار وقد اعترف لاحقاً أنه كان كأنه سمع هذه الآية للمرة الأولى، بالرغم من أنها نزلت منذ وقت طويل، لقد أدرك -مثل بقية المسلمين- أن النبي ﷺ قد رحل ولن يعود وأنه غادرهم وأن الفراغ الذي ساد فجأة يجب أن يملأه منذ ذلك الوقت فصاعداً إيمانهم بالواحد الأحد، الذي «لا يموت». فعليهم أن يدعوه ليساعدهم على أن يجدوا في أنفسهم القوة والصبر والمثابرة التي يحتاجون إليها لمواصلة العيش من دون رسول الله ﷺ، ولكن دائماً في ضوء قدوته.

رغم قوة شخصية عمر رضي الله عنه، فإنه فقد السيطرة على نفسه مدة من الوقت، فقد سيطر عليه شعوره بسيطرة قوية كشفت عن هشاشة لم تكن حتى ذلك الوقت موضع شك، وجعلته يتصرف مثل الطفل الذي يرفض حكم الله والواقع والحياة، وعلى النقيض من ذلك، فقد تلقى أبو بكر رضي الله عنه، الذي كان عادة رقيق الشعور يبكي بغزارة وعمق عند قراءة القرآن، تلقى نبأ وفاة النبي ﷺ بحزن عميق ولكن بهدوء خارق وقوة داخلية لم يكن يتصورها أحد، في هذه اللحظة بالذات، انعكس دور الرجلين وتبين أنه قدم لنا، من خلال رحيله، درساً نهائياً، من الأعماق الروحانية المضيئة، وهو أن رقة الإحساس يمكن أن تتسج درجة من القوة لا تتزحزح، ومن

جهة أخرى، فقد تصبح، أقوى الشخصيات، إذا نسيت نفسها للحظة، واحدة شديدة التأثير وهشة، إن طريق الحكمة والقوة بالله يؤدي لا محالة إلى إدراكنا لنقاط ضعفنا، وهي لن تتركنا أبداً والذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد يوصينا بأن نتقبلها - بثقة، مثلما فعل أبو بكر رضي الله عنه، وبعمق، كما فعل عمر رضي الله عنه، ولكن دائماً بتواضع.



الفصل السادس عشر

في التاريخ، إلى الأبد

لقد أخبر الوحي الصحابة، مثلما يقول للمسلمين اليوم وإلى الأبد، عبر التاريخ وعبر مجتمعات وثقافات متنوعة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽¹⁾. فالرسول هو المعلم الذي يدرس المرء تعاليمه، المرشد الذي يتبعه المرء في الطريق، النموذج الذي يطمح المرء إلى الاقتداء به، وفوق كل شيء، المصطفى الذي يدعو المرء إلى التفكير في أقواله وصمته وأفعاله.

النموذج، الدليل

كان محمد ﷺ يسعى، طيلة ثلاث وعشرين سنة من رسالته، إلى الطريق المؤدي إلى الحرية الروحية والتحرر، كان ينزل عليه الوحي، خطوة فخطوة، خلال ظروف الحياة، وكأن العلي الأعلى كان يتحدث إليه في التاريخ، وإلى الأبد، وكان النبي ﷺ يصغي إليه ويكلمه ويتأمل في آياته الليل والنهار في الصحبة الدافئة لأصحابه أو في عزلة الصحراء العربية، كان يصلي في الوقت الذي كان عالم البشر ينام فيه، وكان يدعو الله في الوقت الذي كان إخوته وأخواته يشعرون باليأس، وقد ظل يتحلى بالصبر والثبات في وجه الشدائد والإهانات في الوقت الذي كان الكثيرون من البشر يتحاشونها، قد حررت قوته الروحية من سجن

الذات وظل يرى ويتذكر آيات من هو أقرب إليه من حبل الوريد، سواء أكان ذلك في طائر يطير أم في شجرة منتصبه أم في ظلام مخيم، أم في نجمة تلمع.

كان محمد ﷺ يستطيع التعبير عن الحب وينشره حوله، وكانت زوجاته يشعرن بالسرور لوجوده بينهن ولرقتة وحنانه وكان أصحابه يحبونه حباً شديداً وعميقاً وخارقاً وسخياً، كان يعطي ويقدم وجوده وابتساماته وكيانه وإذا حدث أن خاطبه أحد الرقيق أو أراد أن يذهب به إلى آخر المدينة فكان يذهب معه ويصفي ويحب. كان ملكاً لربه، ولم يكن ملكاً لأحد. لكنه كان يعطي محبته للجميع، وعندما كان يصافح أحداً، لم يكن أول من يسحب يده، وكان يعرف ما يدخل من ضياء وسلام على قلب إنسان بكلمة رقيقة ومناداته بأحب الأسماء إليه والعطف عليه، كان متحرراً من ذاته فلم يهمل ذات أي إنسان، كان وجوده ملاذاً، كان الرسول.

كان يحب ويصفح وفي كل يوم كان يتوسل إلى الله بأن يغفر له نقاط ضعفه وسهوه، وعندما كانت تأتيه امرأة أو رجل أثقلتها خطيئة، مهما كانت كبيرة، كان يتلقى تلك النفس البشرية ويربها الطريق إلى الغفران والعزاء ومناجاة الله وحماية أرحم الراحمين، كان يخفي أخطاء الناس عن الآخرين، ويعلم كل شخص الحاجة إلى الصلابة والنظام، وعندما كان الكسل يدفع بعض الناس لأن يطلبوا منه الرخص كان دائماً يجيب بالإيجاب ويدعوهم إلى استخدام عقولهم وقدرتهم على الفهم والتحسين وتحرير أنفسهم من تناقضاتهم وأن يتقبلوا في الوقت نفسه ضعفهم، كان يعلم الشعور بالمسؤولية دون الشعور بالذنب والالتزام بمكارم الأخلاق بوصف ذلك من شروط الحرية.

إن العدالة شرط للسلام، وكان النبي ﷺ يؤكد على أن الإنسان لا يمكن أن يشعر بطعم العدالة إذا لم يكن يستطيع احترام كرامة الآخرين. كأن يحرر الرقيق ويوصي المسلمين بأن يفعلوا ذلك على الدوام، لا بد لجماعة الإيمان والمؤمنين من أن يكونوا جماعة من الكائنات الحرة. وقد بين له الوحي الطريق لذلك، وكما رأينا في كثير من الأحيان، فإنه لم يتوقف أبداً عن إظهار الاهتمام الخاص بالرقيق والفقراء وكسير الجناح في المجتمع، وقد دعاهم إلى تأكيد كرامتهم والمطالبة بحقوقهم والتخلص من أي شعور بالنقص، لقد كانت الرسالة دعوة إلى التحرر الديني والاجتماعي والسياسي، وفي نهاية مهمته، وفي السهل الممتد على سفح جبل الرحمة، كان الرجال والنساء من جميع الأجناس والثقافات والألوان، من فقراء وأغنياء، موجودين واستمعوا إلى هذه الرسالة التي أكدت أن أفضل الناس هم أصحاب القلوب، التي لا تحددها الطبقة ولا اللون أو الثقافة. قال مرة: «أفضلكم هم أحسنكم للناس»⁽²⁾. قال مرة: فباسم الأخوة البشرية — لم يخاطب المسلمين فحسب بل جميع الناس، مثلما فعل في خطبة الوداع — لقد أهاب بكل الضمائر أن تتجاوز المظاهر التي قد تعيق تقدمها في سيرها نحو تحقيق العدل، فأمام الله، ما من شيء يبرر التمييز أو الظلم الاجتماعي أو التعصب العرقي، ففي المجتمع الإسلامي، كان رجل أسود يؤذن داعياً الناس إلى الصلاة، وقاد ابن أحد الأرقاء جيشاً، لقد حرر الإيمان المؤمن من إصدار أحكام تستند إلى المظاهر الخداعة (المتصلة بالأصل والمركز الاجتماعي) التي تثير الأهواء البعيدة عن الحكمة والتي تجردهم من إنسانيتهم.

كان قد أصغى في مجتمعه إلى النساء اللواتي كن كثيراً ما يعانين من الحرمان من حقوقهن ومن استبعادهن وسوء المعاملة، ويعيد الوحي إلى الأذهان هذا الإصغاء.

وإمكانية الوصول إلى النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (3). كما أنه استمع إلى امرأة كانت تطلب الطلاق من زوجها لأنها لم تعد تحبه، لقد استمع إليها ونظر في الموضوع وفرق بينهما (4). كما استقبل امرأة أخرى كانت تشتكي بأن أباه زوجها دون سؤالها عن رأيها، وكان على وشك التفريق بينهما، لكنها أبلغته أنها راضية في واقع الأمر عن اختيار أبيها لكنها كانت تريد أن تشيع بين «الآباء» بأن «هذا القرار لا يعود إليهم» وأنهم لا يستطيعون التصرف بهذه الطريقة دون طلب موافقة بناتهم (5). وقد أبلغ الرسول ﷺ النساء بما هو واجب عليهن من التزكية الروحية وتأکید أنوثتهن غير الحبيسة في امرأة تحديق الرجال أو التي تنفر جراء علاقات غير سليمة تتمثل بالقوة أو الإغواء، فوجودهن في المجتمع، وفي الأماكن العامة وفي الأعمال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بل حتى العسكرية، كان واقعاً موضوعياً لم ينكره عليهن أو يرفضه النبي ﷺ أبداً، بل إنه شجعه بشكل صريح، ففي ضوء التعاليم الروحية، كان يوجههن لتأكيد ذواتهن وأن يكون لهن حضور وأن يعبرن عن أنفسهن ويطالبن بحرية القلب والضمير الحقيقية، كان عليهن اختيار ذلك لأنفسهن، ويتوكلن على الرحمن الرحيم.

كان الرسول ﷺ يحب الأطفال، ببراءتهم ورقتهم وقدرتهم على الوجود، كان قريباً من الله، قريباً من قلبه هو، وظل يهتم بأولئك الذين كانوا بالدرجة الأولى يفهمون لغة القلب، كان يقبلهم ويحملهم على ظهره ويلاعبهم وينفذ إلى براءتهم التي هي في جوهرها تعبير عن صلاة دائمة إلى الله، فالأطفال، مثل الملائكة، ملك لله، إنهم آيات، كان موقف النبي ﷺ يذكر دائماً بذلك: وهكذا، فإذا كانت صلاته يخالطها بكاء طفل رضيع - حيث إن الرضيع إنما يدعو الله من خلال طلبه لأمه - فكان الرسول ﷺ يقصر صلاته في هذه الحالة وكأنها يستجيب إلى دعاء الطفل⁽⁶⁾. وعلاوة على ذلك، كان الرسول ﷺ يستمد من الأطفال روح اللعب والبراءة، فمنهم تعلم أن ينظر إلى الناس والعالم حوله نظرة المندesh، فمن خلال مراقبة الأطفال وهم يكتشفون الجمال فقد نما حسه الجمالي نمواً كبيراً؛ فأمام الجمال كان يبكي وينفعل وفي بعض الأحيان كان ينشج بالبكاء وكثيراً ما كان ينشرح صدره جراء الموسيقى الشعرية لعبارة أو للدعوة الروحية التي تتطوي عليها آية من آيات أكرم الأكرمين وصاحب الجمال غير المتناهي.

الحرية والحب

لقد حمل النبي ﷺ إلى البشرية رسالة الإيمان ومكارم الأخلاق والأمل، في هذه الرسالة يذكر الواحد الأحد كافة بوجوده وما يطلبه منهم وباليوم الآخر والحساب، ومع أن محمداً ﷺ جاء بهذه الرسالة، فقد ظل طيلة حياته يستمع للنساء والأطفال والرجال والرقيق والأغنياء والفقراء فضلاً عن المتبوزين، كان يصغي إليهم ويرحب بهم ويواسيهم. لقد اصطفاه الله على العالمين ومع ذلك فإنه لم يكن يخفي ضعفه ولا

شكوكه، بل إن الله جعله، في أول البعثة، يشك بنفسه حتى لا يشك بعهدا بالحاجة إليه، وأراه حقيقة قصوره حتى يسعى إلى رحمته التامة ويظل متسامحاً مع أبناء جنسه من البشر، لقد كان نموذجاً مثالياً لا من حيث صفاته فحسب، بل أيضاً من خلال شكوكه وجراحه وفي بعض الأحيان، كما رأينا، أحكامه الخاطئة، التي كان الوحي أو أصحابه يبينونها له.

على أنه، في مطلق الأحوال، كان كل شيء في حياته وسيلة للتجديد والتحول، من ألقه التفاصيل إلى أعظم الأحداث، ويمكن للمؤمنين المسلمين والذين يدينون بأي دين، وجميع الذين يدرسون حياة النبي ﷺ بصرف النظر عن اعتقادهم الديني الشخصي أن يستقوا دروساً من هذا، وبالتالي النزوع إلى جوهر الرسالة ونور الإيمان، كان النبي ﷺ يصلي ويتفكر ويطور نفسه ويطور العالم، وقد كان ربه هو الذي يرشده ويوجهه، فاستطاع مقاومة السلبات في نفسه وقدم أفضل ما في كيانه لأن هذا هو معنى الجهاد، وهذا هو معنى دعوة المؤمنين إلى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»⁽⁷⁾. كانت حياته تجسيدا لهذه التعاليم.

كانت رحلة حياة محمد ﷺ في كل مرحلة من مراحلها عبارة عن كيان مكرس لعبادة الله، فالقلب لا يمكن إلا أن يتواصل مع مثل هذا الكائن وهو يسير على طريق الحرية: حرية لا تقتصر على التفكير أو التصرف فحسب، ناضل محمد ﷺ من أجلها بكرامة وعزة، بل هي أيضاً حرية كائن حرر نفسه من ارتباطاته بعواطف سطحية وانفعالات مدمرة أو تبعية منفرة، كان الجميع يحبونه ويوقرونه ويحترمونه لأن روحانيته كثيرة المطالب قد مكنته من تجاوز أناه أن يعطي من نفسه، وبدوره، أن يحب

دون عبودية كان الحب الإلهي خالياً من التبعية البشرية، لقد أسلم لله، لكنه كان حراً: لقد أسلم، وكان حراً: لقد أسلم في سلام الله، وتحرر من أوهام البشر، أخبر مرة أحد أصحابه عن سر الحب الحقيقي: «ازهد بما عند الناس، يحببك الناس»⁽⁸⁾. وقد ألهمه الله اتباع الطريق إلى الحب الذي يواصل هذا الحب: «ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»⁽⁹⁾. إن حب الله يوفر نعمة القرب من الله وتجاوز الذات، إن حب الله هو حب من دون تبعية، حب يحرر ويرقي. ففي الشعور بهذا القرب يدرك المرء وجود الخالق والوجود الإلهي.

لقد سار محمد ﷺ على طريق انطوى على مراحل مختلفة: الدعوة إلى الإيمان والنفي والعودة، وأخيراً المغادرة إلى مكان الراحة الأول، إلى الملاذ الأخير، وعلى طول الطريق، ابتداءً من استهلال التلقين، كان الله مع الرسول ﷺ بحبه له وجعل البشر يصحبونه بحبهم أيضاً، كان النبي ﷺ يحمل رسالة عالمية، في كل من مشاعر الحب التي صاحبته طيلة حياته وفي عمليات تذكركه للناس بالحاجة إلى الالتزام بمكارم الأخلاق التي تتجاوز الانقسامات والانتماءات والهويات القاسية المتصلبة كانت هذه حرية حقيقية - حرية كائن يحب بالعدل ولا يسمح لنفسه بالوقوع في الانفعالات المنبعثة من عرقه أو أمته أو هويته، لقد جعله حبه الذي ينير شعوره الأخلاقي طيباً خلوقاً، وجعله إحساسه الأخلاقي الذي يوجه حبه إنساناً حراً، لقد رأى جميع الصحابة في آخر الأنبياء طيبته العميقة بين الناس وتحرره الاستثنائي منهم.

كان الله يحبه وكان قدوة للبشر، كان يصلي ويتفكر، كان يحب ويعطي.
 كان يخدم ويحول الناس، كان النبي ﷺ النور الذي يؤدي إلى النور الإلهي،
 وفي تعلم الصحابة من حياته، يعود المؤمنون إلى مصدر الحياة ويجدون
 النور الإلهي والدفء الإلهي والحب الإلهي، قد يكون الرسول ﷺ غادر
 عالم البشر، لكنه علمنا ألا ننسى الله، الملاذ الأسمى، الشاهد الأقرب من
 حبل الوريد، إن الشهادة بأن لا إله إلا الله هي، في الواقع، التوغل العميق
 والحقيقي في الحرية.

إن الاعتراف بمحمد ﷺ بوصفه رسول الله هو من حيث الأساس
 تعلم حبه في غيابه وحب الله في وجوده، الحب وتعلم حب الله والنبي
 والخلق والبشرية.



الحواشي

1. يُوصى المسلمون بالصلاة على النبي كلما ذكر اسمه، لذا، فإن عبارة ﷺ تأتي عادة بعد اسم النبي حيثما يرد هذا الاسم في كتب السيرة القديمة، وبما أن هذا الكتاب موجه إلى جمهور واسع، من المسلمين وغير المسلمين، فسوف نمتنع عن ذكر العبارة في النص، وندع القارئ شخصياً وقلبياً يصلي عليه عند القراءة. «هذه الملاحظة لم يؤخذ بها في النص العربي».

2. القرآن، 18 : 110 .

3. القرآن، 33 : 21.

4. حديث رواه البخاري.

5. القرآن، 3 : 31.

6. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 6 : 75-76.

7. القرآن، 3 : 144.

الفصل الأول: المواجهة مع المقدس

1. القرآن، 2 : 156.

2. القرآن، 22 : 78.

3. سفر التكوين، 15 : 5 (النص الرسمي المنقح).
4. سفر التكوين، 21 : 17-19.
5. سفر التكوين، 21 : 17-19.
6. القرآن، 14 : 37-39.
7. القرآن، 2 : 124-26.
8. في النصوص الإسلامية يطلب الله من إبراهيم عليه السلام أن يذبح إسماعيل؛ وفي الكتاب المقدس تقول النصوص: إن إبراهيم عليه السلام طلب منه أن يضحي بابنه الثاني، إسحاق.
9. القرآن، 37 : 101-109.
10. سفر التكوين، 22 : 1-2 و 6-8.
11. لاسيما، تحليله لتجربة إبراهيم في «خوفه وارتجافه» (ليستر، المؤسسة الإسلامية، 2000)، الجزء الثالث: «القيم والنهائيات».
12. القرآن، 2 : 186.

الفصل الثاني: المولد والتربية

1. تميز النصوص الإسلامية بين الأنبياء والرسل، فالأنبياء يحملون رسالة أو تعاليم لا يكون المقصود أن ينقلوها إلى البشرية، بل هم يذكرون الناس بوجود الله والتصرف بناء على ذلك، أما الرسل فإنهم يتلقون الرسالة الإلهية ويعيشونها ويبلغونها (في بعض

- الأحيان ضمن قبائلهم أو أهلهم، وأحياناً إلى البشرية جمعاء). فالرسول هو دائماً نبي، لكن ما كل الأنبياء رسلاً.
2. بمعنى «طاهر» «يتبع خطأ أميناً ومستقيماً».
3. ابن هشام (توفي نحو 828 م / 213 هـ) هو مؤلف أول سيرة عن حياة النبي محمد ﷺ، وصلت إلينا بعنوان «السيرة النبوية» وهي تعتبر الرواية الرسمية حول الموضوع، وقد اصطفى ابن هشام من الوقائع التي أوردها ابن إسحاق (توفي 767 م / 150 هـ) وأعاد صياغتها وتوسع فيها وعلق عليها في مؤلف سابق مفقود الآن. الاقتباسات من السيرة النبوية (بيروت: دار الجيل)، 1: 249).
4. كانت القبائل أكبر وحدات اجتماعية في بلاد العرب، وكانت تقسم إلى عشائر ثم إلى عشائر فرعية أو عائلات، إن كلمة «بنو/ بني تعني «عشيرة».
5. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 1: 293. معنى اسم محمد «المحمود على الدوام» أو «الجدير بالثناء».
6. المصدر ذاته.
7. كلمة «رب» كثيراً ما تترجم بكلمة (Lord)، لكن جذر الكلمة يتضمن مفهوم التربية أو المربي، وهو موجود صراحة في كلمة «تربية»، المشتقة من الجذر ذاته، ويعني تربية ترمي إلى بناء شخصية أخلاقية.
8. القرآن، 93: 6-11.

9. حديث نبوي رواه البخاري.
10. القرآن، 41: 39.
11. القرآن، 3: 190.
12. القرآن، 2: 164.
13. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 1: 301.
14. المرجع ذاته.
15. المرجع ذاته، 302.
16. حديث رواه مسلم، في المفاهيم الإسلامية الجن هم أرواح يمكن أن تتجسد أولاً ويمكن أن يكونوا خيرين أو أشراراً، وهم مثل البشر، أحرار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا.
17. «سدره المنتهى» مذكورة في القرآن الكريم وتشير إلى نقطة النهاية التي يتعذر تجاوزها عند الوجود في حضرة الله.
18. المصطفى هو أحد أسماء محمد ﷺ.
19. القرآن، 94: 1-4.
20. القرآن، 94: 5-6.
21. حديث رواه البخاري. انظر أيضاً: ابن هشام، «السيرة النبوية»، 303: 1.

الفصل الثالث: الشخصية والسعي الروحي

1. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 1: 319.
2. المرجع ذاته، 321.
3. كانت قريش قبيلة مكية قوية تنتمي إلى قصي، وهم من كبار وأنجح التجار الذين كانوا يسيطرون إلى حد بعيد على تجارة المنطقة.
4. حديث رواه ابن إسحاق وابن هشام، وأكدت صحته مختلف المصادر، بمن في ذلك الحامدي، وجزئياً الإمام أحمد.
5. حديث رواه البخاري ومسلم.
6. يروي ابن هشام حادثة جرت مع أحد الرهبان الذي رأى محمداً جالساً تحت شجرة وقال لميسرة بأن هذا الشاب «لابد أن يكون نبياً». انظر ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 6.
7. انظر: ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 6-8. انظر أيضاً: ابن سيد الناس، «عيون الآثار»، (المدينة: دار التراث، 1996، 80-81).
8. كان محمد ﷺ كثيراً ما يدعى بعدئذ بأبي القاسم وتشير بعض الأحاديث النبوية إلى النبي بهذا الاسم.
9. بقي يحمل هذا الاسم إلى أن أمر الوحي بأن يحتفظ جميع الأطفال الذين يتم تبنيهم بأسماء عائلاتهم عندما تكون معروفة (القرآن، 33: 4-5) بغية التمييز الواضح بين قرابة الدم ومركز الطفل المتبنى.
10. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 66-67.

الفصل الرابع: الوحي، المعرفة

1. القرآن، 96: 1-5.
2. حديث روته عائشة - رضي الله عنها - وصححه البخاري ومسلم.
3. المصدر ذاته.
4. في الحديث المستشهد به أعلاه، تروي عائشة أنهما كانا معاً، بينما يقول ابن هشام (السيرة النبوية، بيروت، دار الجيل 2: 73)، بأنها ذهبت وحدها أولاً، وأن ورقة بن نوفل قابل النبي ﷺ لاحقاً.
5. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 73-74.
6. المصدر ذاته، 2: 74.
7. حديث روته عائشة وصححه البخاري ومسلم.
8. القرآن، 2: 31.
9. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾، (القرآن، 2: 30).
10. القرآن، 68: 1-6. هذه السورة تصنف في الترتيب الثاني في التسلسل التاريخي للوحي.
11. حديث روته عائشة وصححه البخاري ومسلم.

12. القرآن، 74: 1-5.

13. رواه البخاري، 91: 1.

14. القرآن، 93: 1-5.

15. توفوا جميعاً في حياة محمد ﷺ. باستثناء فاطمة التي توفيت بعده بستة أشهر.

16. وأم جميع أولاده، باستثناء إبراهيم الذي ولدته له ماريّا القبطية، والذي مات وهو طفل.

17. في حديث رواه البخاري (1: 1)، يروي ابن عباس لحظة الوحي المؤلمة: «كان رسول الله ﷺ يحاول تخفيف وطأه الألم المقترن بالوحي بتحريك شفّتيه، من هنا الآية: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه.﴾ (القرآن، 57: 16-18).

الفصل الخامس: الرسالة والمحنة

1. القرآن، 26: 214.

2. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دارالجيل)، 2: 98-99.

3. بسبب هذا المركز، رد عليه القرآن في تنزيل لاحق، مستخدماً الصيغة نفسها بالإضافة إلى القوة الجمالية للسجع والجرس في الكلمات العربية «تبت يدا أبي لهب وتب»، القرآن، 111: 1.

4. القرآن، 15: 94.

5. القرآن، 17: 110.

6. أنزلت هذه السورة لاحقاً (في فترة المدينة)، لكنها جمعت جوهر علاقة المؤمنين بالواحد الأحد الرحمن صاحب الفضل اللامتناهي، وكان النبي يحب الاستماع إلى هذه السورة التي سماها مرة «عروس القرآن» في إشارة منه إلى جمالها.

7. القرآن، 55: 1-13.

8. إن عناصر العقيدة الإسلامية، حسب القرآن، تتضمن الإيمان بالله وملائكته وأنبيائه وكتبه ويوم القيامة.

9. القرآن، 16: 103.

10. القرآن، 73: 5.

11. القرآن، 59: 21.

12. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 22: 83.

13. القرآن، 73: 1-8.

14. القرآن، 2: 186.

15. القرآن، 3: 31.

16. القرآن، 33: 21.

17. القرآن، 93: 4.

18. القرآن، 95: 6.

19. القرآن، 3: 104. إن كلمة «المعروف» في المصطلحات الإسلامية تعني «ما هو صحيح» ولكن ليس بطريقة تقييدية: إنها مفهوم مركزي يشير إلى ما هو معروف لدى جميع العالم بأنه «صالح ومناسب».

20. القرآن، 3: 104.

21. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 101.

22. المصدر ذاته، 2: 132-33.

23. المصدر ذاته، 2: 159.

24. المصدر ذاته، 2: 128.

25. المصدر ذاته، 2: 62.

26. القرآن، 80: 1-12.

27. وقال: قال النبي ﷺ: أيضاً بهذا المعنى: «ليس الغنى بامتلاك الأشياء، الغنى هو غنى النفس» (حديث صحيح رواه البخاري ومسلم).

28. حديث رواه مسلم.

الفصل السادس: المقاومة، التواضع والمنفى

1. كلمة «يوم» بالعربية تعني «نهاراً» ولكنها تعني أيضاً «فترة من الوقت» أو «دورة» أو في بعض الأحيان مدة غير محددة.

2. القرآن، 41: 1-10. «حاء» و «ميم» هما حرفان عرييان، وكما لاحظنا سابقاً، فإن وجودهما في القرآن لم يُفسر، الترجمة المناسبة هي «ضريبة اجتماعية تزكي النفس» وتغطي الأبعاد الثلاثة لمفهوم الزكاة، إنها واجب أمام الله والإنسان: وهي تفرض لمصلحة الفقراء في المجتمع وراحة ضمير المؤمن لعلمه بأن ممتلكاته قد تزكت عبر الوفاء بحق الله والإنسان.

3. القرآن، 25: 52.

4. القرآن، 29: 64.

5. القرآن، 53: 29-31.

6. حديث رواه البخاري.

7. القرآن، 16: 106.

8. القرآن، 10: 78.

9. القرآن، 112.

10. القرآن، 109. نزلت هذه السورة عندما اقترح بعض زعماء قريش نوعاً من التوفيق بين دين أجدادهم الوثني ودين التوحيد الذي كان محمد ﷺ يدعو إليه، كان رد القرآن واضحاً ونهائياً، فقد أوضح الطابع الحتمي للتمييز وفتح في الوقت نفسه الطريق إلى الدعوة لاحترام متبادل.

11. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 2: 140.

12. القرآن، 18: 23 - 24.

13. القرآن، 17: 85.

14. القرآن، 18: 60 - 82.

15. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 164.

16. أثيوبيا اليوم.

17. القرآن، 19: 16-21.

18. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 180.

19. المصدر ذاته، 2: 181.

الفصل السابع: الابتلاءات والترقي والآمال

1. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 2: 189.

2. القرآن، 20: 1-8.

3. القرآن، 20: 14.

4. كان أبو الحكم، كما ورد آنفاً، هو اسم الرجل الذي لُقِّبَ المسلمون بأبي جهل بسبب قسوته اللامتناهية إزاء المسلمين.

5. منذ ذلك اليوم، لقب عمر «الفاروق» (الذي يفرق) إشارة إلى تصميمه على تمييز المجتمع الإسلامي (بعد أن آمن بصدق الرسالة)، عن جهل قريش المعاند، «الجاهلية».

6. القرآن، 2: 187.
7. القرآن، 28: 56.
8. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 268.
9. المصدر ذاته، 2: 269.
10. ثمة اختلاف بين المصادر القديمة التي تروي حياة النبي ﷺ بشأن التسلسل التاريخي للأحداث، ففي بعض الأحيان يروى أن ليلة الإسراء سبقت عام الحزن.
11. في أول الأمر كان عدد الصلوات خمسين صلاة، لكن العدد خفض إلى خمس بعد طلبات متعاقبة من النبي ﷺ استناداً إلى نصيحة موسى عليه السلام.
12. القرآن، 2: 285. العودة إلى الله تشير إلى فكرة الدار الآخرة ويوم القيامة، ينص حديث نبوي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه البخاري ومسلم على الركن السادس من أركان الإيمان الذين يشكل عقيدة المسلمين: الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره.
13. القرآن، 17: 1.
14. القرآن، 53: 4-18.
15. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 256.
16. تتضمن العبادة واجبات الدين التعبدية المفروضة على جميع المسلمين البالغين والسُّلَمَاء جسدياً وعقلياً. وتتضمن الشهادة (الإيمان) والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج إلى مكة.

17. المصدر ذاته، 2: 281.

18. المصدر ذاته، 2: 281-282.

19. القرآن، 39: 53-54.

20. تزوجت أم حبيبة النبي ﷺ لاحقاً.

الفصل الثامن: الهجرة

1. القرآن، 13: 11.

2. القرآن، 9: 40.

3. حديث رواه البخاري.

4. كان المسلمون لا يزالون يتوجهون إلى القدس في الصلاة.

5. حديث رواه البخاري ومسلم.

6. القرآن، 39: 10.

7. القرآن، 16: 41-42.

8. حديث رواه ابن ماجه. كانت كلمة الأنصار الاسم الذي أطلق

على مسلمي المدينة في حين أن المسلمين المولودين في مكة كانوا يدعون بالمهاجرين.

9. القرآن، 73: 10. يستخدم القرآن أشكلاً من كلمة «هاجر»:

«اهجرهم» أو «فاهجر».

10. القرآن، 74: 5.
11. القرآن، 29: 25-26.
12. حديث رواه أحمد.
13. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 3: 20.
14. كانت القبائل النصرانية تسكن في ضواحي المدينة، وهذا الاتفاق لم يكن ينطبق عليهم مباشرة.
15. في المصطلحات العصرية، نقول إنهم يتمتعون بكامل حقوق المواطنة.
16. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 3: 31. ظل المشركون في مكة يعربون عن عدائهم وعن رغبتهم في القتال، إذ إن إقامة محمد ﷺ في المدينة كانت بمثابة إذلال وهزيمة لهم.
17. بشكل خاص، بالطبع، في مختلف فروع العلم الأول (الفقه، القانون الإسلامي).
18. القرآن، 17: 37.
19. حديث رواه البخاري.
20. القرآن، 3: 402.
21. الآيات من 108 إلى 116 من سورة النساء رقم 4.

22. القرآن، 4: 112.

23. القرآن، 5: 8.

24. سورة البقرة، وهي أيضاً أطول سورة في القرآن.

25. ابن كثير، (مختصر) تفسير القرآن، (القاهرة: دار الصابوني)،

1: 27-37.

26. القرآن، 2: 8-9.

27. القرآن، 2: 14.

28. حديث رواه أحمد ومسلم. الحديث القدسي هو خلاف القرآن،

لأنه إلهام من الله، يتم التعبير عنه بكلام النبي.

29. هذا أحد أسماء الله.

الفصل التاسع: المدينة، الحياة والحرب

1. كثيراً ما كان المفسرون يميزون بين نوعين من الحملات:

«السريّة»، وهي التي لم يشترك النبي ﷺ فيها، و«الغزوة»، التي

كان موجوداً فيها.

2. القرآن، 22: 39-40.

3. القرآن، 22: 40.

4. القرآن، 2: 251.
5. القرآن، 2: 30.
6. القرآن، 2: 144.
7. أصبح عثمان بن عفان لاحقاً، بعد وفاة النبي ﷺ، الخليفة الثالث.
8. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 3: 161.
9. المصدر ذاته، 3: 162.
10. حديث رواه البخاري ومسلم.
11. حديث رواه مسلم لمحمد نصر الدين الألباني في «الجامع الصغير» وزيادة، الطبعة الثانية (بيروت، المكتب الإسلامي، 1988)، 2: 948.
12. حديث رواه البخاري.
13. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 3: 167.
14. المصدر ذاته، 3: 175.
15. حديث صحيح رواه المنذري، انظر: الألباني، «الجامع الصغير وزيادة»، 2: 955.
16. القرآن، 3: 123.
17. تقول بعض الروايات إنه كان المفيرة بن الحارث، وهو جندي عادي في جيش قريش وليس أبا سفيان.

18. القرآن، 111. أبولهب هو الشخص الوحيد الذي أدانته القرآن بالاسم.

19. القرآن، 8: 67-68.

20. القرآن، 8: 1.

21. القرآن، 8: 58.

22. القرآن، 8: 61.

23. القرآن، 8: 67.

24. القرآن، 8: 57.

الفصل العاشر: التعاليم والهزيمة

1. حديث رواه البخاري ومسلم.

2. حديث رواه البخاري.

3. حديث رواه مسلم.

4. حديث رواه البخاري.

5. حديث رواه البخاري ومسلم.

6. حديث رواه البخاري ومسلم.

7. حديث رواه البخاري.

8. في بعض الروايات أنه أحضر بعض التمرات، وقال راوية آخر اسمه عبد الرحمن إنه لم يكن يعرف نوع الطعام.

9. حديث رواه البخاري ومسلم.
10. حديث رواه البخاري ومسلم.
11. حديث رواه البخاري.
12. حديث رواه مسلم.
13. حديث رواه البخاري.
14. كان قد وضع لهم صفة قرب المسجد، بعض المفسرين الذين كانوا يبحثون عن أصل كلمة «صوفي» ربطوا الكلمة بـ «أهل الصفة»، الذين اختار بعضهم الفقر عن عمد وانسحبوا من الدنيا ورغباتها وممتلكاتها.
15. حديث حسن رواه أبو داود والترمذي.
16. حديث رواه أبو داود والنسائي.
17. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 2: 112.
18. كما بين ابن هشام، تعاليم الآيات الثمانين الأولى من سورة آل عمران هذا اللقاء وتناقش بصفة أعم المواقف من الله والرسائل والأوامر.
19. القرآن، 3: 1-4.
20. القرآن، 3: 64.
21. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 2: 114.

22. القرآن، 2: 256.
23. القرآن، 49: 13.
24. تعبير الكلمة العربية «تعارفوا»، المستخدمة في الآية، عن المعرفة المتبادلة التي تستند إلى علاقة أفقية متساوية.
25. القرآن، 5: 82.
26. حديث رواه البخاري ومسلم.
27. حديث رواه البخاري.
28. حديث رواه البخاري ومسلم.
29. حديث رواه البخاري ومسلم. (وفي رواية أخرى، خباها بعباءته لتستطيع مشاهدة الألعاب).
30. القرآن، 24: 31 و 33: 59.
31. حديث رواه مسلم.
32. حديث رواه مسلم.
33. القرآن، 24: 11-26.
34. حديث رواه البخاري ومسلم.
35. (هذا حديث ضعيف، ولم يعرف له إسناد عند كثير من الأئمة).

36. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 30.

37. في رواية أخرى أحضر وحشي لها كبد حمزة، وأنها ذهبت بعد ذلك لتبحث عن جثته في ساحة المعركة وقامت بالتمثيل بها.

38. القرآن، 16: 126.

39. كما سنرى في الفصل الأخير، فإنه أعطى أوامر مماثلة بشأن الحيوانات.

40. القرآن، 3: 159.

41. القرآن، 42: 38.

الفصل الحادي عشر: الخدع والخيانة

1. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 4: 138.

2. القرآن، 59: 5.

3. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 145.

4. القرآن، 16: 90.

5. حديث رواه مسلم.

6. القرآن، 57: 1.

7. القرآن، 17: 44.

8. القرآن، 67: 19.

9. القرآن، 55: 5-6.
10. القرآن، 17: 74.
11. حديث رواه البخاري ومسلم.
12. حديث رواه مسلم.
13. القرآن، 8: 63.
14. القرآن، 33: 32. كانت عادة تعدد الزوجات شائعة وغير مقيدة من حيث عدد الزوجات. وقد وضع القرآن حداً يتمثل بأربع زوجات، على أن يتم الالتزام بشروط صارمة عند الزواج من ثانية أو ثالثة أو رابعة.
15. القرآن، 33: 40.
16. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 170.
17. حديث رواه الترمذي وابن ماجه.
18. القرآن، 33: 10-11.
19. القرآن، 33: 12.
20. القرآن، 33: 13.
21. القرآن، 33: 21.
22. القرآن، 33: 22.
23. القرآن، 33: 103.

24. حديث رواه مسلم.
25. القرآن، 21: 14.
26. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 188.
27. المصدر ذاته، 4: 193.
28. لم يصلوا صلاة العصر حتى وقت العشاء.
29. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 198.
30. جاء في القانون اليهودي الذي يطبق في حالات الحرب والنصر: «وعندما يسلمها الرب إلى أيديكم فاضربوا كل ذكر فيها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتموها لأنفسكم» (التثنية، 20: 13-14).
31. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 205.

الفصل الثاني عشر: حلم، سلام

1. من ثماني إلى عشرين ركعة، حسب مختلف المذاهب الإسلامية والفقهية، تتم تأديتها بعد صلاة العشاء، ويتلى فيها كل ما تنزل به من القرآن.
2. يمكن أداء العمرة في أي وقت أثناء السنة، في حين أن الحج لا يجري إلا خلال فترة محددة كل سنة.
3. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 4: 284.

4. المصدر ذاته، 4: 285.

5. المصدر ذاته، 4: 287.

6. القرآن، 48: 1.

7. القرآن، 48: 18.

8. القرآن، 48: 27.

9. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 4: 291.

10. أبو جندل والذي ذكرناه آنفاً، كان واحداً منهم.

11. ولدت ماريًا ابناً للنبي ﷺ، إبراهيم، وتوفي وهو في سن الرضاعة وحزن عليه محمد ﷺ حزناً شديداً (انظر الفصل التالي).

الفصل الثالث عشر: العودة إلى الوطن

1. كان ابن الرقيق السابق زيد بن حارثة، الذي كان النبي ﷺ يعتبره ابنه بالتبني خلال مدة طويلة.

2. القرآن، 4: 94.

3. القرآن، 9: 84.

4. فيما يتعلق بعبد الله بن أبي بن سلول، تقول بعض الأحاديث إنه تغير وأن الآية الواردة آنفاً لا تنطبق عليه. وقد أورد البخاري حديثاً (23، 78) ينص على أنه كان للنبي ﷺ موقف معين منه بسبب

موقفه من عمه العباس، وهذا يعني ضمناً أنه تغير، وبدا أن تحوله صادق في آخر لحظات حياته. وبصرف النظر عن الوقائع في الحقيقة، إن ما يبقى هو عمق الدرس الذي حاولنا الإشارة إليه.

5. حديث رواه مسلم.

6. أصبحت ماريًا سرية النبي ﷺ، وهي عادة أقرتها التعاليم الإسلامية، في الوقت التي كانت تسير بغطى متدرجة، واضحة، نحو إلغاء الرق.

7. القرآن، 6: 1. انظر أيضاً: كامل السورة 66.

8. القرآن، 33: 28-29.

9. القرآن، 66: 10-11.

10. الحج هو الركن الخامس من الإسلام. على المسلمين الذهاب إلى مكة مرة على الأقل في حياتهم، خلال أيام محددة من شهر ذي الحجة.

11. قُتل اثنا عشر رجلاً، حسب بعض الروايات.

12. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 5: 31.

13. المصدر ذاته، 5: 59.

14. المصدر ذاته، 5: 66.

15. القرآن، 48: 1-4.

16. القرآن، 42: 11 و 17: 81.

17. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 73.

18. القرآن، 49: 13.

19. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 74.

20. المصدر ذاته.

21. القرآن، 12: 92.

22. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 74.

23. القرآن، 17: 15.

24. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 96.

الفصل الرابع عشر: في الوطن، هناك

1. القرآن، 22: 40.

2. القرآن، 22: 41.

3. كان معظم هؤلاء المكيين قد اعتنقوا الإسلام حديثاً، لكن آخرين، مثل سهيل وصفوان، قاتلوا مع المسلمين في حنين دون أن يكونوا قد دخلوا في الإسلام.

4. ابن هشام، «السيرة النبوية»، (بيروت، دار الجيل)، 5: 111.

ن 1-، 5: 128.

5. المصدر ذاته، 5: 113.

6. المصدر ذاته، 5: 114.
7. القرآن، 9: 25-26.
8. القرآن، 9: 60.
9. حديث رواه البخاري ومسلم.
10. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 166.
11. المصدر ذاته، 5: 176.
12. المصدر ذاته، 5: 177.
13. القرآن، 109: 6.
14. بين ثلاث وتسع سنوات، إذ إن الكلمة العربية «بضع» تعني أي رقم من ثلاثة إلى تسعة.
15. القرآن، 30: 2-5.
16. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 214.
17. هذا هو بالضبط ما كان سيفهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في خلافته، بعد بضع سنوات لاحقاً حين أعاد إلى القبائل النصرانية واليهودية كامل الجزية التي سبق أن دفعوها قائلاً لزعمائهم، قبل صراع وشيك، بأنه غير قادر على ضمان حمايتهم.
18. القرآن، 9: 118.

19. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 219.
20. المصدر ذاته، 5: 248. لقد كانت على الأغلب السنة التاسعة وبداية السنة العاشرة للهجرة (نهاية 630 - بداية 631 م).
21. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 229.
22. بسم الله الرحمن الرحيم. قد تم تقديم عدة تفاسير لأسباب عدم ورود هذه البسمة من قبل علماء المسلمين: يرى بعضهم أن السبب هو المحتويات ذاتها للسورة، التي تتعلق بالوثنيين والحرب، بينما يرى آخرون أنها مجرد إتمام للسورة 9.
23. يحدد بعض المحدثين موعد زيارة وفد نجران النصراني خلال عام الوفود المذكور، أي بعد معركة بدر بمدة طويلة. ويرى آخرون، مثل ابن هشام أن مقابلة ثابتة جرت في ذلك الوقت وأن نصارى نجران قد دخلوا في الإسلام لاحقاً.
24. القرآن، 9: 18.
25. غير أن بعض الباحثات، لاسيما من المذهب المالكي، يرون أن التحريم ينطبق على كافة المساجد.
26. حديث رواه البخاري ومسلم.
27. حديث رواه البخاري ومسلم.
28. كانت زينب أيضاً قد توفيت قبل بعض الوقت، وكان النبي ﷺ قد أصدر شخصياً تعليمات بشأن كيفية غسل جسدها.

29. حديث رواه البخاري ومسلم.
30. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 211.
31. القرآن، 9: 107-108.
32. حديث رواه البيهقي. وهو ضعيف على أحسن الأقوال وقيل إنه ليس بحديث.
33. القرآن، 3: 8.
34. حديث رواه أحمد والترمذي.
35. القرآن، 110: 3-1.
36. حديث رواه البخاري.
37. حديث رواه مسلم.
38. بلغ عدد الحجاج بين 124000 و 144000. حسب مختلف الروايات.
39. في مارس أو إبريل من عام 632 م .
40. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 6: 9.
41. المصدر ذاته.
42. المصدر ذاته.
43. المصدر ذاته، 6: 10.
44. المصدر ذاته.
45. القرآن، 5: 3.

الفصل الخامس عشر: تسديد الديون

1. في السنة التاسعة للهجرة، حسب أغلب المحدثين والهجاة في الشريعة الإسلامية والفقهاء.
2. حديث رواه الترمذي وأبو داود.
3. يذكر بعض المحدثين، من بين أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا سيشتركون في الحملة، أسماء أبو بكر وعلي وعثمان. غير أنهم غير مجمعين على الذين ذهبوا في الواقع.
4. ابن هشام، «السيرة النبوية»، بيروت، دار الجيل، 6: 12، ن.3.
5. حرفياً: «لا تلطخوا أيديكم بدم النساء والأطفال والشيوخ».
6. ابن جرير الطبري، «تاريخ الرسل والملوك»، القاهرة، المطبعة الحسينية، 1905، 3: 213 – 214.
7. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 5: 127.
8. حديث رواه ابن حنبل.
9. القرآن، 8: 61.
10. حديث رواه أحمد وابن ماجه.
11. قال النبي ﷺ في هذا الصدد: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء. فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة

كانت بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه حتى خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه حتى يخرج نقياً من الذنوب» (حديث رواه أبو داود).

12. إن انشغالات نوعي الإيكولوجيا لا بد أن يلتقيا في خاتمة المطاف رغم أن مصادرهما تختلف.

13. حديث رواه أحمد.

14. حديث رواه البخاري ومسلم.

15. حديث رواه البخاري ومسلم.

16. حديث رواه البخاري.

17. «إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» (حديث رواه البخاري ومسلم)

18. حديث رواه النسائي.

19. هو كرسي عال يقوم الإمام بمخاطبة المؤمنين منه في المسجد.

20. حديث رواه البخاري.

21. جميع الوقائع المروية هنا وردت في جميع مراجع المحدثين، إلا أنه يوجد في بعض الأحيان اختلافات في تسلسلها التاريخي أو الزمني التي جرت فيه في الواقع: الخطاب في المسجد، الانتقال إلى حجرة عائشة، الصلوات في المسجد... إلخ.

22. حديث رواه مالك.

23. هذا الأمر بعدم الوقوع في عبادة البشر يفسر عدم تمثيل الأنبياء في التقاليد الإسلامية. فالصورة مثل التماثيل المنحوتة، هي في جوهرها قابلة لأن تركز الخيال البشري على شيء أو كائن يمكن أن يسبغ عليه صفات مثالية أو أن يعبد بسبب تمثيله أو من خلال هذا التمثيل. يجب اتباع تعاليم الأنبياء لا أشخاصهم، فهم طرق لهداية البشر وجعلهم يقتربون من الله. فالْمُؤْمِن يقبل على الله ومحبه، لكن الخالق ووجوده يتجاوزان كل ما يستطيع البشر تمثيله أو تصوره، فالإيمان هو شيء وقر في القلب، لا في الخيال وصوره.

24. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 6: 64.

25. المصدر ذاته، (حديث رواه أيضاً البخاري).

26. حديث رواه البخاري.

27. حديث رواه الترمذي.

28. القرآن، 4: 69.

29. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 6: 73، رقم (10).

30. القرآن، 23: 56.

31. القرآن، 9: 128.

32. ابن هشام، «السيرة النبوية»، 6: 75-76.

33. القرآن، 3: 144.

الفصل السادس عشر: في التاريخ وإلى الأبد

1. القرآن، 21/33.

2. حديث رواه البيهقي.

3. القرآن، 58: 1.

4. جاءته عدة نساء يطالبن بالطلاق، على سبيل المثال جميلة بنت أبي بن سلول، وحبيبة بنت سهل الأنصارية، وبريرة، وزوجة ثابت بن قيس. في تلك الحالة الأخيرة يروي ابن عباس أن زوجة ثابت جاءت إلى النبي ﷺ وقالت له: إنه ليس لديها أي اعتراض على زوجها فيما يتعلق بالدين، لكنها لا تريد أن ترتكب ذنباً بالخيانة إزاء الإسلام (عبر عدم تلبية حقوقه كزوج بأن تخونه من خلال أفكارها أو سلوكها). وقد سألها النبي ﷺ إن كانت على استعداد لأن تعيد إليه الحديقة التي قدمها مهرأً لها فقبلت ذلك. ثم طلب النبي ﷺ من ثابت أن يقبل التفريق. (حديث رواه البخاري).

5. ورد هذا في حديث رواه أحمد. وفي حديث آخر.

رواه البخاري والنسائي وابن ماجه، قيل إن النبي ﷺ اكتفى بمجرد إلغاء عقد زواج تم إبرامه دون موافقة المرأة.

6. قال النبي ﷺ: «في بعض الأحيان أستعد للصلاة وأنوي أن أطيلها ولكن عندما أسمع صوت طفل يبكي فأني أقصرها خوفاً من إزعاج أمه». (حديث رواه أبو داود).

7. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (انظر على سبيل المثال القرآن،
41: 22).

8. حديث رواه ابن ماجه.

9. حديث رواه البخاري.



تقريظ طارق رمضان

«طارق رمضان، يشبه مارتن لوثر مسلم»

- بول دونلي، «واشنطن بوست»

سيحتل عمل طارق رمضان مكانه في تاريخ الفكر الإسلامي.

- لي موند ديبلوماتيك

إنه بحاث يبحث عن الأصوات التقدمية التي تتصدى لتحديات التعددية الدينية. قلة هي الأصوات الأكثر وضوحاً وأهمية من صوت رمضان

- ذا بوسطن غلوب

رمضان هو المفكر الإسلامي الطليعي في أوروبا.

- آلان وولف، ذا كورنيكال أوف هاير أديوكاشين

«بفضل رمضان جزئياً يتجه الإسلام الآن لأن يصبح جزءاً أساسياً من المشهد الديني في أوروبا».

- التايم.

«إنه صوت من الوضوح الأخلاقي والإيمان الراسخ في تقدير عميق لما هو جيد في المجتمع الغربي ولإسهامات التي يمكن أن يقدمها المسلمون إلى أوروبا والولايات المتحدة وإحداث التغيير في العالم الإسلامي».

- كريستيان ساينس مونيتور.

«في عالم يحتل فيه المسلمون والعلمانيون مواقف متفاوطة يقدم طارق رمضان إمكان حصول نوع جديد من الحوار».

- ذي إنديبندنت.

